صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تم الفهرست ﴾



في

منهج الإنشاء القويم

حسين ١٩٠٦

مواضيع انشائية - شرعية - أدبية - وعظية - حكمية - فلسفية - تاريخية - اقتصادية
طبية - طبيعية - سياسية - زراعية - صناعية - تجارية - جغرافية - عمرانية - قضائية

تأليف

﴿ أحمد الهاشمي ﴾

(مراقب مدارس فكتوريا الانجليزية)

﴿ الطبعة الثانية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

نتلو آيات الحمد والثناء . على من أنشأ آدم وعلمه الأسماء
وأنطق بنيه باللغات البينات . فى عموم الأنحاء والجهات . ونروى
أحاديث الصلاة والتسليم . على سيدنا محمد المنزل عليه القرآن
الكريم . والمرسل بدينه القويم . ذى (الأسلوب الحكيم) ،
صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهادين الى الصراط المستقيم ،

﴿ أما بعد ﴾ فان العلوم وان كثرت رياضها . وتدفقت
بالفوائد حياضها . فأبهجها حديقة سقيت أدواحها بماء الكمال
وأينعت أزهارها فأنبتت مكارم الأخلاق وحميد الخلال .
(علم الانشاء) الموصل الى حسن صياغة الكلام نثراً ونظماً
على أساليب العرب العرباء . وانى لما عنيت بتدريس هذا العلم ،
فى المدارس الثانوية بذلت جهدى . وجدت بما عندى ،
وان كنت قليل البضاعة . فى هذه الصناعة . وجلت فى مضمار

المحسنات . وقلت (انما الأعمال بالنيات) وصنعت هذا الكتاب الجليل . وألفت هذا المصنف الجميل . وشرحت فيه مواضع الانشاء العصرية . مستنداً فى شرحى الى الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية . وضمنته الجم الغفير من أمثال الحكماء . وآداب البلغاء . وكلام الشعراء . من كل ما ترتاح اليه الأفهام . وتنزاح به عن الذهن الأوهام . وتتأيد به السعادة . وتتأبد به السيادة . وبالجملة فقد أودعته ما يكون لأهل وطنى ذخرا . ويعقبه النجاح دنيا وأخرى . وسميته ﴿ أسلوب الحكيم . فى منهج الانشاء القويم ﴾ بيد أنى لا أشك فى أن كثيرين من الفضلاء تنجلى لهم حقائق أخرى بهذه المواضيع لم تنجل لى فينقصها كتابى هذا أو أنهم يرون فى بعض المواضيع غير ما رأيت وأصح منه فأكون قد أخطأته فلذلك أمتن سلفاً لكل أديب مخلص النية على ما يتحفنى به من ملاحظاته — وأسأل الله تبارك وتعالى أن يمنحنى توفيقه فى المبدأ والختام . وأن ينفع بهذا الكتاب الخاص والعام

المؤلف

أحمد الهاشمى

١

﴿ توحيد وتمجيد المولى سبحانه وتعالى ﴾

سبحان الذى توحد بوجوب الوجود ودوام البقاء وتفرد بامتناع العدم واستحالة الفناء . دلّ على وجوده خلق الأرض والسموات العلى . وشهد بوحدانيته انتفاء الفساد عن الأرض والسما . تنزّه عن مشابهة الأمثال والأكفاء وتقدّس عن الحدوث والانقسام والتأليف والأجزاء . أحاط علمه بدبيب النملة السوداء . على الصخرة الصماء . فى دياجير الظلماء . وأبدع المواد بقدرة قديمة ممتنعة عن الأنتهاء . له الأعادة ومنه الأبداء . دبر الكائنات . وأحصى المخلوقات وأحاط علمه بما لا يتناهى عدّه واحصاؤه . جلت قدرته وتبارکت أسماؤه . وعظمت نعمته وعمت آلاؤه . وقصرت عن ادراك ذاته أفكار العقلاء . وتحيرت فى بيداء ألوهيته أنظار العلماء

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

قال صلى الله عليه وسلم (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا) فالنظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويضىء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره

وعليها تجلت أنواره . والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام

وكلما رقّ الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى أنها كمال قدرة واجب الوجود ونهاية عظمته

٢

﴿ الآثار العجيبة التى أبدعها مبدع الكائنات ﴾

(ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيي به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)

ان من أجال فكره فى هذه الموجودات . وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات . وما فيهما من العجائب والغرائب ومن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والمجىء والذهاب مع تعاقبهما على ذلك بحالة منتظمة لا يتغيران.

مهما تعاقبت الفصول وتوالت الأعوام . ومن السفن التى تجرى على الماء لينتفع الناس بها فى أمور معاشهم ومن انزال الماء من السماء فتنبت به الأرض بعد يبسها وتنتشر فيها الدواب بما تأكله من ذلك النبات . ومن تصريف الرياح وتقلبها جنوبا وشمالا وشرقا وغربا حارّة وباردة . ومن الغيم المسخر بين السماء والأرض بلا علاقة تمنعه من السقوط ولا ممسك يمسكه يسير حيث شاء الله تعالى لاستدلّ على كمال قدرته ونهاية عظمته

أنظر الى السموات وما اشتملت عليه من الكواكب وعجائبها ودورانها فى أفلاكها بهذه الحركات المنتظمة مع اختلافها فى الصغر والكبر والنور والظلمة وغير ذلك

وانظر الى الأرض وما اشتملت عليه من البحار والجبال والأودية والكهوف والسهول والمعادن وخواصها ومنافعها

وانظر الى الحيوان الذى بلغ فى الصنع أعلى منازل الغرابة وأسمى درجات الاحكام لو تأمل العاقل ما انطوى عليه من غريب التكوين وبديع الصنع وما اشتمل عليه من الأعضاء الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلاف أبنيتها ودقائق صنعها لانبهر عقله وتحير لبه لاسيما وقد اختلفت أصنافه

فمنه ما يعيش فى الهواء وما يعيش فى الماء وما يعيش على سطح الأرض وما يعيش فى اثنين من ذلك ومنه ما يمشى على أربع ومنه ما يمشى على بطنه فسبحانه تعالت قدرته

وانظر الى النبات وتباينه فى الأشكال والأزهار والأوراق والثمار والبذور والروائح والطعوم والألوان والمنافع والمضار . قال الله تعالى (أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) وقال تعالى (أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت)

فلاجرم أن من أوجد هذه الموجودات المتقدمة وأحكمها وأبدع ايجادها على غاية الاحكام والاتقان يكون موجوداً وقادراً أتم القدرة فسبحان من لا يقدّر قدر قدرته الا هو ولا يحيط بعظمته سواه



٣

﴿ رأس الحكمة مخافة الله ﴾

مخافة الله هى الشعور بالقرب المعزز بالخشية من الذات

العلية يبعثنا ذلك الشعور الى فعل المأمور به وترك المنهى عنه
فى الاجتماع والعزلة والى التسلى والرضاء عند وقوع البلاء
بينما الانسان لا ساعد له سواه جل شانه — وباشتراط القرب
يعلم الفرق بين الخوف من الله والخوف من غيره فان خوف
الانسان من غيره يستدعى بعداً لا قربا — وأما مخافة الله
فتستدعى قربا يجده الانسان من نفسه شاء أم أبى — ولذلك
قال أبو القاسم القشيرى من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف
الله هرب اليه . ويختلف خوف الناس منه سبحانه وتعالى

فمنهم من يخافه هربا من العقاب والعذاب وطلباً للأجر
والثواب وذلك حاصل بأصل الأيمان وعليه عامة الخلق قال
عز شأنه (وخافون ان كنتم مؤمنين)

ومنهم من يخافه لذاته ولجلاله ويراد من الخوف هنا
الخشية وعليه العارفون بالله — قال وهو أصدق القائلين
(انما يخشى الله من عباده العلماء) أى العارفون بذاته وبجلاله
وقال عليه الصلاة والسلام (أنا أخوفكم الى الله جل جلاله)

وكذلك يختلف حب الناس له تبارك وتعالى مقداراً
وكيفية . فمنهم من يحبه لاحسانه وللنعيم

ومنهم من يحبه لكونه تعالى مظهر الجمال والكمال وهذا هو الحب الحقيق الذى هام به أهلوه الألى أشرقت عليهم شمس الحكمة فطربوا لها

وبالجملة فالتعرف بالألوهية لا يحتاج الى مرشد خارجى. بل هو حاصل بالفطرة والطبيعة — وتعيين المعبود الحق جل شأنه هو المحتاج لا محالة الى الارشاد ولم يكن ذلك الا بهدايته سبحانه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ليتمموا معرفة الانسان به عز وجل فيهتدى بهديه وينتهى بنهيه كى يحظى بالنعيم الأبدى المقيم — وأهم ما هدتنا اليه الرسل لاسيما المصطفى صلى الله عليه وسلم هو محبة الله تعالى . وقد جعلها الشارع شرطاً فى الأيمان بقوله (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما) وقال تعالى (والذين آمنوا أشدّ حباً لله) فمحبتنا لله سبحانه وتعالى لذاته ولكونه محسنا منعما متفضلا على جميع عباده بجلائل النعم وخوفنا منه تبارك وتعالى لجلالته وعظمته ولكونه مصدر الخير والكمال نأتمر بأمره وننتهى بنهيه حباً فيه لا خوفا من عقابه ولا طلباً لثوابه فان الخير كله فيما أمر الله والشر كله فيما نهى عنه

٤

﴿ فوائد ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴾

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وطبعهم على أخلاق حسنة تساعدهم على انتظام حالهم وأخلاق تخالفها لأجل أن يتسابقوا بها فى عمارة هذا الكون الذى قدر وجودهم فيه الى أجل معلوم لكن لما كان تحديد الرغبة فى السبق يوجب وقوف كل راغب عند حده ويأسه من مجاوزته وبذلك تتعطل حركة المسابقة لم تعدّل الأخلاق فى أصل الفطرة فصارت تلك الأخلاق السيئة فى معرض الطغيان والوصول الى حدّ يصبح به ضرّها أكبر من نفعها لذلك اقتضت رحمة الله بعباده بمحض اختياره أن يرسل لهم أناساً منهم فطرهم على الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة وأطلعهم على مكامن الأخلاق وأسرارها وكيفية علاجها ودرجة الاعتدال منها ليهدوهم ويرشدوهم الي ما فيه صلاحهم وتقويم أخلاقهم وتهذيب نفوسهم ويبينوا لهم الخير ليتبعوه والشر ليجتنبوه ويردوهم الى حدّ الاعتدال فى مثل هذه الأخلاق قال تعالى (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم

ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين)
وقد بين الله تعالى وظيفة هؤلاء الرسل وحكمة ارسالهم فى
قوله (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة
بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) وقد اقتضت حكمة الله
تعالى أن يجعل لهؤلاء الرسل من الآيات والعلامات الواضحات
والحجج القاطعة والبراهين الساطعة ما يلجئ خصومهم الى
الاذعان والتصديق بكل ما جاءوا به من عنده جل وعلا
ويتركون ما هم عليه من العناد والحسد والتقليد قال تعالى
(ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم
الله انه قوى شديد العقاب) فهؤلاء الرسل والأنبياء مهدوا
طرق الهدى وأوضحوا منار الحقيقة وطمسوا أعلام الجهالة
فانتقلت الخليقة من الخشونة الى النعومة ومن حضيض الهمجية
الى ذروة المدنية ونادى منادى الخير فى أهل الأرض أن
أبشروا فقد غرست البركة وجاء الحق وزهق الباطل ان
الباطل كان زهوقا

وبالجملة أن نوع الانسان يحتاج الى المصالح الضرورية
الكثيرة التى لا بقاء له بدونها مثل الغذاء واللباس والمسكن

والآلات وغيرها وان الانسان الواحد لا يقدر أن يقوم بجميع هذه المصالح الضرورية بل لا بد أن يكون معه آخرون من بنى نوعه حتى يطحن هذا لذلك ويخبز ذاك لهذا ويزرع لهما ثالث وهكذا الحال فى البناء وغيره من الصناعات فهو يحتاج فى تعيشه الى اجتماعه مع بنى نوعه للتعاون والتشارك فى تحصيل تلك المصالح الضرورية ولذلك قيل (الانسان مدنى الطبع) فان التمدين هو هذا الاجتماع — وذلك التعاون والتشارك لا يتمان بدون المعاملات والمعاوضات التى تجرى بينهم ويقع فيها غالباً التنازع المؤدى الى الاختلاف والقتل واختلال أمور الدين والدنيا فلا بد لهم من قانون متفق عليه مبنى على العدل والانصاف بعيد عن الجور والاعتساف مشتمل على نظام أمور معاشهم

والعناية الأزلية وان عمت جميع الحيوانات بحيث أعطت كل حيوان ما يليق من الآلات وهدته الى ما فيه بقاؤه وبه قوامه لكنها فى الانسان أشد لأنه أشرف الأنواع الحيوانية وما عداه من تلك الأنواع مسخر له فكيف يتصور أن الله مع تلك العناية الأزلية الشديدة فى حقه لا يهديه الى قانون.

من قبله لينقاد له العوام والخواص ويحصل به انتظام أمور المعاش والمعاد ذلك القانون هو الشرع

ولما كانت ذات الله فى غاية التقدس وذواتنا فى غاية التندس فلا يمكن وصول هذا الشرع بلا واسطة ولا بد أن تكون هذه الواسطة ذات جهتين تكون لها مناسبة بالله بجهة وبنا بجهة أخرى فلا بد أن يكون انسانا مقدساً متميزا عن الآخرين بخصوصية فيه من الله مختصاً بأمر يدل على تصديقه حتى يطاع وينقاد الناس اليه

٥

﴿ ما هى الحاجة الماسة الى الدين والجامعة ﴾

أن الدين أقوى أساس تشاد عليه دعائم الروابط الاجتماعية بين أفراد أمم النوع الانسانى مهما تباينت مشاربهم واختلفت أغراضهم وافترقت أهواؤهم وتعددت لغاتهم فرابطة الدين أقوى مؤثر فى النفوس لأنها أحرزت الشرفين وهما اتصال سندها بمبدع الكائنات ودوامها الى آخر العمر فهى أجمع من الوحدات الأخرى كالجنسية والوطن واللغة وذلك لأن رابطة الجنس وان دامت بدوام سببها وهى القرابة فمصدرها

وهم الأباء أقل مرتبة من الوبوبية قال تعالى (يأيها الناس انا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقا كم) ولهذا نرى الوجل يقطع أقاربه برابطة الدين مهما تمكنت فى قلبه وهذا معلوم فى كل زمان ومكان وكم فى الحوادث من شواهد على ذلك واذا كانت الوحدة الجنسية بهذه المثابة من الضعف فمن باب أولى ما هو أضعف منها وهو الوطن واللغة التى تترجم عن تلك النفوس المودعة فى تلك اللطيفة فهى ترجمان عنها فرع لها تابعة لأشارتها

فرابطة الدين اذا تمكنت من القلوب كانت حصناً حصيناً يلجأ اليه الخائفون عند الدفاع عن أوطانهم والذبّ عن حياضهم كما أرهب سيدنا معاوية رضى الله تعالى عنه قيصر الروم (وقد انتهز فرصة التشاجر بينه وبين سيدنا علىّ فكتب اليه يهدّده بالحرب أو دفع الجزية) فكتب يقول له ان لم تكف عن هذا والا سلمت الأمر لصاحبى وكنت أول سهم من سهامه يرمى به اليك .. فكأنما ألجمفاه بهذا الخطاب بما أوقع فى قلبه من الرعب مع اشتداد الأمر بينه وبين سيدنا على رضى الله عنه كيف لا وأن الرابطة الدينية هى السبب فى تقدم الفتح

الأسلامى وانتشاره فى بقاع الأرض فى أقرب زمن
أنظر الى ألفة الأوس والخزرج فى زمن النبوّة مع ما كان
بينهم من شقاق وحروب دامت أعواماً كثيرة فألف الله بين
قلوبهم بوحدة الاسلام

وهؤلاء ملوك الغربيين أعمالهم شاهدة على ذلك باتحادهم
على الصينيين وتألبهم أيام حروب اليونان واقتسامهم بلاد أفريقيا
وغير ذلك مما لا يحصى ولا يكاد يستقصى

وبالجملة فالدين هدى وعقل من أحسن فى استعماله
والأخذ بما أرشده اليه نال من السعادة ما وعد الله على أتباعه
وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه
ظهورا لا يستطيع معه الأعمى انكارا ولا الأصمّ اعراضاً
ولم يدع هذا الدين أصلا من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا
أما من الأمهات الصالحات الا أحياها ولا قاعدة من قواعد
النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده حرية
الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة
الطبع وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبيل السعى

٦

﴿ فوائد اتحاد الأمة ومضار تنازعها ﴾

انما الأمة الوحيدة كالجسم وأفرادها كالأعضاء

كل عضو له وظيفة صنع لا ترى الجسم عنه فى استغناء

من أعظم الأسباب وألزم الوسائل لسعادة الأمة هو وحدتها التى تجعلها كالجسم الواحد اذا شكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء قال تعالى (انما المؤمنون أخوة) وقال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) ومن المعلوم أن الناس مدنيون بالطبع أى لا بدّ لهم من الاجتماع والمخالطة لأن الفرد الواحد لا يمكن أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة الى الاجتماع الذى يجلب الى أمته الخير ويدفع عنها الشر والضير فالاتحاد وارتباط القلوب ببعضها وتضافرها على أمر واحد واجتماعها على كلمة واحدة من أهم أسباب السعادة وأقوى دواعى المودة والمحبة وكم به عمرت بلاد . وسادت عباد . وانتشر عمران . وتقدمت أوطان . وأسست ممالك . وسهلت مسالك . وقويت شوكة

وأمنت غوائل . وكثر تواصل . الى غير ذلك من فوائد الاتحاد الذى هو أعظم الفضائل وأمتن الأسباب والوسائل من تمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى وفاز بالسبب الأقوى فهنيئاً لأمة اتحدت . وعلى الخيرات اجتمعت . فتفوز على الأمم الأخرى فوزاً عظيما وتبلغ شأواً جليلا وتخلد لها ذكرا جميلا على صفحات التاريخ بكرة وأصيلا وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حتى كان أحدهم يرث الآخر دون قراباته وذوى رحمه وبذلك كانت نصرتهم على عدوهم مع قلة عددهم

فدوخوا الممالك وافتتحوا البلاد ومصروا الأمصار ومدوا ظلال العمران وشيدوا الممالك وسهلوا المسالك قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا)

وأما التنازع والتفرق فى الكلمة والرأى فهو سبب الضعف والخذلان والفشل فى جميع الأزمان بل هو مجلبة الفساد ومطية الكساد وداعية الخراب والدمار وداهية العار

والشنار فكم شاهدنا من عائلات كبيرة كانت في رغد من العيش وبيوت كثيرة كانت آهلة بأهلها حتى اذا دبت فيهم عقارب التنازع وسرى سمها فى قلوبهم وأخذ منهم الشيطان مأخذه تفرقوا شذر مذر وأصبحت بيوتهم خاوية على عروشها وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين)

وبالجملة فمن نظر فى مرآة التاريخ وتصفح غير قليل من أحوال الأمم وتقلبات الدهور وما حصل لها حتى آلت الى هذا الدثور رأى أن عزها الذى كانت مغموسة فيه وفخرها الذى تلفعت بحواشيه ومجدها الذى تقنعت به وتحلت بسرباله انما هو نتيجة ما تمسكوا به وتعلقوا بأهدابه حتى شربوا من العمر سائغه ولبسوا من الدهر سابغه وذلك لأنهم قد اتحدت أهواؤهم واجتمعت كلمتهم واتفقت وجهتهم وتواطأت أفكارهم فكان هذا أقوى عامل فى رفع شؤونهم وأشد ساعد فى اعلاء سطوتهم وأكبر نصير لنصرتهم وحصن حصين لحفظ شوكتهم لا تنال أعداؤهم منهم مراما بل يطأطئون رءوسهم لهيبتهم اكراما ويخرون للأذقان لهم تعظيما واحتراما

ويبلغون فى الحضارة والمدنيـة شأواً عظيما تلك أمة لاغيب الله لها شمساً مشرقة ولا بلغ الله عدوها أنوارها ـــ والويل والثبور لأمة دبت بينهم عقارب الخلف فتسرى فيهـم ريح الشقاق حتى قضى عليهم بالتشتت والفراق

٧

﴿ فوائد التعاون والمساعدة ﴾

التعاون صفة تبعث الانسان الى مساعدة أبناء جنسه والى الاتحاد معهم قولا وفعلا للحصول على المنفعة العامة وبعبـارة أخرى هو تأثير الشعور بالوحدة الوطنية

والمنفعة العامة كامنة ضمن المنفعة الخاصة اذا نحا نحوها الأفراد وأخذ كل بيد الآخر وحافظوا على أسباب الائتلاف وتوطدت بينهم دعائم المحبة وكانوا كبنيان واحد يشدّ بعضه بعضاً . وأما اذا تفرقت قلوبهم ولعبت بهم الأهواء فلا ترى للمنفعة العامة لديهم محلا ولا يكونون أمة بل آحاداً مجتمعين أجساما مفترقين قلوبا وأهواء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شـتى تستحكم فيهم الميول فتتمكن فى طباعهم العـداوة والنفرة ويصيرون كما قيل « غنما متبدّدة فى صحراء قد أحاطت بهـا

أصناف السباع فبقاؤها مدة سالمة اما لأن السباع لم تصل اليها بعدو لا بد أن تصل اليها يوما ما واما لأن السباع أدتها المزاحمة الى القتال وتمنعها شدة الجوع من المضى مع الغضب الذى ربما أذهبته شدة الجوع بالكلية أو يغلب فريق فريقا فيصير الغالب غاصباً ويصير المغلوب سارقا فتقع الغنم بين غاصب وسارق

ولا سبيل الى التعاون على المنفعة العامة الا اذا أشرب فى قلوب الأفراد حب الوطن وصار لديهم الوطن كمنزل واحد هم أهلوه وأعضاؤه وقد جعله المشرع الأول عليه الصلاة والسلام من الخصال الدينية فقال (حب الوطن من الأيمان) والآثار الصادرة عن الحكماء والسياسين مؤذنة بطلبه وقد قصدوا بذلك بعث الأفراد الى محبوب واحد وهو الوطن حتى تتفق أهواؤهم فتتألف قلوبهم فيعم الصلاح بينهم قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب) فالتعاون عليه مدار نظام الأمم وملاكها وحياتها والاحتياج اليه أمر فطرى فى الانسان اذ لا يمكنه أن يقوم بمفرده بسائر وظائف الحياة البشرية فهو مضطر الى الاجتماع بطبيعته ولما كان الاجتماع لا يخلو من

المنازعات المفضية الى تغالب القوى المتنازعة كانت الحاجة ماسة ولا بد الى منع ذلك التغالب ومن أهم الوسائط فى منعه وأعظم الوسائل فى دفعه التعاون والتناصر والتآلف والتضافر فبالتعاون تدفع غوادى الطبيعة وتتقى مخاطر الوحدة ويتسابق فى ميدان الحياة فيدعوه ذلك الى المثابرة على العمل فيزرع ويستثمر ويعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران الى غير ذلك مما تدعو اليه الطبيعة البشرية ـ ولولا التعاون لثبطت همته وقعدت به عزيمته حيث يعتقد من نفسه العجز عن مطاردة العوادى ولا يقدر بمفرده على اتقاء مخاطر الحياة البشرية فيكتفى من العيش بنزره ومن الحياة بقدر ما تقتضيه الطبيعة وهذا مناف للحكمة الالٓهية التى أودع الله من أجلها فى الانسان العقل

وبالجملة يجب التعاون على فعل الخيرات بحيث يقضى البعض للبعض ما هو محتاج اليه ولا يمكنه الحصول عليه وكذا التعاون على ترك المنهيات يرضى الله عنهم فيمنحهم خيره ويكفيهم شره فمن جمع التعاون بقسميه فقد كملت سعادته وطابت حياته وهنئت عيشته وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن التعاون على

فعل الشر والضير فان فى التعاون على ذلك مفاسد كثيرة ومنكرات فظيعة كبيرة وراءها عذاب أليم وعقاب شديد

٨

﴿ العقل وفوائده ﴾

وأفضل قسم الله للمرء عقله　　فليس من الخيرات شيء يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله　　فقد كملت أخلاقه ومآربه

غير خاف أن أشرف الخواص التى تميز بها الانسان من الحيوان (العقل) الذى هو سلطان القرائح ومصباح السوانح . ومفتاح المصالح . ورأس العلوم . وسبب ادراك المعلوم . ومادة الفهم وينبوع الحكمة . وهو الموصل الى صلاح الدين والدنيا لا تستقيم الحياة الا به ولا تدور الأمور الا عليه . وهو نور موضوع فى القلب كنور البصر فى العين ينقص ويزيد ويذهب ويعود وكما يفقد نور البصر من العين ولا يتغير من أشكالها شيء كذلك اذا عدم العقل من القلب لا يتغير له صفة وكما تدرك بنور البصر شواهد الأمور . كذلك يدرك بنور العقل كثير من المحجوب والمستور . فعمى البصر كعمى القلب

وكيف لا يكون العقل أجل موجود فى البرية . وأشرف

موضوع فى هـذه الخليقة الآدمية . وقد خصه الله تعالى بالانسان لشرفه وكماله وعزته وجلاله (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى)

قال بعض الحكماء العقل أمير والخصال رعية فان قوى عليها أطاعته وان ضعف عنها خالفته . والجسم مدينة والعقل ملك يديرها وقواه وحواسه جنوده وأعوانه . وجوارحه رعيته . والنفس الأمارة بالسوء عبدينازعه فى مملكته ويسعى فى هلاك رعيته . له شيعة وأتباع من الشهوات فصار الجسد كثغر وموضع جهاد ورباط فان هو ضيع ثغره وأهمل رعيته غلبته النفس وقويت عليه بجنود شهواتها فأهلكته وأهلكت جنوده وان هو جاهدها حق جهادها وأحال بينها وبين شهواتها ومرادها كان ذلك سبباً لبقاء ملكه وعمارة حصونه ـ هذا والعقل ينقسم الى طبيعى معتاد ومكتسب مستفاد . فالأول ما سبق الكلام عليه . والثانى ما تحصل بكثرة التجارب ومرور الأيام والليالى بالمواهب والنوائب . وليس المكتسب بمنفصل عن الغريزى بل هو نتيجته يزيده قوة وينميه ويشيد أركان مبانيه

وبالجملة فالعقل يعقل ويحفظ صاحبه من شهواته لأنه نور فى القلب به يفرق بين الحق والباطل • وقد روى عن جبراءيل انه أتى آدم عليهما السلام وقال له أتيتك بثلاث فاختر واحدة . قال وما هى . قال العقل والحياء والدين . قال آدم اخترت العقل . فقال جبراءيل الى الحياء والدين ارجعا فقد اختار العقل عليكما فقالا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان

٩

﴿ فوائد العلم ومضار الجهل ﴾

لا يخفى أن العلم أفضل مكتسب . وأشرف منتسب وأنفس ذخيرة تقتنى . وأطيب ثمرة تجتنى . به يتوصل الى معرفة الحقائق . ويتوسل الى نيل رضا الخالق . وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها . وأكرم فروعه وأزكاها . لا يضيع أبدا صاحبه . ولا يفتقر كاسبه . ولا يخيب مطالبه . ولا تنحط مراتبه . والعلم لا يوصل الى معرفة فضله وجلالة قدره الا بالعلم كما لا يجهل شرف مكانه وعلو شأنه الا أهل الجهل لقصور أفهامهم عن عظيم منافعه وكريم مواقعه وهو اسم من أسماء الله عز وجل وصفة من صفاته وهو عظيم فى نفسه وحامله عزيز

فى قومه ان قال فكلامه مرفوع . وان أمر فأمره مسموع
فهو وسيلة لكل فضيلة وذريعة لكل شريعة . ونور زاهر
لمن استضاء به وقوت هنىء لمن تقوت به ترتاح به الأنفس
اذا هو غذاها وتفرح به الأفئدة اذا هو قواها والدليل على
الخير والعون على المروءة والصاحب فى الغربة والمؤنس فى
الخلوة والشرف فى النسب قال الله تعالى (يرفع الله الذين
آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال سبحانه وتعالى
(شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط)
وقال عليه الصلاة والسلام (أطلب العلم من المهد الى اللحد)
بخلاف الجهل فانه رأس الفضائح . ومعدن القبائح . ومضمار
العثار . ومعيار الشنار . وسبب الخمول ودليل التخلف وداعية
المقت ان نطق صاحبه تعرض للخزى والذم . وان تصرف
صاحبه فى حال سقط لليدين والفم وهو دليل على غلظ الطبع
وجمود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكدر النفس
وقد عصم الله تعالى منه أنبياءه وحذر منه أولياءه فقال (خذ
العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال عليه الصلاة
والسلام (لا فقر أشد من الجهل) وقال ابن المعتز نعمة الجاهل

كروضة على مزبلة

وبالجملة العلوم كثيرة والمعارف جمة وأنواعها مختلفة وبعضها أشرف من بعض والاحاطة بجميعها محال . فحينئذ يختار من العلم أرفعه ويستعمل منه أنفعه وما زال العلم من الانسان بمنزلة الروح من الجسد فكما يحيا الجسد بالروح كذلك يحيا صاحب العلم فى الناس بعلمه وهو فرض واجب بشروط عشرة أولها اخلاص النية من الالتباس . وتطهير الباطن من الأدناس . قال عليه الصلاة والسلام (انما الأعمال بالنيات) وثانيها اختيار العلم المؤدى الى السعادة الأبدية والحياة المرضية الهنية كالعلوم المنقولة مع معرفة العلوم المعقولة لتكون سلما الى الارتقاء . وثالثها انتقاء العلماء واختيار الأتقياء الأدباء فهم الدواء لجميع الداء . ورابعها الاجتهاد فى طلبه وتحمل نصبه وتعبه . وخامسها التواضع وترك العجب والمباهاة به . وسادسها ترك التقدم به والظهور من أجله والتحكم بسببه . وسابعها الانصات وحسن الاستماع . وثامنها حسن السؤال . وتاسعها ترك الجدال والمراء . وعاشرها العمل بمقتضى العلم وهو سره ومعناه وفائدته العظمى لمن توخاه قال الله تعالى (الذين آتيناهم

الكتاب يتلونه حق تلاوته) وقال عليه السلام (من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم) وقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) وسئل الزهرى أيما أفضل العلم أم العمل فقال العلم لمن جهل والعمل لمن علم . وقد أبان الله عز وجل فضل العلم عن الجهل بقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا

وقال المسيح بن مريم عليه السلام عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما وعالجت الجاهل فأعيانى — ألم تر أن الانسان بالعلم استخدم أنواع الموجودات وانتفع بأصناف الكائنات . وأظهر غرائب الأعمال. وأخضع شوامخ الأثقال وطار على البخار . واختصر مطولات البحار والقفار . واستخدم البرق رسول أخباره . والنور مصور آثاره . وجعل الكون بأجمعه تحت طوعه . ومادة فكره وصنعه . فاستنبط واستخرج واستظهر واستنتج . وأبدع وصور . وأحكم وقدر . وبدل وغير . وأمسك وطير . وحلل وركب . وأحضر وغيب

وبحر وصعد . وجسم وشكل . واختصر وطول . وصعب وسهل . وأكثر وقلل . فهو الكنز الذى يقنى . والثروة التى لا تنفد ولا تفنى

أجل ما يبتغى دوما ويكتسب ... ويقتنى من حلى الدنيا وينتخب
علم شريف عميم النفع قد رفعت ... لمن يزاوله بين الملا رتب
ان عاش عاش سعيدا سائدا أبدا ... لا يستضام ولا يثنا فيجتنب
وان يمت فثناء شائع حسن ... وبعده رحمة ترجى وترتقب

فبالعلم نستنير الأفكار . وتبصر الأبصار . وتظهر الأسرار وتسمو المقاصد . وتصفو الموارد . وبه ارتقى الأنسان ونجح وكدّ وكدح . وأدلى ومتح . وأخذ ومنح . وغرس وفلح وطار وسبح . فما العلم الا كمال الانسان . وحلية العقول والأذهان . وسور الشرائع والأديان

١٠

﴿ المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ﴾

هذا الحديث النبوى من جوامع الكلم ونوابغ الحكم أفاد أن المسلم الذى يعتدّ باسلامه (بحيث يكون سبيلا لصلاح دينه ودنياه) هو من لا يصدر عنه أذى ولا سوء

لأحد بقول ولا فعل ومن لا يصدر عنه السوء والأذى فانما يصدر عنه الخير والنفع ضرورة أن الانسان اما نافع أو ضار فنفى أحد الوصفين عنه يستلزم ثبوت الآخر له

اذا أنت لم تنفع فضرّ فانما ... يرجى الفتى كيما يضرّ وينفع

فمن لم يكن له من اسلامه ما يمنعه عن أذى اخوانه فهو جدير أن لا يسمى مسلما فضلا عما يلحقه من المذام — وآثر اليد واللسان بالذكر لكونهما أقوى آلات الجسم وأكثرها نفوذاً فى الأعمال ولما كانت آلات البدن خادمة للارادة منفذة لأوامرها فأينما وجهتها توجهت كأن الانسان عبارة عن قوتين احداهما آمرة والأخرى مأمورة فالآمرة معنوية لطيفة لا ترى لها عملا وان كنا نشعر بها بخلاف المأمورة فان أعمالها مرئية محسوسة مثلا اذا تذكرت أن لك صديقاً تود أن تزوره فانك تجد من ذلك فى نفسك تأثراً وانفعالا يبعث أعضاءك على السعى الى ذلك الصديق لزيارته فهذا الانفعال الذى وجدته ليس شيئاً محسوساً بل الذى تحس به حركة أعضائك فى السعى اليه — ومعلوم أن الارادة النفسية هى كغيرها من اللطائف المودعة فى الانسان ساذجة فى مبدأ نشأتها قاصرة

عن الجولان فى الأشياء فهى لذلك محتاجة لأن تربى حتى لا تأمر الا بما ينفع ولا تمضى الا فى ما ينبغى المضى فيه ولو تركت على سذاجتها وقصورها لم تهتد الى ذلك اذ هى قوة روحانية — والقوة الارادية كأنها محصلة لعدة قوى كلها مثلها فى أنهاخلقيةفى الانسان أوتتولدفيه بالاختلاط والتدريب

وبالجملة كان نبينا صلى الله عليه وسلم يتفرّس فى أحوال الناس ويرى من أمراض قلوبهم وآفات نفوسهم ما لا يرون هم من أنفسهم فيرشد الانسان الى ما يراه أنجع فى علاجه ويصف له دواء دائه فقط مع الرفق والتلطف به

١١

﴿ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ﴾

خلق الحق سبحانه وتعالى الانسان وقوّمه فى أحسن تقويم وجعل له فضلا على سائر المخلوقات فى نفسه وجسمه

أما فضله فى نفسه فبالقوة المفكرة التى بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأى . وأما فى جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل

ما أوجد فى هذا العالم وأما بالنسبة لقواه الجسمية فهو فيها أقل من كثير من الحيوانات وأما القوى العقلية فهو متفرد بها ولذا كان له السلطان العام والتصرف التام فى كل ما أوجد فى هذا العالم فلا تغادر أوامره ما يطير فى جوّ السماء ولا ما يسبح فى لجج الماء ولا ما يدبّ على وجه البسيطة ولا ما استكنّ فيها

ثم ان الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة فى جدار ما فضله الا العقل واللسان

فمن صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فجدير بأن يسمى انسانا ومن دعته وحكمت عليه نفسه الشرّيرة بصرف همته الى تربية القوة الشهوية التى تعود منفعتها على الجسم فحقيق بأن يلحق بأفق البهائم (ان هم الا كالأنعام بل هم أضل)

ثم ان الحكيم العليم جلت قدرته حكم على الانسان بالسعى والعمل للحصول على ما به يقوّم وجوده ويطيب عيشه ويدفع عنه عوادى الحوادث

ولما حكم سبحانه على تلك المقوّمات بالخفاء تحت أستار حكمه وجب على الأنسان أن يستخدم عقله وأعماله الجسمية فى

كشف الغطاء عن تلك المقوّمات فينتفع بها فى قوام حياته ودوام لذاته ويحصل ما به تزجية المعاش له ولغيره لأجل بقاء بنى نوعه

ولما عرف أنه غير قادر على الوصول الى تلك الغاية بنفسه بل لا بد من وسائط توصله الى ما استكن تحت طى الفكر عمد الى استعمال القوة العاقلة واستمال الخليقة واستعان بها فتوصل الى ما كمن بفكرته وأخضع بعض العوالم لخدمته فنال مقصوده وحصل على مرغوبه

ومن البحث والتنقيب وأعمال الفكر وقياس المجهول على المعلوم انكشف له ما انكشف لأنه كلما ارتقى فى معارج التمدن والحضارة تزداد رغبته فى استجلاء غوامض الأمور واستطلاع حقائقها وما استتر تحت حجب الحكمة فهو الى الآن مجد فى طلبه كثير السعى والاجتهاد فى استخراج غوامض أسراره وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) وحيث قصد الانسان افراغ عمل نافع يلزمه أن يتفرغ له بقلبه وقالبه وذلك لأجل أن لا تتوزع قواه الى غيره فيطول زمن العمل بل ربما

تسارع الى العامل الملل والكسل ويدخل فى العمل الخلل وحينئذ يتعوّد الانسان الضجر والكسل ويميل الى حب الراحة والهوينا فلم يؤد حقا ولم يصبر على عمل ولم يتوصل الا الى الفقر والفاقة كما قيل

رأيت التوانى زوّج العجز بنته　　وساق اليها حين زوجها مهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتكى　　رويدكما لاشك أن تلدا فقرا

فمن ترك العمل أو عمل ولم يتقن عاد وبال ضرره على نفسه وعلى الهيئة الانسانية لأنه عضو منها وكل عضو ترك ما لأجله أوجد يبطل نفعه — فحق الانسان أن لا يذهب عامة أوقاته الا فى اصلاح أمر دينه ودنياه وفى موصلاته الى غاياته وذلك لا يكون الا بالعمل واتقانه لتتم الفائدة ويعم النفع ويرضى الخالق عليه

ولما كان عمر الانسان ولو طال كزيارة ضيف. أو سحابة صيف ولا يعلم فى أى وقت يكون منتهاه. ولا مبلغ مداه. لزمه فى كل لحظة من لحظات الحياة . أن يقرن عمله بتذكار لقاء مولاه . فانه هو الذى منحه القوّة والقدرة على العمل والتمتع بنتيجة ما أتمه ونواه . فيعمل عمله الدنيوى . مع ملاحظة أمره الأخروى

وبذلك يكون فى الزمن الواحد قد عمل عملين وفاز بمرتبتين فيكون فى الدنيا منعما بمحاسن أعماله المأثورة وبعد موته بحسن السيرة

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا * وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

وهذه مرتبة عالية ومنقبة سامية لا ينالها الا الذين صرفوا أوقاتهم فى تهذيب النفس وتربية العقل فتخلوا عما يشين من الرذائل وتحلوا بما يزين من الفضائل

١٢

﴿ فوائد تعميم المنافع ﴾

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

هى ولا مداجاة فى الحق قوام العمران . وسر نظام الاجتماع الانسانى وطريق تقدم المدنية لا تقوم بدونها سعادة ولا تتم مع عدمها حضارة ترتقى الأمم بتمسك أفرادها بها وتنحط باعراضهم عنها — أرأيت لو أهمل الانسان جانبها وصرف عنان عنايته عنها مكتفياً بالاشتغال بمصلحته الذاتية ومنفعته الشخصية لا يهمه غير نفسه ولا يعنيه سوى أمره

ان سلم فعلى الدنيا السلام أو مرض فلا برئ أحد من الأنام هل تبقى بين الناس صلات أو يقوم اتحادها على عمل مفيد ومشروع حميد هل يمكن أن يكون لأمة جند منظم يردعها طوارئ الأعداء ويبذل روحه فى مواقف الكفاح صونا لشرفها وحياطة لحوزتها ويفتتح لها البلدان ويقوم بكبح جماح أهل العصيان طلباً لتأييد منعتها وتقوية شوكتها واعلاء كلمتها لو لم تكن قلوبهم مشربة حب المنفعة العمومية قال عليه السلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

أم هل يمكن أن يكون لها من أمرائها ووزرائها ومجالس أعيانها سياسة يدبرون أمرها ويرفعون قدرها يجهدون أفكارهم فى تحسين مستقبلها ويكدحون فى توسيع نطاقها مع أنهم يتيقنون أنهم ربما لن يتمتعوا باجتناء ثمار تدبيرهم لبعد أجله عنهم وكان يمكنهم لو كانت المنفعة الشخصية عنايتهم أن يتفرغوا لادارتهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وادراك أوطارهم ولا سيما أصحاب الثروة الواسعة منهم

أم هل يمكن اذا لم تكن للمنفعة العامة حقيقة تقصد أن تعانى العلماء مشاق الأسفار وتقتحم الأخطار فى البحث

على أثر يشاهدونه أو خبر يروونه أو علاج يجربونه أو مظنون يحققونه وقد يتوقعون على أموالهم وأنفسهم اتلافا فى غضون أبحاثهم واختباراتهم ويقدمون بعد ذلك عليه طمعاً فى حقيقة تنكشف للخالفين ومخبوء يظهر للتالين

تلك آثارنا تدل علينا　　فانظروا بعدنا الى الآثار

وبالجملة حب المنفعة العمومية رأس الفضائل وأس الخلال الحميدة ولو ربى الناشئون منا عليه وتعودوه من الصغر لما تعاقبت علينا الصروف الفادحة وألمت بنا النوائب الموهنة التى منها انتشار السرقة فى البلاد والعبث بين العباد ومنها ظهور داء الرشوة ومنها التكاسل فى الأعمال الخطيرة والتهاون فى الأمور العظيمة وتفرق قلوب الرجال وذهاب كل فى مجال وفقد عروة الارتباط وسوء الادارة — كل ذلك لم ينشأ الا من حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها

فالمرء المشغف بذاته . العامل على لذاته . أى مجد له اذا لم تتعد آثاره وأى خير فيه اذا اقتصرت مزاياه على نفسه ولم ينتفع به بنو جنسه وأى فضل له فى حبس آثاره فى صحن داره

اذا ما قضيتم ليلكم بمنامكم   وأفنيتمو أيامكم بمدام
فمن ذا الذى يغشا كمو فى ملمة   ومن الذى يلقاكمو بسلام

فاذا أوتى المرء حكمة لقمان وفصاحة داود ومال قارون وجمال يوسف وقوة عوج وعمر نوح ولم يشركه فى هذه النعم أحد فأى فائدة للدنيا من وجوده وأى ذكر له يبقى بعد مماته

خلقوا وما خلقوا لمكرمة   فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد   فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فمن جعل غايته مصلحته الذاتية ثارت فيه الشرور وهاجت عنده الشهوات وانما تستتر عن العيون بستار العجز وحجاب الضعف بخلاف من اتجه وجهة المنفعة العامة فان الفضائل تمتزج بلحمه ودمه ويحلوله مصافحة الحسنات ومكافحة السيئات ولو نافرته الأيام وعانده الزمان وكل ميسر لما خلق له

١٣

﴿ لكل امرئ من دهره ما تعودا ﴾

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوّده أبوه

من المعلوم أن الطفل يولد مجرداً من كل الوسائل خالياً

عن معرفة الأشياء عديم البصيرة فارغ السريرة عاريا عن الوظائف العقلية لا يرى الا ما يقع عليه بصره ولا يشعر الا بما يؤثر فى جسمه ولا يسمع ضوضاء العالم ولا ينظر الى أشباح الكائنات الا بمرآة خيالية وهو حينئذ محاط من أهله بالشفقة والحنان فيربو جسمه وتنمو قواه حتى يستقبل الحياة الانسانية وتنتشر فيه مبادئ القوّة العقلية فينظر الى العالم فيراه مشهداً غريب الأحوال ومسرحاً تلعب فيه الآمال فتشمله شمول هذا الظهور وتلعب برأسه نشوة تلك الأمور فيبيت بها مشغوفا ويصبح اليها ملهوفا فان لم توجه قواه من مبدأ هذا الظهور الذى يكون فيه كقطعة الشمع المرنة القابلة افراغها فى أى قالب وتشكيلها بأية صورة الى وجهة حسنة وغاية نافعة استعملها كيفما توجهه بهيمته فينشأ ضائعاً فى مفازة العمر حائرا ولا يلبث حتى يرى نفسه قائما فى وسط هذه الدنيا مغموراً بأمواج هذا العالم تلطمه ضرباته وتأخذه ضجاته مع تزاحم حاجاته وتوالى حسراته فيندفع بخيالاته الكاذبة الى مطامع خاسرة خائبة ويصير مضغة بين أضراس الأمانى الخاطئة ومسقطاً لنوائب الزمان فيمكث يصارع الحال ويأسف على

الماضى ويرتعد من المستقبل — ولو وجه أهله قواه من أول نشأته على التدريج الى سبيل نفعه ونفعهم ونفع وطنهم لسار من مبدأ أمره فى هذه الطريق المفيدة حتى يعتاد الأعمال النافعة ويصير عضواً عاملا فى أمته فيعيش وقد حصل على مزايا نفعه وعلم خاصة نفسه فينظر فى أفراد الكائنات نظر حكمة وتدبير ويسعى خلف اجتناء ثمراتها حتى يمد عليها ظلال رايته ويخضع الصعاب تحت رئاسته ويسعى فى طرق المكاسب فيحسن لديه السعى ويطيب له المربع وما ذلك الا لتربيته وتعويده من مبدأ نشأته سلوك طرق المنفعة والخير فالمرء ابن عادته و (لكل امرئ من دهره ما تعوّدا) ومن شبّ على شيء شاب عليه — ألا ترى أن أولاد الفلاحين بتعويدهم مباشرة الأعمال ومعاناة الكدّ ينشئون مولعين بفلح الأرض وزراعتها والعمل فيها كآبائهم وكذلك الكاتب والخياط وغيرهم

وبالجملة الطفل يشبّ ويكبر على الشكل الذى أفرغ فى قالبه والصورة التى منحها له أهله والعادة التى صادفها فى طريق تربيته . ان خيرا فخير وان شرا فشر

والابن ينشا على ما كان والده ان الأصول عليها ينبت الشجر

فيجب على الآباء وولاة أمور الأحداث أن يقوموا بتربيتهم وتعليمهم على الوجه الأكمل حتى يخرجوا من ربقة السؤال ويسلموا من تبعة التقصير وتوجه الاثم اليهم لو أهملوهم من ذلك وهم تحت تصرفهم وفى رعايتهم و (كل راع مسئول عن رعيته) فضلا عن أن يكونوا لهم عونا على المعيشة ونوال السعادة وأثرا حسنا يذكرون به ونعمة جليلة يغبطون عليها

نعم الاله على العباد كثيرة | وأجلهن نجابة الأولاد

وقال الآخر

لكل امرئ فى الخير والشر عادة | وكل امرئ جار على ما تعودا

ولو سلكت كل عائلة ذلك المنهج القويم . وقامت بحقوق التربية والتعليم . لم تلبث أن تؤلف أمة سامية القدر . جليلة الذكر . لا يشق غبارها . ولا يضام جوارها . ولا يقوم لها عنيت . ولا يسطو عليها اصليت . بل ينهض بها الوفاق وينحط دونها الشقاق . وتكون أس حضارة . ورأس عمارة ومن نظر الى الأمم وتأمل أحوالها . وعلم مبدأها ومآلها يرى العجب العجاب فى التقدم والانقلاب . نشأ ذلك من اعتنائهم بالتربية فترى كثيراً من الأمم حلوا أرضاً مجدبة قحلة

ومفاوز يابسة محلة . بتربيتهم وعلمهم وحسن تدبيرهم وجودة تصرفهم أصبحت لهم جنة مثمرة . وروضة مزهرة . وأغدقت عليهم بصنوف النعم . وأظهرت شأنهم بين الأمم . حتى عوضوا الكهوف بالقصور . والكلأ بالزهور . والجلود بالحرير والحصباء بالسرير . الى غير ذلك من أنواع التقدم والرفاهية

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

فيجب علينا معشر الأمة المصرية أن نباريهم ونبذل أنفس ما لدينا حتى نجدد شرفنا التالد ونجلب حظنا الشارد ويستقيم الأود وتصلح البلد

فلله الحمد ها هى المدارس قد قام سوقها وانتظم سيرها وأحكم أمرها مفتحة أبوابها مستوفاة أسبابها تنادى طالبيها وتمنح محبيها

١٤

﴿ المدارس ﴾

المدرسة دائرة المعارف وخزانة الأدب وكنز الرغائب وجواهر الأدب ونهج البلاغة ومفتاح العلوم وكشف الأسرار

وشمس المعارف وسلم العلوم وعنوان النجابة وتحفة الطلاب والوسيلة الأدبية والسعادة الأبدية والشافية والكافية ودار التربية والتأديب والتمدين والتهذيب تصلح شأن المرء بما يتلقاه فيها من المعارف وما يكتسبه فيها من العلوم المفيدة التى تجعل عنده استعدادا لأن يكون فى المستقبل رجلا قادراً على القيام بما يوصله الى مطلوبه من الواجبات أحسن قيام وتبث فى روحه حب الوطن وأهله وتزيد عنده قوّة الأدراك وتربى له العقل الغريزى والمكتسب وتجعل عنده من الخصال أحسنها ومن اللطائف أحمدها وترشده الى الطريقة التى يجب اتباعها والوسائط التى ينبغى اتخاذها للحصول على الشرف والكمال ومستقبل الآمال

وبالجملة فالمدرسة مطلع شموس العلوم ومشرق أنوار الفوز والسعادة ترضع الناشئ فوائد الآداب من صغره وتقوّم ما اعوجّ من أخلاقه وعاداته حتى ينشأ كاملا مهذبا عالما بحقوقه عارفا ما يجب له وعليه وتعدّ له مستقبلا يضمن له الرفاهية والسعادة وتصونه من طوارئ العلل والآفات وتحفظه من أسباب الأمراض والعاهات وتعلمه كيف يطلب الثروة من أحسن مواردها وأشرف طرقها وتهديه الى الطريق الذى يرقى

به أوج الكمال

١٥

﴿ فوائد المعارض العمومية ﴾

المعرض مدرسة رجال التجارة وأرباب الصناعة فيه تخلع الناس عنهم ثياب الكسل وتتزين بحلل الجد والعمل فهو ميدان تتسابق فيه الصناع وتتنافس فيه الزرّاع فيشمر كل منهم عن ساعد الجدّ والعزم ويطلق عنان العناية والحزم . فيه تعرض نتائج الآراء السديدة والأفكار المفيدة فمن حاز قصب السبق في هذا الميدان يمنح وساما دلالة بشرفه وعلامة بنشر اجتهاده وتنشيطاً له وتنافساً لغيره فكل يتسابق في اتقان عمله وابراز مخترعه واظهار ما اكتشفه من الآثار وما جناه من الثمار

تلك آثارنا تدل علينا　　　فانظروا بعدنا الى الآثار

فبذلك يكون الانسان أدى ما خلق لأجله وهو العمل وطرح التقاعد والكسل . فاذا نظرنا الى معرض باريس وما احتوى عليه من الصنائع المتنوّعه والفنون المختلفة التي تدهش الأبصار وتحتار في كيفيتها الأفكار نستدلّ دلالة واضحة على تمدين الأمم الأورباوية واتساع دائرة علومها وصنائعها وزيادة ثروتها

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالرجال فلاح

فالمعرض مدرسة علمية صناعية تجارية زراعية لجميع الأمم ومصباح يستضاء به فى تقدم الصنائع والفنون ومفتاح به تظهر جميع الخبايا ودقائق المعقول والمنطوق

وبالجملة فهى مظاهر أعمال الأمم وبراهين تفاوت الهمم ومشارق أنوار الاختراع ومجمع أحاسن المصنوعات ونظام نفائس المبتكرات وتختلف باختلاف الممالك وتباين حاجاتهم وحاصلاتهم ومبلغ علومهم وقوة مداركهم وميلهم الى جليل الأعمال وعظيم الآمال

١٦

﴿ أى الأمرين أكثر نفعاً للمتعلم ﴾
أتعليمه بالرغبة أم تعليمه بالرهبة

لا خلاف فى أن الطباع ليست سواء فى أفراد النوع الانسانى

فهذا حاد الذكاء سهل الانقياد شغوفا بالتحصيل لا يطلب سوى هديه الى طريق التحصيل والتهذيب الا أنه لا ينبغى ارسال لجامه كيلا ينتج قبل أوانه فتضعف قواه فيما بعد

وذاك يكون حادّ الذكاء ولكنه بطيء وهذا لا يلزمه سوى استعمال المهماز وحثه على صرف الجهد

وآخر يكون حادّ الذكاء مشغوفا بالتحصيل ولكنه عنيد صعب المراس فيؤخذ بتلطيف طباعه وتهذيب أخلاقه

وآخر يكون سهل الانقياد شغوفا بالتحصيل ولكنه كاسد الفكر بطيء الفهم وهذا يحتاج الى رقة المعاملة والتنهيض تارة والمساعدة أخرى كيلا يضعف جأشه أو ينبعث يأسه فيقعد الدهر ملوما محسورا فربما وصل الى الغاية المطلوبة

وآخر يكون كاسد الفكر بطيء الفهم كسولا عن العمل وهذا يمكن تقويمه مع الصبر وتوالى الزمن

وآخر يكون مع كسادة فكره وبلادة فهمه خبيث الطبع شرير النفس ومثل هذا لا ينبغي اليأس منه بادئ بدء بل يحسن أخذه بالاصلاح والتقويم والتهذيب الى أن تضيع فيه الحيل

ومرتبة الاضطرار والرهبة ومرتبة الاختيار والرغبة تختلف باختلاف استعداد القوى العقلية

فالنفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضىّ منها عن التهذيب

لأن لمحمودها أضـداداً مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان من أغفل تربيتها تفويضاً الى العقل أو توكلا على أن تنقاد الى الأحسن بالطبع أعدمـه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلا وفى صورة الجهل داخـلا لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة . ولـكل قوم مواضعة وذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد الى الطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة وبالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما

وان أوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى فان الناشئ بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعاً وانما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين

قال بعض الحـكماء (اقذعوا ـ ادفعوا ـ نفوس أبنائـكم فانها طلعة وحادثوها بالحـكمة فانها سريعة الدثور فانكم اذا لم ترعوها تنزع بهم الى شر غاية) وهـذه مرتبة الاضطرار والرهبة بخلاف مرتبة الاختيار والرغبة ففيهـا تقوى ارادة الناشئ بحكمة ما حصل عليه من التجارب والتأمل فى الأسباب والنتائج فيرى أن اضطراره الى طاعة البواعث النفسيه والجسميه

قد صار اختياريا

وبالجملة يحسن بالمعلم أن يتعرّف كل ناشئ ليعلم أطباعه وأخلاقه واستعداداته الجسمية والعقلية كى يعامله بحسبها فلا يعامل الكل باللطف كما لا يسوق الجميع بعصى الخشونة فان منهم من تصلحه القساوة بينما الآخر يصلحه المعروف ومن ينفعه الاحسان بينما يسوء الآخر ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج الى العصا كما قيل

البعض يضرب بالعصا والبعض تكفيه الاشارة

ومنهم من يسوقه المهماز بينما الآخر يلزمه اللجام

ولكن التعليم بالرغبة المبنية على أساس متين من العظة العالية والحكمة البالغة أولى وأفيد من التعليم بالرهبة التى لا تجلب الا الخبل والقنوط والملل بل تورث الخوف والجبن وتعوّد الناشئ على العمل فى الجهر والكسل فى السرّ -- فاذاً سياسة الرفق واللطف قد تفعل ما لا تفعله سياسة الشدّة والعنف ومن لم يكن له من نفسه زاجر -- فهيهات أن تؤثر فيه الزواجر

***

١٧

﴿ ما هى الحاجة الماسة الى بناء المستشفيات للفقراء ﴾

الانسان فى هذه الدنيا عرضة للأمراض والعلل غير أن الناس منهم الغنىّ والفقير . فالغنىّ بما له من الثروة قادر على دواء نفسه متى شعر بألم فى جسمه فهو يحضر من أمهر الأطباء وأحذقهم من يرجو الشفاء على يديه . أما الفقير فان المرض اذا ألمّ به لم يجد ما ينفقه على دوائه وشفائه فيمكث أسير الأدواء حليف العلل لا جهلا بالطب وفوائده ولكن خلت يداه وأعوزته الحاجة وقعد به الدهر عن ذلك — لهذا تدعو الشفقة والانسانية أن يقوم أغنياء الأمة وحكومتها بانشاء مستشفيات لهذه الطبقة يلجأ اليها مريضهم فيمدّ بالدواء ومساعدة الأطباء

ولقد اعتنت الحكومات المتمدينة بالحيوان الأعجم وعرفت الحاجة الى انشاء جمعيات للرفق به — وحينئذ الانسان أولى بهذه الشفقة وأحق بتلك الرحمة ولا يخفى أن الفقراء هم السواد الأعظم من الأمة فمتى اعتنت بهم ولاحظتهم فى أمراضهم كثر أفرادها فصارت مهيبة قوية . على أن الأغنياء فى أشدّ الحاجة الى هؤلاء الناس أهل البؤس والفاقة فهم

القائمون بالأعمال العظيمة التي لا يباشرها الغني بنفسه — كيف لا وأن لبناء هذه المستشفيات أكبر فائدة وهي منع انتشار العدوى بين أفراد الناس فليخش الأغنياء من ذلك وليعلموا أن في أموالهم حقا للفقراء والبؤساء فيجب السعي في ازالة مايعتريهم من الأمراض والآلام التي تذهب بحياتهم واحترام هؤلاء الأقوياء في جسم الهيئة الاجتماعية وجلب الصحة اليهم حتى تكتسب البلاد منهم حياة جديدة وقوة عظيمة بفضل ساعدهم وتحملهم المشاق ومثابرتهم على العمل حتى اذا أصيب أحدهم بمرض لا يبيت يتقلب على فراش الشقاء بين أولاده وأهله الضعفاء بعد أن كان يوصل ليله بنهاره في الجد والعمل يصون نفسه عن ذل السؤال

وبالجملة فالمستشفيات من أهم ماتحتاج اليها الأمم لحفظ صحة أفرادها من غوائل الأمراض وطوارئ العلل المعرض اليها الانسان بطبيعة جسمه وحوادث الجو فهي التي حفظت النفوس في أجسامها وردت جيوش الأدواء على أعقابها كيف لا وقد ثبت (أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان) وفي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه

قال (داووا مرضاكم بالصدقة) وقال أيضاً (اللهم أعط منفقاً خلفاً وممسكا تلفاً) وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا

١٨

﴿ الجبال وفوائدها ﴾

الجبال هى تلك الأجرام والأجسام الشامخة التى لها أعظم منة وأكبر نعمة على الانسان فى كل زمان ومكان فهى التى يتخذ منها مواد البناء على اختلاف أنواعها فتشيد منها المنازل والقصور التى تقينا قيظ الحر وزمهرير البرد ويتخذ منها بناء القلاع والحصون التى بها ندافع عن أوطاننا وأنفسنا وأولادنا وأموالنا وأعراضنا بل هى قد تكون فى نفس الحقيقة والواقع الحصون المنيعة للبلاد المحاطة بها الحافظة لاستقلالها كجبال الحبشة فى أفريقيا وسويسرة فى أوروبا

وهى التى تستخرج منها المعادن الثمينة كالحديد والنحاس والقصدير ونحوها من الجواهر ذات القيم الكبيرة التى نقلت الانسان من الأعصر الهمجية الى نور العرفان والاستكشاف والاختراع . فكلما تقدمت الأمم فى الحضارة والمدنية كانت الحاجة ماسة فى عدم الاستغناء عن منفعة تلك الجبال التى لها

أيضاً دخل عظيم فى تنظيم حالة الجوّ وفى تنظيم انحدار المياه من قممها وفوقها بقوّة فى المجارى والأنهار فنشأ احياء موات الأراضى ورىّ الشراقى منها فأخصبت وأصلحت البلاد وأروت العباد . على أنها واقيات للأرض من طغيان البحار عليها قال تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم والجبال أوتاداً) وقال تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتا)

وبالجملة خلق الله سبحانه وتعالى الجبال لمنافع وفوائد متعدّدة لا يحيط بجميعها الا هو . فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماء ليحيي به العباد والبلاد وجعل الجبال لتستقرّ فى بطونها المياه ويخرج أولا فأولا بقدر معلوم . ومن الجبال ما ليس فى باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظا على ظاهرها الى أن يحله حر الشمس فيكون منه أنهاراً

ومن منافع الجبال ماينبت فيهامن أنواع العشب والعقاقير التى لا توجد الا فيها وماينبت فيهامن أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن وما ينبت فيها من مزارع للأنعام ومزارع لبنى آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل

ومن فوائدها أن جعلت أعلاما يستدلّ بها المسافرون على الطرقات فى نواحى الأرض ويستدلّ بها المسافرون فى البحار على المين والسواحل

ومن فوائدها أن الفئة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخـذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنع عنها من تخافه فتطمئن لذلك

١٩
﴿ البراكين والزلازل ﴾

ان جوف الأرض حارّ بطبيعته فاذا حفر الانسان وجد الحرارة تزداد وهكذا كلما نزل الى أسفل حتى اذا وصـل الى عمق بعيد ألفى حرارة كافية لتبخير المياه بسرعة مدهشة فان صادف هذا البخار أرضاً سهلة تصاعد من مسامها بدون أن تحدث براكين ولا تفجر — وان صادف جبالا فلايسعه الا أن يخترق تلك الصخور العظيمة القاسية ويتخذمعه مايجده فى سبيله من طبقات الأرض كالحديد والـكبريت والنحاس والقصدير ونحوها ويقذفه للناس ينتفعون به وهـذا مشاهد كثيراً فى الجبال التى على شواطئ البحار والمحيطات أوالقريبة

منها كشواطئ آسيا الشرقية وأمريكا الغربية وجزر اليابان وجزيرة اسلنده وكثير من بلاد فى أوروبا — ومن المعلوم أن الأرض طبقات بعضها فوق بعض وكلها تسمح للمياه بأن تتخللها فتدخل فيها فتبخرها الحرارة والبخار من طبعه يتصاعد ولكنما الجبال تمنعه فيتراكم تحتها ويتزايد وهو شديد وخصوصاً عند ما يمتزج مع ما يقابله مما فى جوف الأرض فيحدث الانفجار فى باطنها على أثر تراكم تلك الأبخرة المائية بدرجة تمدد عظيمة فينشأ عنه انكماش الطبقة السطحية وتدحرج الصخور التى فى باطنها بعضها على بعض فيحدث من انفصال أجزاء الجبل بعضها من بعض تمزق ورجة عظيمة واضطراب لسطح الأرض يشعر به غالب العالم لأن القارات يتصل بعضها ببعض وكذا الجزائر بواسطة سلاسل عظيمة تخترق البحار والمحيطات

وهذا الاهتزاز هو الزلازل التى تنشأ غالباً من البراكين وقد لا ينشأ من ذلك كجهات الألب وكما تحدث الزلازل براً تحدث بحراً ويحصل لمائه مدّ فيغرق البلدان ويدمرها وتعلو أمواجه نحو خمسين متراً فيحدث ما تقشعر له الأبدان ولا يخف سمعه على الآذان

وبالجملة ان سبب اشتعال البراكين نفوذ الماء الذى على سطح الأرض الى المواد التى فى جوف الأرض فيولد مقدارا من البخار فيدفع ما يكون أمامه بقوّة غريبة . وبعض هذه البراكين هائج أبداً كبركان استرمبولى الذى يبلغ ارتفاعه ٢١٧٥ قدما . وبعضها يهيج أحيانا وأحيانا يسكن كبركان فيزوف بالقرب من نابولى — وفى العالم ستمائة واثنان وسبعون جبلا ناريا تتولد منها البراكين وتنشأ لأجلها الزلازل التى يخوّف الله بها عباده فى مشارق الأرض ومغاربها

٢٠

﴿ هل مقادير الرجال بالأعمال أو بالمال ﴾

الأعمال كثيرة متفاوتة فى أهميتها وكثرة فائدتها وبحسبها تتفاوت العمال فى الفضل والمقام اذ الفرق بين رجل يجرى فى الطرق أمام العجلات ورجل يرشد الخلق ويهذبهم ويعلمهم ما يفيدهم فى دينهم ودنياهم كالفرق بين ذرّة من الكائنات والكون كله — فمشهوروا الرجال الذين قادوا الأمم الى مافيه نجاحهم وثروتهم وراحتهم وسعادتهم لم ينتشر صيتهم فى الدنيا الا بما بينوه للناس من المعارف التامة والفوائد العامة حتى

استنار بهم الكون . فهم هداة الخلق الى خالقهم ورجال السياسة الذين ساسوا الناس الى طرق الخير وضبطوا أعمالهم وأحوالهم ورجال العلم الذين رفعوا مناره وأظهروا عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات فكثرت الأرزاق واتسعت أبواب المعيشة واستقام الناس وانتظمت أحوالهم فهؤلاء هم رجال الأعمال الذين أفادوا البلاد ونفعوا العباد فسعدت بهم الأوطان وافتخر بهم الزمان والمكان . ولئن كان فى العمل التعب والمشقة ففيه اللذة والشرف

اصرف حياتك فى جدّ وفى عمل * تعدّ حيا ولا تركن الى الكسل

والعمل هو الدليل الى حاجات الانسان وعلى نسبته الى الطبيعة ولولاه ما كان الانسان ولا كان العمران — وكل عظيم مما يملكه الانسان جاء به العمل العقلى والجسدى

فالاكتشافات والاختراعات والمبتكرات والشرائع والنواميس والقوانين كلها نتيجة العمل والتعب . وأتعب الناس وأشقاهم من لا عمل له فانه لا يرجى منه نفع لنفسه ولا لغيره — والذين أوصلوا العمران الى حالته الحاضرة هم أصحاب الحرف ورجال العمل والتعب سواء كانت أعمالهم

جسدية أو عقلية — والعمل وان كان لا يقوم بلا مال بل هو الذي يدير دولاب الأعمال ويوسع نطاق العمران ولكن المال وحده لا يجعل للرجال أثراً يذكر ولا تاريخاً يؤثر ولا صيتاً يشهر فكم من ذى كنوز لا يعرف اسمه جاره وكم من فقير عامل له صوت فى أمته وكم من ذى فاقة يشار اليه بالبنان وتلهج بذكره الألسنة فى كل زمان ومكان

هؤلاء الأنبياء والخلفاء والعلماء والملوك والأمراء هل كان تخليد أعمالهم لوفرة أموالهم كلا ثم كلا فانما العمل هو الذى أوجب على التاريخ ألا ينكر مالهم من الفضل والعمل الصالح

وبالجملة لم نر أديباً من الأدباء ولا حكيما من الحكماء يحث الناس على جمع المال لذاته كما أنه لم يقع نظرنا على عاقل يفتخر بماله . وانما المأثور عن الفلاسفة الحث على العمل والمثابرة عليه وما ذاك الا لأن العمل هو الذى له قيمة فى الحياة وشأن عظيم فى رفع الرجال

نعم ان المال قد يرفع ولكن مركزه مركز المساعد الذى يمكن الاستغناء عنه ولا شك فى ذلك فان التاريخ لم يخلد ذكر الناس لوفرة مالهم ولكن لما قاموا به من الأعمال

هؤلاء الأمم الغربية التى لها القدح المعلى فى مضمار الحضارة والعمران قد انبعثت منها أنوار العرفان فأفاضت على بنى الانسان بما لم يكن فى الحسبان . ذللت الأرض بالبخار والكهرباء وسيرت الجوارى المنشآت على سطح الماء وطيرت نسور المناطيد فى الهواء استجلابا للرزق وتوفيراً للسعادة والهناء وهى مع ذلك لا تزال تدأب وتستطلع من الأسرار المودعة فى الكون ما يجلى القدرة الآلهية فى أجل مظاهرها ويبرز العمل الانسانى فى أكمل معانيه وربما فى المستقبل يتعلق الأمكان بأبدع مما كان — ويخلق مالا تعلمون

٢١

﴿ الاعتماد على النفس ﴾

أفضل ما يتحلى به العاقل اعتماده على نفسه فى جميع أموره وقيامه بحاجاته فى عموم شؤونه بدون أن يتكل على صاحب أو يعتمد على مساعد

وانما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعوّل فى الدنيا على رجل

كيف لا وأن طبيعة العمران وزعت الأعمال على الناس فأصاب كلا منها على قدر طاقته فاذا اتكل زيد على بكر فكأنه

أضاف حمله الى حمل بكر وهذا لا يستطيع أن يحمل أكثر من حمله — واذا كان الناس كلهم متكلين فمن هو المتكل عليه منهم—فاذاً قاعدة الاتكال فاسدة طبعاً—على أن الانسان له مطالب خاصة ومكلف بأداء أشياء يباشرها بنفسه ان اعتمد على غيره فيها تعسر قضاؤها وباء بالحرمان والخسران . وكم من مقاصد للمرء ترك حبلها على كاهل غيره فضاعت وولت الأدبار وقضى عليها الهلاك والدمار . مع أنه لا يتيسر للانسان أن يجد فى كل وقت من يساعده فى أعماله كما أن بعض الأمور لا ينبغى أن يتولى شأنها سوى صاحبها والمطالب بها — ورب امرئ يعتمد عليه الانسان وحينما يفتش ضميره ويرى ما أبطنه وأسره يظهر له جليا ما يسوءه ويعلم أن خذلانه أحب اليه من نصره

ومهما يكن عند امرئ من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

فيجب على العاقل الا يعتمد فى قضاء مآربه الا على نفسه ولا يظن أن غيره يهمه أمره فيثق به فان ذلك دليل على ضعف عقله وعلى كسله وخموله فلا يلبث أوقات ولا تمرّ عليه ساعات الا ويكون عالة على غيره واضعاً نفسه موضع المسكنة والمذلة والاحتقار.

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت علي الناس أهونا

وأيضاً يكون من اعتمد علي غيره جاهلا حكمة خلقه جهولا بقول الشاعر العربى الحكيم

ماحك جلدك مثل ظفرك فتولّ أنت جميع أمرك

نعم ان فى الاتحاد والتعاون مزايا شريفة غير أن ذلك يكون فى الأعمال العامة العظيمة التى تحتاج الى المساعدة ولا يقوى الفرد بنفسه علي القيام بها . فما أشدّ حاجة الأمة الى أفراد يعتمدون علي أنفسهم ويقوم كل منهم الى ما كلف به فاذا دعاهم داعى التعاون والتعاضد لبوا نداءه وأجابوا دعاءه

وبالجملة ليس للانسان الا ما سعى اليه بجدّه وبحثه معتمدا فى عمله وأداء شؤونه علي نفسه . فمن باشر أعماله وناظر أشغاله وشمر عن ساعد جدّه ودأب فى عمله واعتمد علي كدّه وتعبه وعوّل علي يده ولسانه فاز ونجح وكسب وربح فلا برّ الا ما كسبته يداك ولا خير الا ما سعت اليه قدماك ولا نفع الا ما دبره رأيك ولا ثمرة الا ما غرس أصولها عقلك ولا نجاة من غمرات هذه الدنيا الا بسفينة عملك التى توصلك الى برّ السلامة وترفعك فوق سماء العرفان

وقصارى القول الاعتماد على النفس ملكة فطرية فى النفوس يعتادها المرء منذ نعومة أظفاره ان وجد مقوماً حرا ومرشداً حكيما -- وهى تنمو بالتعهد وحسن الرعاية وتقف بالترك وعدم العناية وكما تكون فى الأفراد تكون فى العائلات ثم فى الأمم

أما فى الأفراد فان نشأوا عليها شبوا على علوّ النفس وكبر الهمة وقوّة الارادة يبتعدون عن الدنايا ترفعاً واستنكارا ويعملون الخير لذاته حباً واختياراً . فهى جماع خصال الخير تكسب صاحبها الشجاعة والأقدام وتجعله سيداً مطاعا فى قومه وعشيرته عزيزاً فى نفسه وأمته لا يرهبه فى الحق صولة صائل ولا يخشى فيه لومة لائم

ومن نظر نظرة صادقة فى سبب رقى بعض الأفراد الذين ذاع صيتهم فى أقطار الأرض شرقا وغربا وجد أنه هو الاعتماد على النفس فى الأمور التى لا يليق فيها الا الاستقلال وكلما تشبعت الأفكار بأن قيام المجتمع الانسانى متوقف على عمل كل فرد أحسّ كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه دون غيره ومال الى استعمال ما أوتيه من الهمة والارادة

والاجتهاد وكل نفس بما كسبت رهينة وليس للانسان الا ما سعى

٢٢

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

المال ثمرة الأشغال العقلية والأعمال الجسدية وهو قوام العمران والتمثال الذى تتجلى به الحكمة والقوة — والاكتساب أصل المال والاقتصاد سوره . قال الامام عمر رضى الله عنه (ان الله يحب القصد والتقدير ويكره السرف والتبذير) وقال أيضاً (أصلحوا أموالكم التى رزقكم الله فان اقلالا فى رفق خير من اكثار فى خرق) وقال معاوية (حسن التقدير نصف الكسب) وهو قوام المعيشة — فالرجل المكتسب المقتصد هو الغنى القوى . والامة التى يتعلق أبناؤها على حب الاكتساب والاقتصاد هى الامة الغنية الراقية مراقى الفلاح ومن يكتسب ويقتصد يسعى فى خير أمته ومن لا يكتسب أولا يقتصد يسعى فى خرابها - والاقتصاد ليس غريزة فطرية فى الانسان بل هو خلق اكتسبه بالاختبار وتمكن منه بالتربية والممارسة — ومعلوم أن الناس مراتب ودرجات فمنهم أغنياء يعيشون بالراحة والرخاء ومنهم فقراء يعيشون بالتعب

والعناء وليس اختلافهم في الغنى والفقر ناشئاً من اختلافهم في الاجتهاد والمقدرة على الاكتساب بل الحقيقة ونفس الواقع أن منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في حسن التقدير والاقتصاد فكم من رجل يعيش بالراحة والرفاهية ويربى عائلة كبيرة ودخله قليل جداً . وكم من رجل يعيش بالتعب والعناء وتظهر عليه علامات الفقر المدقع ودخله وفير وكثير جداً

وطرق الاكتساب على أنواعها هى من لوازم الحياة ومن مسراتها

كل من في الوجود يطلب صيدا غير أن الشباك مختلفات

فان الانسان لا يحيا ما لم يصارع الطبيعة من جهة ويستعين بها من أخرى فهى تدعو الى العمل والكدح لاجل تحصيل المعيشة ودفع الحرّ والبرد وهى التى تعيننا بانماء الحبوب والاثمار والاصواف والاقطان لاجل الغذاء والدفاء — والناس متعاونون في الاكتساب فهذا يحرث الارض وذاك ينسج الصوف وذلك يخيط الثياب أو يبنى البيت أو يمهد الطرق أو يفتح الخلجان أو يعمل غير ذلك من الاعمال . ولولا الاكتساب لنفد المال الذى في أيدى البشر وبارت الارض وهلك الناس جوعا

فالاستعداد للمستقبل هو الحكمة العملية ولكن كثيرين من الناس لا يهتمون بالمستقبل ولا يعتبرون بالماضى بل هم أبناء يومهم فاذا اكتسبوا الكثير أنفقوه كله واذا اكتسبوا القليل اكتفوا به واذا أخنى عليهم الدهر بكلكله أحنوا له ظهورهم وتوسدوا التراب واذا وافاهم الموت وأولادهم صغار تركوهم عالة على الناس ليربوا فى الفقر والشقاء وهؤلاء لو أنصفوا أنفسهم وأولادهم لعاشوا بالكفاف والاقتصاد وذخروا الى وقت الحاجة — ومايصدق على آحاد الناس يصدق على عامتهم . فالامة التى أبناؤها مجتهدون مقتصدون فى نفقاتهم هى الامة الغنية التى لا تهمها تقلبات الايام والامة التى يعيش أفرادها بالكسل والاسراف تبقى فقيرة لا صولة لها ولا قوّة

وبالجملة ان الانسان مهما كثر ماله لا يضمن بقاءه الى آخر حياته بل ربما افتقر ومدّ يده الى السؤال أو انحط عن درجته وصار مادحه هاجياً وصديقه له معاديا — فيلزم والحالة هذه كل قادر على التكسب أن يقتصد من ماله جزءا ينفعه وقت الحاجة وينفقه وقت الضيق فان آفات الدهر كثيرة فالتوفير أمر حسن ما لم يصل الى درجة الشح والبخل

والتقتير فيكون مذموماً كذلك انفاق المال فى سبله يكون
حميداً ما لم يصل الى درجة التبذير فيكون مرزولا
ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد * كلا طرفى قصد الأمور ذميم

٢٣

﴿ الدّين أشد أنواع الفقر ﴾

ان تستدن تعش حقيـ راً والمداين كالامير
من ليس يكفيه القليـ ل فليس يكفيه الكثير

الاجتماع الانسانى جسم حى نام متحرك وهو عرضة للقوة
والضعف والراحة والتعب والصحة والمرض ويعترى بعض
أعضائه داء عضال يذهب براحتهم ورفاهيتهم ويغلّ أيديهم
عن العمل ويغادرهم عبيداً وهم من أهل السيادة وهو داء
الدين الذى خربت به بيوت كثيرة وتورطت فيه بعض الممالك
فاستنزفت ثروتها وزالت قوّتها وهو كغيره من الأدواء
الكبيرة يصيب أهل الجاه والوجاهة أكثر مما يصيب
الفقراء والصعاليك

وان منشأ الدين وأساسه غالباً الترف الذى هو من شر
ملمات هذا الزمان وأقوى مقوّضات دعائم العمران ـ والأغنياء

والفقراء متهافتون عليه تهافت الفراش على السراج — والمال اله معبود وعباده قد حادوا عن جادّة الحق وساروا فى الترّهات فيطلبون الغنى بالمقامرة والسعة بالمخادعة ويتظاهرون أنهم أغنياء ولو كانوا فقراء لا يملكون شروى نقير — ويزعمون أن الانسان بحسن بزته وكثرة ولائمه وأن الاعتبار والاكرام لمن يكرم الأنام

والدين خدن الترف ومعاونه على فساد شؤون الناس وتبذير أموالهم وهو البلية الشديدة التى أصابت الرؤساء والمرءوسين والحمل الثقيل الذى تئن منه دول الأرض العظيمة كما يئن منه صغار الفلاحين

والناس طبقات وكل طبقة تأنف من الامتزاج بالطبقة التى تحتها وتتوخى الصعود الى الطبقة التى فوقها وتبذل النفس والنفيس فى طلب الوجاهة التى ليست مذمومة ولا عاراً ولكن العار فى استعمال الوسائط غير المحللة لنوالها — ومن العجيب أن الناس يحسبون الغنى فضيلة وكياسة وعندهم أن الفاضل الكيس هو الغنى أو المتظاهر بزى الأغنياء

ولقد أخطأوا فى زعمهم هذا لأن الفقر بلا دين هو الغنى التام

فليس الفقر عاراً ولا منقصة اذا كان الفقير حراً شريف النفس بل كثيرا ما يكون الفقر شرطاً للنجاح والشهرة والراحة وتاريخ الناس أصدق شاهد على صحة ذلك فان أبسل الناس وأصدقهم عزيمة وأكملهم مروءة أكثرهم من الفقراء — ولا يعاب الفقير الا اذا أبطل الكدح وقصد التعيش بأموال الصدقة أو التسوّل

وبالجملة اذا تمكن الدين من صاحبه لم يقف فى طريقه مال قارون ولا ينجو منه الا بالمنون • وفى الخبر الصحيح لا وجع كوجع العين ولا غم كغم الدين • وقال عليه السلام (الدّين شين الدين) وكان يقال صاحب الدين ذليل بالنهار ومهموم بالليل • وقال بعض السلف الدين غلّ الله فى أرضه واذا أراد الله أن يذلّ عبداً جعل منه طوقا فى عنقه • وقال العتبي الدين عقلة الشريف • وقال ابن المعتز كثرة الدين تصيّر الصادق كاذبا والمنجز مخلفا -- وقال الشاعر

اذا استثقلت أو أبغضت شخصاً وسرك بعده حتى التنادى
فشرده بقرض دريهمات فان القرض مقراض الوداد

٢٤

﴿ حب الوطن ﴾

الوطن طينة المرء التى نبت فيها أصله ونما فرعه ونشأت حياته التى تغذت بهوائه واستظلت بكنفه ودوائه ومقره الذى تتجاذبه عوامل الشفقة عليه والحنين اليه اذا شط به مزاره وبعدت عنه داره وكنه الذى يأوى اليه اذا نبت به البلاد ويتوسع فيه اذا ضاقت عليه الأرباض

ان حب الوطن شعور نفسانى واحساس وجدانى ليس بسلعة يباع ويشرى فهو أشرف خلق يتحلى به الانسان وأحسن شيمة ينطوى عليها الجنان وهو من أخلاق الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم بعد هجرته الى المدينة يحن الى وطنه مكة حنيناً كثيراً مع أنه خرج منها وهو غير راض عن أهلها لمعاداتهم له وايصالهم الأذية اليه حتى وعده الله سبحانه وتعالى بأن يريه اياها ويرده اليها — وذلك فى قوله تعالى (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) ولذا قال عليه السلام (حب الوطن من الايمان) وقال الشاعر

بلادي وان جارت علي عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع

فمن جعل نصب عينيه محبة وطنه العزيز والعكوف على خدمته فقد رفع عماد أمته وشيد ركن دولته

وما المرء الا حيث يقضي حياته لنفع بلاد قد تربى بخيرها

فحب الأوطان سلطان فوق كل سلطان وأثره لا ينمحي عن صفحات الجنان فكم بيعت في سبيله النفوس بيع السماح وكم رخصت دونه أرواح وغلت أرواح بل كم يرفع لرجال ذكرا كان خاملا وشيد لأعمالهم أثراً ماتوا وظل باقيا

ولي وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

فسعادة الانسان مرتبطة بسعادة بلاده والانسان العامل في وطنه هو الأمة لأن الأمة هي العمل ومن لم يعمل في وطنه فعدمه خير من حياته فمجد الوطن وسعادته ببنيه وبنوه بالعمل حتى يبلغوا الأمل

فيا وطني ان فاتني بك سابق من الدهر فلينعم بساكنك البال

وبالجملة فالوطن أب رحيم شفوق نتقلب في نعمه فهو أعز عزيز تسفك لأجله الدماء وتخضب السيوف وتخاض المعامع وتشعل الحروب وتباع النفوس وتقاد الجحافل وتدك

الحصون وتنسف المعاقل . فأرق شعور وأجمل احساس يثير في النفوس حميـة تحل بالقلب هزة وتنزل به خفقانا هو حب الوطن — شعور يستصرخ اللبّ ويناجى الفؤاد فيردد نداءه من أعماق القلوب وأقاصى الأذهان — صوت وجدانى خافت لكنه يرد النفوس مرهفات أو أشد قطعا — والعزائم مهندات أو أكبر وقعا

الوطن عائلة اذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعا واذا نزل بهم بلاء اقتسموه « الواحد للجماعة والجماعة للواحد والفرد يفدى الأمة والأمة تحمى الفرد »

والوطنية أعظم سياج لاستقلال الأمة التى تصبح بدونها تحت رحمة العدوّ وسلطانه — فالوطنى الحق لا يرى بلاده مهما أجدبت الا جامعة للخير العام — ولمنابع سعادته يشعر نحوه بكل انعطاف وحنوّ اذ يرى فيه ذكرى حياته الماضية كما يتمثل فيه آمال المستقبل

٢٥

﴿ الآثار القديمة أو المتاحف ﴾

انما تصـل الأمم الى ذرا الحضارة وتتسع مداركها فى

الصناعة وتبلغ شأوا بعيدا فى الارتقاء وتنهض من الهمجية الى المدنية وتحصل على الرفاهية والنعيم بما تظهره من المصنوعات المختلفة وما تبتدعه من المخترعات المتنوعة وما تخلفه من الآثار المحكمة الصنع وما تتركه من المتاحف المتينة الوضع ـ وبديهى أنه كلما كان أساس الصناعة قائما بين أيدى الصناع أمكنهم زيادة الاتقان واحكام العمل وتسهيل الانتفاع — لهذا ترك السلف للخلف آثاراً شهدت ببراعتهم وحسن اختراعهم فكانت كمرآة رأى المتأخرون فيها تمدينهم ورفاهتهم ورغد عيشهم وكأن لسان حالهم فى أجداثهم يقول

تلك آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا الى الآثار

هى الآثار خير مرشد للصانعين وخير معلم للمتعلمين وخير دليل للمبتدعين

ولهذا اعتنت الحكومة المصرية بجمع شتاتها وتجديد ما درس من معالمها لتكون مرشداً للمسترشدين ومصباحا للمتفننين ونموذجا للمخترعين ينسج على منوالها الناسجون ويحذو حذوها اللاحقون . وقد أدرك هذا السر العدد الكثير من الناس فخرجوا من ديارهم يؤمون دور الآثار ليستفيدوا

من دقة الصنع واحكام الوضع وحسن الاختراع وجمال المبنى ورونق المعنى ما لم يستفيدوه من قبل

وبالجملة فالمقياس الوحيد لتقدم الأمة ومبلغ رقيها هو مبلغ اهتمامها بآثار من سبقها من الآباء والأجداد كيف لا وأن الناس الذين يبحثون فى آثار آبائهم وأجدادهم هم بلا شك المتشبعون بمبادئ المدنية

٢٦

﴿ لا خير فى علم بلا عمل ﴾

العلم مناط الحياة الاجتماعية وأس الحضارة والعمران وأول المقوّمات التى لا تقوم الا بها حياة المجتمعات . فهو طريق السعادة للدارين ومحور مجد الأمم وينبوع ثروة الشعوب وما أزلّ المشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنى وأقفر أوطانه بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه الا اهمال أهله للعلوم واسترسالهم فى الشهوات فلا تستقيم أعمال الانسان الا بالعلم اليقينى الذى هو ترقى العقل الى درجة الاحاطة بما يكتنف الانسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذى هو حياة القوىّ بموت الضعيف وانما يتيسر وصول العقل الى

هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهذيب اذا روعى فيها جانب الفضيلة على وجه يشعر منه المتعلم انه انما يتعلم ليعمل فينفع نفسه وبنى جنسه بالعلم

وكأى من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور بوجوب العمل فهذا علم ولكنه لم يعمل بما علم فعلمه وجهله سيان لأنه ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أنا عالم ولا يتبع القول بالعمل فيعمل بما رزقه الله من العلم — وأولى بمثل هذا العالم أن يخشى الله بكذبه على العلم فان الله تعالى يقول (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)

فالعلم هو الميزان الذى تتكافأ به قوى الشعوب المتنازعة فى مضمار الحياة المدنية ما دام العمل به متبادلا بين المتنازعين ومتى وقف أحدهما عن العمل واستمر الآخر فى عمله رجح هذا على ذاك بالضرورة فنازعه البقاء وغلبه عليه

فالعلم بلا عمل لا يغنى عن الحياة شيئاً بل لا يكون العلم علما الا اذا ظهرت آثاره فى الخارج وانما تظهر آثاره بالعمل والا فأى فائدة من علم المرء أن الزراعة مثلا من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها — ومن وجه

نظره الى آثار العمل الصادرة عن العلم التى تفيضها على أرجاء المشرق الأمم الأوروباوية الآن يحكم حكماً جازما أن لا حياة لأمة ولا بقاء لشعب بأزاء تلك الأمم المتمدينة ما لم يجارها فى ميدان العمل مجاراة لا يعترى صاحبها الوهن ولا الكلل ولا يطرأ عليها الخمول والكسل

وبالجملة أن الأعمال هى قطب دائرة الحياة الدنيا ومدارج مرقاة العلا الى المراتب العليا وسبيل الوصول الى السعادة الأبدية ودليل الحصول على الشرف والسيادة وبها تدرك الغايات وتملك النهايات . وهى ثمرة العلوم ونتيجة المنطوق والمفهوم . فالعلم بغير العمل فاسد والعمل بغير علم باطل والمجرد منهما عاطل — هل رأى أحد صلاح عمل بغير علم ينشر . أو سمع بفلاح رجل من غير عمل يذكر — كلا — هذا الحاكى (الفونغراف) الجماد نطق بالقرآن والأذان والغناء والانشاد ما ذاك الا من ثمرات العمل بالعلوم والمعارف

٢٧

﴿ لا تصحب من لا يحمد حاله ولا يدلك على الخير مقاله ﴾

الصحبة نسبة بين صديقين منشؤها ميل طبيعى أو كسبى .

وهى حالة مطلوبة مستحسنة دليـل على كمال فطرة الانسان وأصله من اندفاعه بالطبع الى التعارف — بها يكون الأنس وتحيا النفوس وتتصافى القلوب فان حصلت الصحبة عن الميل الطبيعى سميت صحبة اتفاقية وسببها التجانس والتشاكل قال عليـه الصلاة والسلام (ان الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) وقال الشاعر

ولا يألف الانسان الا نظيره　　وكل امرئ يصبو الى من يشاكله

وقال آخر

وقائل كيف تفارقتما　　فقلت قولا فيه انصاف

لم يك من شكلى ففارقته　　والناس أشكال وآلاف

وان حصلت الصحبة عن القصد والارادة سميت صحبة اكتسابية وينبغى لمن يريدها الكمال بحيث لا يلقى بنفسه الى المهالك بصحبة الاشرار أو ذميمى الأخلاق والطباع بل يجب الاختبار والاختيار . فالقرين يقتدى بمقارنه والصاحب تنسب اليه أعمال صاحبه فان كانت حسنة شرف بها الصاحبان وان كانت قبيحة أفهمت الناس أنهما على ضلال

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه　　فكل قرين بالمقارن يقتدى

فمن تبصر فى العواقب وانتقى لنفسه خير صاحب يعين على دفع الشدائد ويغفر الزلة ويقبل العثرة . صديق صدوق فى السعة والضيق فلا مراء فى أنه يعيش مع صديقه هذا عيشة راضية

ومن اتخذ صاحباً من غير تجربة واختبار واختيار حسب ما يشاء فقد كتب على نفسه العناء والشقاء

لا تركنن الى ذى منظر حسن فرب رائقة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته صفر العقارب أرداها وأنكرها

وقال بعض الحكماء (اصحب من الاخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسى جمائله وبقى شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلتك يوليك عليها الاحسان الجميل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل)

فالوافر العقل هو الذى لا يصادق الا من أجمع الناس على أنه من أهل الخير والاستقامة حسن الطباع جميل النوايا

ويبتعد عن اللئيم الذى أجمعت العامة على خبثه وعدم صلاحيته للمؤاخاة ولا يغتر بما يبديه ذلك الخائن من البشر والبشاشة

لا تغترر بالهش والبشر من فتى وحفظ ولين مثل مس الأفاعيا

وبالجملة ان الصحبة الكاملة تستلزم التعاون والتناصر على الخير والصداقة وخلوص النية وكتم السر. وحسن المعاشرة واعظام القدر فى الحضرة والغيبة والبر فى القرب والبعد والعفو عن بعض الزلات

اذا أنت لم تترك أخاك وزلة اذا زلها أوشكتما أن تفرّقا

٢٨

﴿ ما يجب أن يكون عليه المعلم بين تلاميذه ﴾

وعلاج الأبدان أيسر خطباً حين تعتلّ من علاج العقول

المربى هو انسان يحاول أن ينقل صورته ونظام أحواله الى غيره وهو من المسترشدين بمنزلة العود من الظل فلا يستقيم الظل والعود أعوج — فالمربى لا يؤثر بأمره بل بفعله — ومثل الذى يعظ ويفعل كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها وكالمسك يطيب غيره وهو طيب — ومثل الذى يعظ ولا يفعل كالقمر يضىء ولا يدفئ فرب ساطع القمر والليلة صقعاء — أو هو مثل المسنّ الذى يشحذ غيره ولا يقطع — والابرة تكسو غيرها وهى عارية — وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق

ما هى الا ذبالة نصبت تضىء للناس وهى تحترق

قال سبحانه وتعالى (أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم) وقال أيضاً (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقال بعض الحكماء (اذا كان الرجل طاهر الأثواب كثير الآداب حسن المذهب تأدّب بأدبه وصلح بصلاحه جميع أهله وولده

وقال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسدهم رب الفساد اذا فسد
فيعظم فى الدنيا الفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

ولذا وجب على المعلم أن يكون كونه مطابقاً لقوله فليكن كما يجب أن تكون تلاميذه وليفعل مايلزم أن يفعلوه وليترك مايلزم أن يتركوه وليبدأ باصلاح نفسه قبل اصلاح تلاميذه فاذا عظم قويت رغبتهم فيه وانقيادهم لأوامره والعكس بالعكس — ولا بد أن يكون المعلم مائلا بجانبه الى تلاميذه محبا لهم شفوقا عليهم شغوفا بتكميلهم كالوالد لولده اقتداء بمعلم الأنام عليه الصلاة والسلام حيث قال (انما أنا لكم مثل الوالد لولده) ويتبع الميل القلبي لطف الجانب وبشاشة الوجه ولين القول والاحسان اليهم — قال بعض الحكماء (البشاشة مفتاح القلوب) ومتى فقد الميل القلبي خاب الأمل وضل المسعى فان

المعلم العبوس الوجه القاسى القلب لا يكسب الناشئة علما ولا أدبا بسبب نفورهم عنه وعدم ميلهم الى جانبه ويتطرق ذلك الى أخلاقهم فتسوء وتخبث . قال تعالى (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقال تعالى (لا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن)

وينبغى أن يكون المعلم ثابت الجأش حازم الرأى نافذ الحكم قوى الارادة لا يريد هذا تارة وذاك أخرى فلا يأمر تلاميذه بأمر يتساهل عن تنفيذه أو يقول قولا يرده

القول كاللبن المحلوب ليس له ردوكيف يرد الحالب اللبنا

أو ينذرهم بعقاب لا يقيمه أو يأمرهم اليوم بأمر ينهاهم عنه غدا وبالعكس لأن للناشئة شعورا دقيقا بارادة المعلم فمتى صرمت أسلموه أزمتهم وأعنتهم ومتى تقلبت شردوا عنه ونبذوا طاعته وراءهم ظهريا ولم يكترثوا بأمره أونهيه

وبالجملة فيجب أن يكون المعلم حكيما متبصرا يضع الأمور فى مواضعها عارفا كيف يأخذ المتعلمين حتى يبلغ بهم الى المقصود المادى والأدبى عالما بوسائط التربية والتأديب فلا يعاقب قبل تهديد ولا يهدد قبل انذار ولا ينذر قبل تذكير

قال بعضهم (العتاب قبل العقاب فليكن ايقاعك بعد وعيدك ووعيدك بعد وعدك)

ولا يعامل الكل باللطف كما لا يسوق الجميع بالعنف فان منهم من تصلحه القساوة بينما الآخر يصلحه المعروف ومن ينفعه الاحسان بينما يسوء الآخر ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج الى العصا كما قيل

البعض يضرب بالعصا　　والبعض تكفيه الاشارة

ومنهم من يسوقه المهماز بينما الآخر يلزمه اللجام

وقصارى القول بأن من تلقى اليه أعنة الأبناء الذين هم ثمرات الأفئدة والمستحق لثناء الأمة ورضا الآباء هو الذى عرف واجباته فقام بأعبائها وترقب نفسه ففاز بمعرفتها واستفاد فأفاد واستهدى فهدى وبلغ فأبلغ وتأدب فأدب ونال النهاية فأنال الغاية حتى يكون مصباح الظلماء ووارث الأنبياء

٢٩

﴿ على من تلقى مسئولية التربية ﴾

أعلى الوالدين أم على المدارس

من المعلوم أن الانسان مخلوق أدبى لا يمكن نموّ قواه

الأدبية الا بفعل متميز عن الفعل الذى يؤثر فى بنيته بخلاف الحيوانات فلا تطلب سوى نمو جسمها — ومن ثم لا يكتفى الانسان فى تربيته بالأحوال الطبيعية المكملة لتربية الحيوانات بل نراه مضطرا الى كون من جنسه يعرفه الغاية الانسانية ليأخذه بتربية روحه وعقله — ولذلك ألقى الحكيم جل شأنه فى قلوب الآباء رأفة طبيعية ومحبة فطرية الى أبنائهم ومن هنا يعلم أن الوالدين هما أول مربّ للانسان — والعائلة هى أول مقامات التربية .

ولما كانت الهيئة الوطنية بما لها من التعارف والاجتماع تطلب من الأفراد الطاعة لناموس الوطن والتعاون على الأحوال المعاشية حاجيها وكماليها حتى يمكن حفظ بقاء الأمة وسرورها بالحياة يعلم بالضرورة أن العائلة مدينة للهيئة الوطنية ـ وبحكمة أن الحكومة هى القيمة على الهيئة الوطنية والناظرة فى شأن الأفراد من جهة الخصوص وفى أحوال المجموع من جهة العموم طلبا لحفظ التناسب بينهما تكون الحكومة مدينة أيضاً للعائلة والأمة بحيث يجب عليها تمهيد سبل التربية والتعليم وتنبيه الأفراد الى واجباتهم ولا يحصل ذلك الا بوجود عدد

كاف من المدارس تتخرج بها الأبناء علما وعملا وعقلا وأدبا

ومن ذلك ينتج أن المدرسة هى الواسطة لجمع دائرتى العائلة والحكومة وهى مع ذلك ليست الا مكملة لنقص التربية فى العائلات ضرورة أن للعائلة المقام الأول من مقامات التربية كما لها النفوذ الأعظم علي الأبناء — بصلاحها تصلح الناشئة وبفسادها يفسدون . وهى الجوّ الأول الذى يتنفس فيه الناشئ فمتى كان الجوّ خالص الهواء تربى الناشئ سليم البدن والعقل والعكس بالعكس . والحكمة فى أن للعائلة التأثير الأعظم فى تربية الناشئة ان خيراً وان شراً أمور

منها سلطة محبة الوالدين لأبنائهما فانها تورث فى الأبناء المحبة الى الوالدين ويتطرّق ذلك الى محبة غيرهما وتلك المحبة المشتركة تعتبر أول أساس للتربية العمومية والحصول علي الفضائل

ومنها سلطان المثال حيث يؤثر فى تربية الأبناء ضرورة أنهم يصرفون عامة أزمانهم فى العائلة فمن كان أبواه مشغوفين بالنظام والترتيب محبين للوطن متكملين بالفضائل كالكرم ورقة الجانب والرأفة ونحو ذلك خرج متطبعاً بتلك الخصال

والعكس بالعكس – ومنها الأحوال العائلية التي هى المدرسة الأولية الأساسية للناشئ فيقف بها عند حدّ محدود

ويجب أن يكون المنزل والمدرسة سائرين فى طريق واحد هى غاية الحصول علي المقصود من التربية العامة –/ والمدرسة لهـا النفوذ الأعظم بالنسـبة الى التعليم بينما المنزل له التسلط الأكبر بالنسبة الى التربية ضرورة أن بالمدرسة وسائط للتعليم يفقدها المنزل كما أن المنزل أقدر على التربية بحكمة تصرف الآباء فى الأبناء

ولـكل من المدرسة والمنزل حقوق يجب القيام بها فأما حقوق المدرسة على المنزل فهى أن ترسل الآباء أبناءهم الى المدرسة فى المكان والزمان المقرر لهم بالضبط وأن يمدوهم بما يلزمهم ماديا وأدبيا وأن يساعدوا المدرسة بالقول والفعل

وأما حقوق المنزل علي المدرسة فهى أن تلاحظ المعلمون الأحوال العائلية وما يلزم أن تقوم به أبناؤهم لهم من الفضائل ومكارم الأخلاق

ومن حقوق الحكومة على المدرسة أن تبعث فى الأبناء الطاعة لقانون الوطن وحبه والتعاون وتشريف العوائد والآداب

الوطنية وحب الراعى والرعية وغير ذلك

ولذا ينبغى أن يختار لوظيفة التعليم المؤدبون المستكملون لمكارم الأخلاق الذين يقدرون على ضبط اراداتهم وحفظ أميالهم والذين يميلون الى حب الوطن وتربية أبنائه

٣٠

﴿ هل الأفيد تقسيم الدراسة الثانوية الى أدبى وعلمى ﴾ كما هو الآن — أو توحيدها كما كان

لا خلاف فى أن القوى العقلية ليست سواء فى أفراد النوع الانسانى فهذا تزيد فيه قوة التخيل وذاك قوة التصور وذاك قوة التذكر وهكذا — وبحسب ذلك الاختلاف يكون الاستعداد — فمن قويت فيه قوة عاقلة من تلك القوى مال بطبعه الى ما يلائمها

فمن التلاميذ من يميل الى علم العدد — ومن يشغف بالتاريخ — ومن يرتاح الى التشريع — ومن يميل الى الفلسفة وهكذا القول فى الصنائع — فهذا له استعداد فى أعمال النجارة وذاك فى أعمال الحدادة الى غير ذلك

وبيان ذلك ان للانسان أربعة استعدادات

الاستعداد الأصلي الناشئ عن التخيل النظرى وصاحبه له ميل الى الترقب والبحث سواء فى المعقولات والمحسوسات

والاستعداد الأصلى الناشئ عن التخيل التحضيرى وصاحبه يميل الى التفنن والاختراع

والاستعداد الفرعى الصادر عن التخيل النظرى ولصاحبه ميل الى التقسيم والتحليل كالرياضيين

والاستعداد الفرعى الصادر عن التخيل التحضيرى ولصاحبه ميل الى ايقاع الحكم كأصحاب الفلسفة والقوانين.

وربما اجتمع كثير من أنواع الاستعداد فى فرد واحد

ولترقب الاستعدادات الناشئة أهمية كبرى عند الغربيين فترى الآباء والمعلمين يترقبون الأبناء عامة نشأتهم فاذا رأوا فى أحدهم استعداداً لفن أو صناعة أو عمل من الأعمال المعاشية خصوه بها — ولعمر الحق ان ذلك لهو التبصر بعينه كما أن تخصيص الناشئ بشيء لا استعداد له فيه لهو الضلال المبين. قال (دانته) الايطالى ضمن أشعاره ما معناه (ان طبائع الناس مثل بذور النبات تجود زراعتها اذا صادفت أرضها الحقيقية ولو تبصر الناس الى ذلك لجادت فيهم الانسانية.

ولـكنهم فى غفلة عن هذا الناموس الطبيعى فتراهم يخصون للدير من خلق للسلاح ويلقون مقاليد الملك لمن خاق للوعظ)

ولما كان هـذا هو الداء العضال المنبعثة جراثيمة بين أبناء المشرق الذين يرغبون فى طلب العلوم والمعارف خصوصاً طلاب القسم الثانوى فـكان الواحد يدرس ما لا يرغبه ولا يوافقه ويضيع فيه السنين الطوال ولا يحصل من الغنيمة بعد الـكد الا بالفقل والخيبة والفشل — ولمـا شعرت المعارف المصرية بهـذا الداء الذى كان عقبة فى نموّ التعليم الثانوى قسمت الدراسة الى قسمين علمى وأدبى وأباحت لـكل تلميذ أن يختار لنفسه ما يحلو له وما يوافق عقله واستعداده

فـكثرت الرغبات وقويت الهمم واشـتدت العزائم وكثر الاقبال وتوسم كل تلميذ لنفسه مستقبلا زاهراً معلقاً جدّه بالنوال ومتوكلا علي الله تعالى فى حسن الا مال

٣١

فوائد الحرّية

الحرية كلمة لهامعنى جليل يسحر العقول ويدهش الألباب. تصبو اليها النفوس من أحقر وحشىّ الى أرق مدنى — يبذل

كل فى سبيلها ما ملكت يداه اذ هى تنير قلب الطفل حين ولادته كما تملأ فكر الكهل وتشغل ذهنه على وسادة موته.

والحرّية للبشر ركن السعادة وروح الكمال فلا جمال فى حياة لانتمتع فيها كما نريد ونختار ولا خير فى جسم يريد أن يعمل فيركض ولا خير فى ذهن يريد أن يفتكر فيضغط ولاخير فى قلب يريد أن يشعر فيجرح — ومافائدة كل هذه المواهب اذا سلبناها عنوة واكراهاً

ان الانسان لم يخلق لأن يثقل بالسلاسل والأغلال وإنما كان كماله النوعى فى اطلاق مداركه وقواه للعمل والحركة

فالحرية هى القدرة — هى الحركة — هى الحياة — هى العدل هى المساواة — بل هى السبيل للوصول الى أرقى مطالبنا والحرية ليست مطلقة اذ لامطلق فى هذا العالم بل كل ناموس له حدود ومستثنيات . فهى مقيدة بهذا المبدأ وهو « أنه لا يجوز أن تكون حرية شخص مجحفة بحرية آخر » هذا هو المبدأ الذى يجب أن يكون أساساً لتعامل الناس وأصلا للروابط فيما بينهم

والحرية حق يقابله واجب وهو المسئولية فاذا أساء شخص استعمال حريته بهضم حقوق الغير يكون مدانا ومطالباً

باصلاح ما أفسد كما أن الغير مسئول عما يلحقه به من الضرر

ولا ينكر أحد أن منح الحرية لأمة هو من الأمور التى تحتاج لدقة المراقبة واطالة النظر لأنه يجب التدرج فيها والتدرب عليها شيئاً فشيئاً ولذا يقال أن عنوان الحرية التى تمنح لأمة بحيث لا تنذر بضرر أو سوء هو درجتها من التربية ونصيبها من المعارف التى تضىء سبيل الحرية وتحيي الشعور بالمسئولية — فالرجل الذى لا يقدر نتائج أعماله ولا يدرى حقيقة حاله نحكم بأنه لا يحسن استعمال الحرية

لهذا كان أهم واجب على الحكومة هو أن تدرب الأمة تدريجيا على الارتقاء فى الحرية عملا بقول الحكماء (ازدد نورا أزدك حرية) وقال آخر (أحسن الدرجة التى أنت بها أرفعك لغيرها)

فالحرية تشبه السلاح ان مسكته يد حازم كان فيها ماضياً وان تناولته يد جهول كان عليها قاضيا

وأنواع الحرية كثيرة — منها حرية الفكر وهى أجل حرية فطر عليها الانسان ولا يمكن اعدامها أصلا . فالفكر لا يقتل أبداً والمذاهب الصحيحة والآراء القويمة لا تعدم

ومنها حرية العمل لأن الانسان محتاج للسعى وراء الرزق طلباً لقوته وملبسه ومسكنه فيجب ألا يمنع ولا يحرم من قواه ومزاياه الشخصية بل يترك حرا فى عمله ما دام لا يمتهن حرية الغير وما دام عمله ليس من الأعمال المحرمة حفظاً للأمن وحرصاً على الآداب العمومية

ومنها حرية الاجتماع فلا تتم حرية الفكر ولا تقيد حرية البدن اذا لم يمنح الانسان حق الاجتماع باخوانه على مرأى من الأمة والحكومة مبادلة للأفكار فى الشؤون العمومية حتى يتبين صحيح الأفكار من سقيمها أو طلباً لحاجاته حتى يتيسر لمن لا يجد فى نفسه القدرة على القيام بعمل وحده أن يجد من أخيه ومواطنه نصيراً وظهيراً — فحرية الاجتماع ضرورية لأن « الانسان مدنى بالطبع »

ومنها حرية الاعتقاد وهى من أقدس الحريات اذ يتوجه الدين لأخلص شعور فى الانسان فيخاطب اللب ويناجى القلب ويستصرخ العقل . وهو المنقى للنفس من الشوائب والأدران وهو الذى يرفع لأرقى الفضائل حيث يجد الانسان لذة واطمئنانا — يجد تسلية وتعزية فى الحياة الحالية وأملا وهناء

فى الحياة الأخرى — انما تقيد هذه الحرية بألا يجبر أرباب دين أهل دين آخر على اتباعهم (لا اكراه فى الدين)

ومنها حرية اللسان أو الخطابة وحرية القلم أو الصحافة هذان النوعان من الحرية يرتبطان ارتباطاً تاما بحريتى الفكر والاجتماع فليس للانسان فقط عقل يفكر به بل له لسان يعبر عن تلك الأفكار ويفصح عما يكنه الضمير — لهذا وجب أن يكون من حقه التكلم والمراسلة وكتابة ما يعن له من كتب وصحف اظهاراً لآرائه ونشراً لأفكاره اذ كل هذه صور للكلام البشرى وليس من حد لهذا سوى احترام حقوق الغير — فاذا أضر شخص جاره بكلامه أو أحدث هياجاعاما بخطابه فهو مسئول عن خطئه معرض للجزاء عليه

وليس ثم أشد استبداداً وأكثر اعتسافا مما وصلت به الحكومة لمحاربة الأفكار ومكافحتها والتضييق عليها بهذا الحد من الظلم وبهذه الدرجة من القساوة حيث لا تسوى بين الأفراد بل تفرق بين الجمع - فلهذا الحكومات الجمهورية والديموقراطية وبعض الشورية تناضل عن حرية الصحافة والخطابة أمام المحاكم لما فيها من النفع متى حسن استعمالها

ومما لا شك فيه ولا مراء أن الحرية من أجلّ النعم التي وهبها الخالق لنا ولا يجوز أن تقام في وجهها الحدود الا لباعث وضرورة فكلما زادت الأمة عرفانا بحقوقها وواجباتها (بالتربية الوطنية) كلما خفت قيودها وقربت من الحرية الصحيحة . فعنوان درجة الأمة من التهذيب هو ما تتمتع به من الحرية فقد قال «نومادروز» فقيد سويسره (ان من الدلائل الصادقة أن تقاس درجة الأمة في التقدم والارتقاء أو التأخر والانحطاط بمقدار نصيبها من الحرية الذي تتمتع به أبناؤها)

فالأمة التي لها الحظ الأوفر من الحرية ولها أبناء يحسنون استعماله هي أرقى الجميع بلا خلاف مهما صغر اتساع أراضيها وقل عدد سكانها — فان في ذلك قوّة أدبية عظيمة تسمو بها فوق الممالك الأخرى وتضمن لها حياة طيبة وسعادة مرضية بل تحميها وتذود عن استقلالها أكثر من قوّة المدافع والنيران

وبالجملة ان الحرية (من حيث هي) استقلال العقل والارادة وانطلاق اللسان من قيد العبودية لأي شيء الا الله سبحانه وتعالى فهي واجبة له سبحانه لأنه خالق الانسان وواهب العقل — وتنقسم الحرية بالتعريف الأعم الى حرية

عمومية وحرية شخصية — فالحرية العمومية تكافؤ الأمة بالحق في مشاركة الحكومة بالرأي وتكافلها على قيام الشرائع والقوانين حتى لا يعبث بها عابث أو تصرف على غير وجهها المقصود تبعا لأغراض النفوس وغلبة الشهوات عند الحكام وقد قررتها الشريعة الاسلامية ولها من الأثر العظيم في ترقي الأمم ونشر لواء العمران ما يشاهد عند الحكومات الأوروباوية المعتدلة الآن وما بلغ من المسلمين في الصدر الأول مبلغاً من القوة والمدنية والمجد تقف دونه النظر حائراً والانسان مقرا بفضل شريعة وضعت هذه القاعدة منذ ثلاثة عشر قرنا للمسلمين ولم يتوصل اليها غيرهم من الأمم الا في هذه القرون الأخيرة بعد مكافحات شابت لها نواصي الولدان وانصبغت هامة المغرب بنجيع الانسان

والحرية الشخصية أمن الانسان على نفسه وعرضه وماله وتمتعه بسائر حقوقه الشخصية التي تخولها له طبيعة الاجتماع باعتبار كونه عضواً عاملا فيه

٣٢

﴿ الحرية الشرقية والحرية الغربية هل يستويان ﴾

ان الحرية هى استقلال العقل وانطلاق اللسان من قيود الاستعباد المطلق . ومتى أخذت الحرية من ذلك وسطاً بين طرفى الافراط والتفريط حملت النفوس على الغيرة ونبهت فيها حب العزة والكرامة

والنفس الكريمة تأبى الاحجام وتنشأ على الاقدام فتطلب جلائل الأعمال وتنبذ طرق الدنايا وتطرح راحة الأخلاد الى المسكنة والذل ولا يصدر عنها أثر من آثار الحرية الا مسبوقا بالروية مقرونا بالفضيلة دالا على الثبات لما تأصل فيها من الرزانة الناشئة عن عزة نفس اذ من توابع العزة الرزانة والثبات وهما حياة الأمم ومبعث مجد الانسان وعكسهما الرعونة والطيش وهذان الخلقان يلازمان طرف الافراط فى الحرية كما يلازم طرفه الآخر وهو التفريط الذل والمسكنة والوسط بينهما هو الرزانة والثبات

أنظر الى بعض الشعوب الأوروبية الذين تناهى عندهم الآن الافراط فى الحرية الذى دعا الى التفريط بالفضيلة حتى

انطلقت النفوس فى ميدان الشرور وانغمست فى الرزائل تحت اسم الحرية وأيضاً ما يصدر عنهم من الضوضاء والجلبة عند كل حادث سياسى — وكل هذه أمراض وبائية ليس أسرع من تفشى ضررها فى ربوع المدنيـة وفتكه فتكا ذريعـاً فى الانسان — ولقد أحس الغربيون ببلاء الافراط بهذه الحرية وما تأتى عنها من المضار التى أقلها انتشار الفوضى والاشتراكية فى ربوع المدنية وتهديدها لها بالخراب والتدمير

وأما المفرطون فى الحرية فمثلهم مثل الأمم الشرقية التى فقـدت مزايا الاسـتقلال العقلى وسيقت بعصا القهر سوق الأنعام وناهيك به ذلا قاتلا للنفوس مميتاً للهمم مفقداً للاقدام نشاهده الآن بالعيان — لهذا جاء الاسـلام هادماً لأركان الاستبداد ومرشـداً لحرية العقل ليحمل المؤمنين على عزة النفس الداعيـة الى الرزانة والثبات الباعثين على العمل الممهد لسبل المجد والسؤدد — وقد نال المؤمنون من ذلك حظاً لم تنله أمـة من الأمم حتى بلغوا من العزة مكانا رفيعاً وانمـا انحطوا الآن الى درك الضعة لما علم من أن العزة ملازمة للحرية وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد فاتخذوا أولياءهم أربابا من

دون الله ومن يدع مع الله الهاً آخر فحسابه على ربه (ولن تجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً)

وبالجملة فالحرية حياة الأمم ودعامة التمدين وأساس الرقيّ العقلى فى هذا الوجود البشرى وشرطها الاعتدال وبه جاء الاسلام وبهما عمل المسلمون زمانا قامت لهم به الدول وشيدوا دعائم العمران ونشروا راية العلم وأخذوا بجماع القوّة فهدموا بها بنيان الاستعباد وحطموا صروح الاستبداد فملكوا قلوب البشر واجتمع تحت رايتهم الشعوب على اختلاف عناصرهم وتباين مشاربهم قال عليه الصلاة والسلام (لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى)

والعيان أعظم شاهد وبرهان على أن الحرية الشرقية والحرية الغربية لا يستويان (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) وحرية الغربيين الآن يفرق فيها بين الشرقى والغربى والمسلم والنصرانى بل والبروستانتى والكاثوليكى — والحق فيها للقوى يسحق بقوته الضعيف ويستهين بحقوق من عداه — فمثل هذه الحرية تقابل بالسخرية والنبذ والاستهجان لأنها استعباد تأباه الانسانية والانسان

ولا ينطبق على قانون الحرية فى كل عصر وزمان

٣٣

﴿ المساواة ﴾

اذا كانت الحرية عزيزة على الانسان فالمساواة لا تقل عنها معزة ولكن وجود مساواة كاملة تامة مطلقة فى هذا العالم مستحيل اذ أن قوانين الفطرة ونواميس الكون أشد وأقوى من أن تذعن لسلطان ارادتنا ورغباتنا فليس فى قدرتنا ما يجعل أفراد البشر فى مرتبة واحدة وليس فينا ما يمنع وجود أناس أشد باساً من غيرهم وأعظم قوّة أو أحدّ ذكاء اذ الناس رجلان رجل عرف كيف يسلك أحسن سبيل فى الحياة ويتقن عمله فيه بحرصه على النظام ومحافظته على الاقتصاد ورجل ضعيف صعب عليه جهاد الحياة والمزاحمة فيها فضلّ عن السعادة وما كان من المهتدين

وهذه الاختلافات التى لا محيص عنها الواقعة بين الرجال واقعة بعينها بين الأمم فلا تتمتع جميعها بالنعم الوافرة والخيرات العميمة اذ منها من تسكن الأقاليم المعتدلة فتنهض للعمل والسعى وراء الرزق فتنال أعظم نصيب من خيرات تتدفق ونعم تتوالى

ومنها من تقطن الأقاليم المثلجة فلا تنعم لها حياة ولا يرغد لها عيش اذ قد تكون أكثر نصبا وتعبا وأكبر بلاء وعناء وأنقص كسبا ورزقا وأقل جزاء وأجرا

ومنها من تعيش فى البلاد الحارة وليس عليها الا أن تمع وتعيش فالحاجات مقضية والأرزاق قريبة واسعة

وهكذا فى الاقليم الواحد كلما تباينت الأوضاع اتسع نطاق الخلاف — فالأمم الجبلية وأمم الصحارى أكثر قناعة وأعظم بأسا وبطشا من أهل البلاد المستوية أهل السهول والوديان — وكلها اختلافات اقتضتها ارادته تعالى ليس للانسان أن يعارضها ولا أن يقف أمامها — فما دام القطبان ما دام خط الاستواء ما دام الشمس والظل والحرارة والبرودة مادامت أرض خصبة وأخرى قحلة فان الاختلافات تبقى بين الرجال والأمم كالاختلافات الواقعة بين الحيوان والنبات

وحينئذ فالمساواة الحقة هى التى يتيسر للانسان الحصول عليها — هى الكافلة لحاجات الجميع جهد المستطاع — هى المساواة فى الحقوق — وتتنوع الى أنواع

منها المساواة أمام القانون فلا تفرقة بين فقير وغنى بحيث

يكون القانون واحداً للجميع — والمتأمل يجد أن الشريعة الاسلامية وضعت المساواة أساساً فى العبادات والمعاملات

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى يقول له (سوّ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا ييأس ضعيف من عدلك ولا يطمع شريف فى حيفك) ولكن من ألقى نظره للعهد القريب لا يجد أثراً لها فى بلادنا

فقد عرف عندنا المماليك مرة والشراكسة أخرى كان الحاكم منهم أمة بتمامها. وكانت الأبناء منهم تتولى أمور الناس وراثة عن الآباء فلم يحتاجوا لأن يبرهنوا على كفاءتهم وسعة معارفهم حيث ميزهم القانون ورفعهم فلا تمسهم نوائب الحدثان ولا طوارئ الزمان

ولا شك أن كل هذه المؤلمات المبكيات مما يناقض العدالة وينافى المساواة — ولذا وجب على كل ذى شعور حىّ أن يعمل لازالة هذه الامتيازات ومحو هاته الدرجات

ومنها المساواة فى التعليم فبعد أن تمنح الأمة أبناءها المساواة فى الحقوق يجب عليها أن تبعث روحا تعدد لديهم المطالب وتزيد آمالهم اتساعا — روحا تمكنهم من الوصول الى

مساواة أرقى — روحا تمحو كل امتياز اجتماعى غير عدل وتلك الروح هى: (التربية) فالفقير يحسن مستقبله بها كما يسوء حال الغنى اذا عدل عنها

ولكن المساواة المطلقة فى التربية متعذرة حيث تتفاوت المدة التى يخصصها كل فريق للتعليم — انما تكون المساواة فى المعارف الضرورية التى يلزم كل وطنى الالمام بها

ومنها المساواة فى العمل وهى جعل كافة الوظائف مفتوحة للعموم فلا احتكار ولا التزام فالغنى والفقير سواء فى حرية العمل — اللهم الا حدودا مفروضة حرصاً على الآداب أو الأمن العام — وأما وظائف الحكومة فلا تعطى الا لكل ذى أهلية واستحقاق

ومنها المساواة السياسية وهى تخويل الحق لكل فرد أن يعطى رأيه فى تدبير الحكومة ويرفع صوته فى حل المسائل العامة

فالصوت العام وان كان له عيوب وأوجه نقص انما هو أفضل نموذج وأحسن أسلوب تهتدى به الحكومات لسلوك أحسن سبيل فى السعادة . فالمستقبل فى الحكومات له وحده.

ومنها المساواة فى الواجبات — فكل وطنى عليه واجبات

نحو عائلته ووطنه . عليه لذويه الغذاء والنفقة والتربية والتعليم ولا يمكن اعفاء أحد من هذه التكاليف التى تكلفنا بها الطبيعة وتدفعنا اليها الغريزة — وعلى الانسان لوطنه تكاليف

منها خدمة العسكرية ودفع الضرائب فكل مطالب بهذا الواجب حسب قوته وثروته

ويجب أن يكون القانون عادلا فى هذه المسائل نافذا على كافة الأهالى انما يختلف باختلاف أحوال الرعية فمن كان أوسع ايراداً دفع مبلغا من الضرائب ومن كان ضعيفاً أعفى من الخدمة العسكرية ـ ولكن متى اتحدت أحوال الناس وظروف معاشهم تساوى الجميع أمام القانون

٣٤

﴿ الاخاء ضرورى للبشر ﴾

ان الناس أخوة تتقاسم الأحزان فتتعاون عند كل ملمة ويغرس فى القلوب من حسن الشعور وشريف العواطف ما يوجه الأفئدة لمواساة الاخوان ومحاسنتهم . ويبين أن الدقة فى المعاملة وعدم التساهل والضبط فى الحقوق وعدم التسامح يؤديان الى حب الذات مع أن كمال الانسان فى كرم

النفس وطهارة الروح

هذه المؤاخاة دعت الغنى لبذل المال تخفيفا لآلام الفقير وبعثت القوى لمساعدة الضعيف والسليم لعيادة المريض وتقوية آماله — ولهذا رأينا الأفراد تتعاون على اقامة دور البرّ وأماكن الخير (ملاجئ) للفقراء ومستشفيات للمرضى وبيوت لتربية الأطفال ومآوى للمجانين وغيرها — واستمرّت هذه الأعمال الخيرية عدّة قرون ولا نصير لها غير أيدى المحسنين

ولم تنتبه الحكومات لهذه المسائل الا فى العهد الأخير (ما عدا الحكومات الاسلامية فكان بيت مال المسلمين فيها منشأ لهذا الغرض) فقد اعترفت « بأن عليها واجبات للفرد وله عندها حقوق » فعلى الحكومة التى ترعى حقوق بنيها وتسعى وراء سعادتهم أن تقيل من يعثر منهم وتواسيه وتشارك المصاب وتوازره وتأخذ بيد الضعيف وتخفف عنهم ويلات الزمان ونوائب الحدثان بجميل الشفقة والرحمة بطريق الاعتدال

والذى يستحق المعونة اما صغير تحفظ ثروته أو كبير متلف لماله أو فقير أو عجوز أو مريض أو عامل ضعيف

فالصغير للحكومة الحق فى معاقبة أبيه اذا أساء اليه

بحرمانه من الحقوق العائلية - ولها أن تنصب القوام والأوصياء لحفظ أموال الصغير القاصر أو الكبير المبذر السفيه أو المعتوه

ومساعدة الفقير بأن تفى الحكومة بنفقته متى تحقق لديها عجزه عن أى عمل يؤديه والا اذا أعانت كل فقير تكاسل الناس وانصرفوا عن أعمالهم الى «تكاياها» حتى تنفق عليهم وأولادهم — وهذا مما يثبط همم العاملين المقتصدين ويخمد عزائمهم حيث تثقل الحكومة عليهم الضرائب ليتيسر لها الانفاق على هؤلاء الفقراء وبهذا يحرم العاملون من ثمرة تعبهم فينال العقاب من استحق الثواب

وعلى الحكومة مساعدة الطفل الذى نبذه أبواه فى الطرق بغير ذنب اقترفه — وعليها أيضا أن تقيم المستشفيات العامة للمرضى والملاجئ للأطفال والمآوى للعجائز الذين أقعدهم الكبر — وعائلات الجنود الذين استشهدوا فى ميادين الحروب وأن تعتنى بايواء المجانين ومراقبتهم وحمايتهم

والعامل الضعيف نصرته محتمة على الحكومة التى هى وصية الضعفاء بحيث تتخذ الاحتياطات اللازمة والتدبيرات الضرورية لمنع وقوع الحوادث فى المناجم والمعامل وغيرها

كالانفجار والحرائق والتهدم فتلزم « المدير » بما يتلف صحة العملة أو يفقد أحدهم الحياة — وتحديد ساعات العمل وتعيينها رفقاً بهم ورحمة

وبالجملة ان التسامح والاعتدال يحسمان كثيراً من المنازعات ويفضان أبوابا من المشاكل فى الأمة وهما يستلزمان الشعور باحترام حقوق الغير وآرائهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية وان من أنفس المبادئ الأدبية التى تحث عليها الأديان وترفع صوتها من أجلها الحكماء هى «حب لأخيك ما تحب لنفسك» و « عامله بما تحب أن يعاملك به »

٣٥

﴿ فوائد التكافل والتضامن ﴾

ان الانسان لا قدرة له على استيفاء حاجياته الضرورية بمفرده ولا استطاعة له على تكميل لوازمه الذاتية بنفسه بل لا بد له من معاونة ومساعدة قوم كثيرى العدد يتمم بهم ما ينقصه ويكمل ما يحتاج اليه فى حياته

فالمعاشرة لازمة بحكم الضرورة فما خلق الانسان ليعيش وحيداً لأنه بطبعه يمل اذا لم يجد بجانبه أنيساً يحادثه — ولذلك

سمى (انسانا) أوجليساً يبث اليه شكواه أو صديقاً يواسيه ويسليه

فلا صديق اليه مشتكى حزنى ولا أنيس اليه منتهى جزلى

وقد قال بعض حكماء الأفرنج (ماذا تعمل النفس الوحيدة حتى فى الجنة) وذلك مصداق لقول شاعرنا العربى أبى العلاء المعرى

ولو أنى حبيت الخلد فرداً لما أحببت فى الدنيا انفرادا

فالانسان للانسان كاليد تتوسل باليد والعين تستعين بالعين بل هو ساعده وعضده (وان الذليل الذى ليست له عضد)

قال ابن مسكويه اذا كان الانسان محتاجا الي غيره بالطبع فكيف يؤثر الانسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلى ولا يتعاطى ما يرى من الفضيلة فى غيره - وقد خطأ الذين رأوا أن الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس بملازمة المغارات فى الجبال وبناء الصوامع فى المفاوز فقال انه لا تظهر فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء اذ القوى تصير باطلة فلا تتوجه لا الى خير ولا الى شر واذن يصيرون بمنزلة الجمادات والموتى من الناس ولذلك هم يظنون أنهم أعفاء وليسوا بأعفاء وأنهم عدول وليسوا بعدول فانما الفضائل أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم فى المعاملات وضروب الاجتماعات

وبديهى أن فى الانفراد اخلالا للنظام وتحليلا للمجتمع وتقويضا لدعائمه فانما المجتمع كجسم انسان كل فرد منه بمنزلة عضو من أعضاء البدن وقوام البدن بتمام أعضائه

فاذاً الاجتماع ضرورى وعن الاجتماع تنشأ المعاملات ويضطر الناس للأخذ والعطاء وتبادل المنافع — ولذلك كان للتكافل أركان هى الألفة بين الناس والعدالة فيما بينهم

أما الألفة فوجه لوازمها أنها اذا تمت نشأ عنها التعاضد والتوازر والتضافر والتظافر والتناصر والتألب والائتلاف والاتحاد وصار التعامل بينهم على أحسن نهج وأقوم منوال فانه لا تعامل الا بين متآلفين واذا تآلفوا وتحابوا اتفقت مشاربهم واتحدت أغراضهم وابتعدعنهم النفاق وانعدم الخلاف الذى هو أصل كل بلاء وأس كل شقاء واذ ذاك تنشأ الثقة بينهم ويحصل الأمن فى تبادل المنافع فيقوون على نيل الخيرات وينهضون لاستخراج الغوامض وابراز المخترعات وتستسلم لهم الصعاب وتدين لهم المطالب على اختلاف أنواعها طوعاً أو كرها فان ما هو عزيز المنال صعب المرام بالتعاون والمساعدة والتناصر يصبح ميسورا — قال سقراط حكيم اليونان (انى

لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك ووقائع بعضهم ببعض وذكر الحروب والضغائن ومن انتقم أو وثب على صاحبه ولا يخطر ببالهم أمر المودة والألفة وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس بالمحبة والأمن وأنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة وان مالت اليه الدنيا بجميع رغائبها فان ظن أحد أن أمر المودة صغير فالصغير من ظن ذلك – وان قدّر أنه موجود ويسير الخطب يدرك بالهوينا فما أصعبه وما أعسر وجود صداقة يوثق بها عند البلوى)

وأما العدالة فلأنها حياة المجتمع وروح العمران فاذا انعدمت من أمة لا شك أسرع اليها الفناء وحلّ بها الدمار فتتقهقر وتتلاشى شيئاً فشيئاً حتى تصبح أثراً بعد عين — ألا ترى أنه اذا ساد العدل استتب الأمن العام وتوطدت أركانه واذا ما استتب الأمن العام اطمأنت النفوس وهدأت القلوب وارتاحت الخواطر فأمن كل فرد على نفسه وماله وعرضه ألا ترى أنه اذا انتشر العدل أمن الضعيف جور القوى والصغير حيف الكبير وعاشوا اخوانا وحينئذ تحيي الآمال وتقوى العزائم وتنهض الأفكار وتنشر الهمم ويكثر العمران

وينقسم التكافل الى تكافل عائلى وتكافل اجتماعى

فالتكافل العائلى هو مشاركة ذوى القرابة فى الخيرات ومعاونتهم فى السراء والضراء وتضافرهم فى تدبير أمورهم المعيشية ولوازم حياتهم فيقوم الرجل بتحصيل الغذاء وتقوم المرأة بتدبير المنزل ثم يتعاونان الاثنان على تربية أولادهما وتثقيف عقولهم — وأيضاً يجب على كل من كان قادرا على الكسب أن يساعد غير القادر عليه من ذوى لحمته — فعلى الابن مساعدة أبيه الذى أوهنه الكبر والشيب أهمه أو الذى منعته عاهة وأقعده داء عضال كالمزمن والمقعد والمفلوج — كما أنه يجب على كل فرد مساعدة أقربائه البائسين منهم والفقراء والمعوزين قال تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) وقال عليه الصلاة والسلام (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم)

والتكافل الاجتماعى أعم من الأول وهو قيام كل شخص بوظيفة وتأدية كل عمل من الأعمال الدنيوية — يستوى فى ذلك الكبير والصغير والأمير والحقير والغنى والفقير . فالملك يسوس البلاد بعدله والوزير يدبر شؤون المملكة بحزمه والمتشرع يسن القوانين واللوائح . والمهندس ينظم . والطبيب يعالج العلل

والفلاح يفلح الأرض . وهكذا من أحقر عامل لأكبر مخلوق تكون بينهما الحركة دائمة متواصلة والعمل مستمراً ولا يخطر ببال أحد أن هناك عملا حقيراً وآخر عظيما فكل ما يؤدى الى المجتمع فهو نافع لأعضائه والكبير يترتب على الصغير — اذ المجتمع كجسم انسان لايقوم الااذا قام كل عضو بوظيفة خاصة به — فالعامل البسيط قد يرشدأمته الى طريقة جديدة لأتقان أى عمل حقير صغير لايقل فى السعادة والمنفعة عن أعظم رجل أتى بما جعل شهرته تطبق الآفاق لأن كليهما قد أفاد بنى نوعه — فسعداً لمن كانوا مفيدين لبنى نوعهم فقد أدوا وظيفتهم فى الوجود فماتوا مرتاحى الضمير مطمئنى الخاطر مكتسبين ثناء الجميع وعرفانهم بفضلهم — وسحقاللمتقاعدالذى يعيش عالة على غيره وما أكفره بالنعم لا يقاسم ابن جلدته الأتعاب ولا يشاركهم فى الأعمال بل يكون كما قال الامام على " كالبهيمة المربوطة همها علفها أوالمرسلة شغلها تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد منها

وبالجملة اذا أراد الله بأمة خيراً ووفقهم الى أعمالهم وتم فيهم التكافل تمت لهم بذلك السعادة وارتقوا الى أسمى ذرا

الـكمال وبلغوا شأواً لم يبلغه غيرهم فى كل آن . أما اذا اتكل كل على غـيره وانتظر كل شىء من غيره ولم يعمل لغـيره ما استطاع انحطت مكانتهم وذهبت ريحهم ورموا بأنفسهم الى الهلاك — فاذاً الأمة تتبع فى رقيها وانحطاطها مقدار ما تمهدها اليه نفوس أفرادها المـكونين لها

٣٦

فوائد الاستقلال

الاستقلال كلمة غالية ولفظة عالية تهتز لها القلوب فرحا وسروراً وتميل اليهـا الأعضاء شفقة وانعطافا وتطأطئ لهـا الرءوس خضوعا وخشوعا وتتقبلها الأفواه لثما وتقبيلا

فسعادة الأمة متعلقة بعيشها فى بلادها على الوجه الذى تريد وتختـار فلا تقهر على الخضوع لقوانين أجنبيـة أو علي التخلق بعوائد غير وطنية

والأمة المستقلة هى صاحبة السيادة التامة فى بلادها وهى التى تتصرّف بحرية فى تدبير شؤونها وسن قوانينها بل هى بيدها حظوظها وبيدها مستقبلها — فلا يسوغ لأجنبى التداخل فى شؤون الأمة المستقلة بحال من الأحوال مهما قلّ عدد السكان.

فيها أو صغرت مساحة أراضيها — فالأصل اذاً فى الأمور أن كل أمة تستقلّ فى شؤونها استقلالا داخلياً — يشعر العامى فى نفسه بذلك فيقول (كل واحد أمير فى محله) ولكن من المحزن المؤلم أن نرى كثيراً من الأمم غير مستقل بأموره تلك أمم مرّت بها ظروف وألمت بها حوادث وأسباب أوقعتها فى يد الأجنبي وتحت نيره وحملتها سوء استبداده

ومعلوم أن الأمم التى نراها اليوم فى هذا العالم لم تكن على الدوام بالحالة التى هى عليها الآن فمنها ما اتسع نطاقها ومنها ما ضاقت أملاكها ومنها ما تلاشى وانتهى أمره فانقطع شأنه فى التاريخ — وبتتبع تلك التغيرات ترى الأمة تعمر وتتقدم ما دامت وطيدة الدعائم ما دام فيها الشعور متحداً والمبدأ واحدا — وأن الأمة التى تنقرض وتتلاشى هى المتفرقة أفرادها الفاسدة آدابها — وأن تكوّن الأمم الحالية لم يكن على نسق واحد وعلي وتيرة واحدة حيث أن بعضها حسن خلقه وتقويمه فسعد وبعضها بنى على غير أساس متين فكتبت عليه الشقاوة والتعاسة وان أشد هذه الأمم عصبية وأطولهم دولة وأعزهم سلطانا هى التى لا يقتصر فى توطيد دعائمها على مصالح الأفراد العامة

بل على المشاعر والخواطر الواحدة فان الروابط القلبية العقلية أمتن وأبعد انفصاما من الروابط المادية اذ يتجه بها حظ الأمة نحو السعادة نحو البأس والمنفعة والشوكة

وقصارى القول أن العالم فى تغير وتحوّل متواصل فى تقلب وتبدل مستمرّ فان الأمة تبدو صغيرة وتنشط عزائمها للعمل وتتحد مطالبها فيزداد بأسها وتعظم شوكتها وتصبح أمة عظيمة معززة الجانب ثم لا تلبث أن يدخلها الغرور ويملأها العجب فتهمل شؤونها ويطأ قدمها باب التنعم والرفاهية فتحيط بها ظلمات تكون بلاء وعناء لا تسلم من مرضه بل ربما قضى عليها تلك سنة فى الأرض يسميها الحكماء قانون التاريخ فما يحصل من التغيرات فى قرن واحد ليس بالقليل — فليتيقظ من يقول (كما مرّ اليوم يمرّ الغد — غدى كأمسى) وليتعظ بأن هناك تغيراً يقوم بالأمة فى يوم كشروق الشمس وغروبها . وأنه قد تكون الدقيقة الواحدة سبباً لسعادة الحياة أو علة لشقائها

وبالجملة أنه لا يسوغ لأمة أن تتصرّف فى أمة أخرى بما يخالف اختيارها وارادتها فالسيادة الداخلية للامة محترمة لا يجوز التعدى عليها — أللهم الا اذا سارت الأمة فى طريق

ممقوتة طريق تجعلها أبداً مهددة لراحة الأمم واطمئنانها فحينئذ يسوغ التداخل فى شؤونها فيجوز اخضاع قبيلة وحشية تعيث فساداً فى أرض جيرانها من قتل وحرب وسبي ونهب — وكذا اذا اعتادت أمة السلب فى البحار فللجميع الحق فى ردعها لأنها تهدد البحر طريقهم العام ـ الى غير ذلك مما يخل بالآداب واستتاب الأمن العام

٣٧

﴿الحكومة الملوكية المطلقة والحكومة الجمهورية الديموقراطية﴾ والحكومة الملوكية الشوروية

الحكومة صفوة رجال من الشعب يترشحون لتولى شؤون الوظائف المناط بها ترتيب نظام الأمة والمحافظة على دواعى راحتها وهم لا يمتازون عن الكافة بخصيصة من خصائص البشر أو بمزية من مزايا الترفع عن أمثالهم من الناس الا بكونهم قوام الشريعة أو القانون فتجب لهم على الناس الطاعة ما داموا فى طاعة الشرع ليتسنى لهم تنفيذ أوامر الشريعة وتنظيم نظام الأمة باتفاق النفوس المتغالبة عند حد القانون الذى هو سياج المجتمعات ومناط راحة الشعوب

والحكومات ضرورية للبشر فلا قوام لأمة ولا حياة لشعب الا بحكومة تهيمن على الشرائع والقوانين وتعمل بها فى ترتيب معيشة الشعب ونظام الأمة وتنظر فى سائر المصالح التى تعود على الهيئة المحكومة بالخير وتدفع عنها الشر والضير

ويتفاوت نوع الحكومات فى كل مملكة بتفاوت وتباين الأقطار

فمنها الحكومة الملوكية المطلقة وهى وراثية عادة أى ينتقل الملك فيها من الأب لابنه الأرشد أو للأرشد من العائلة — وتكون السلطة فى قبضة فرد واحد يقلبها كيف شاء فيقضى بالحرب أو الصلح ويسن القوانين ويربط الاموال حتى اذا جمعت يتصرّف فيها بلا رقيب ولا رصيد — وفي يده أرواح أمته يمن على من يشاء الحياة ويقضى على من يشاء بالاعدام فلا يلبث هذا الرجل حتى يخون ما ائتمن عليه فيتبع هواه ويصبح مستبدا معتسفاً قاسيا وتصبح أمته معه فى فقر وآلام

ولقد أصاب من وصف هذا النوع من الحكومة حيث قال (لو كان الاستبداد رجلا وأراد أن ينتسب ويحتسب لقال أنا الشر. وأبى الظلم. وأمى الأساءة. وأخى الغدر. وأختى المسكنة

وعمى الضرّ. وخالى الذلّ . وابنى الفقر . وبنتى البطالة . ووطنى الخراب. وعشيرتى الجهالة

ومنها الحكومة الجمهورية وهى التى تدير شؤونها الأمة بنفسها وتكون أفرادها على استقلال تام وفى مساواة عامة ولكن هاته الجمهورية الديموقراطية لا يحسن العمل بها الا فى الحكومات الصغيرة حتى يتيسر اجتماع أبنائها ولا تطول مباحثاتهم فتثمر مناقشاتهم ولا تتعطل الأعمال

وتتوسط بين الملوكية المطلقة والجمهورية الديموقراطية هيئات حكومات تقرب من هذه أو تلك

أما الملوكية الشوروية فهى ثمرة تقدم الأفكار فى العصر الحديث — التقدم الذى أوقف الملوكيات عن الاستبداد وقيدها بالشورى فالملك اليوم يتبع قانونا نظامياً للملكة ويتقيد به فى تدبير حكومته — وكما يقيد هذا النظام الملك فانه يضمن للرعية حقوقها ويصون حرّيتها فيتعين حينئذ على القابض على صولجان الملك والمتنعم بسريره ملكا كان أو أمبراطوراً احترام قرارات نواب الأمة الذين لهم الحق فى فحص المسائل العامة فيما يسمونه مجلس النوّاب

فالحكومة النيابية هى التي يشترك فيها الملك مع نواب أمته فى ادارة البلاد — وتنتخب الأمة نوابها بلااعتبار نسب ولا حسب حيث المبدأ فى هذه الحكومة هو المساواة

وقصارى القول أن أرقى الحكومات هى التى تضمن ضمانا تاما للأمة استقلالها وسيادتها الأهلية فى بلادها والتى تلائم وتوافق حاجات الأمة وأفكارها والتى لا تهضم فيها حقوق للأفراد ولا للجماعات فاذا توفرت هذه الشروط فيها عمت العدالة أرجاءها وتناولت السعادة أفرادها

فأرقى الحكومات وأجلها هى المؤسسة على هذه المبادئ الثلاثة الجليلة وهى الحرية والمساواة والأخاء

٣٨

﴿ العدل أساس الملك ﴾

لله هذه الكلمة ما أكبر أمرها . وأعظم سرها . فلقد وضحت بها السبل وأشرقت الأرجاء . وبسطت الأرض ورفعت السماء . ووضع الميزان وبثت روح الراحة فى العمران كلمة هى عنوان صالح الأعمال فى الحال والمآل . وهى الأصل الأصيل . والظل الظليل . والشجرة التى تجنى منها ثمار العوارف

ويتفيأ على جميع الكائنات ظلها الوارف . كلمة كلما ذكرت محت الكروب . وأخذت بمجامع القلوب . وملأتها سرورا وأفاضت عليها نورا . تتعطر الأكوان بأنفاسها الزكية . وتنتعش الأرواح برياضها البهية . تلك كلمة العدل الذى هو روح الوجود وقوام كل موجود . له أذعنت الأبطال . وانقادت شم الجبال وبه صار الموات خصبا . واليابس رطبا . والضيق فسيحا والعليل صحيحا . فهو شفاء الأبدان . وأصل كل احسان . أمر به رب العالمين . وأقامه سيد المرسلين . ذلك هو نبراس الهدى به تنجلى ظلمات الغى والردى . والقطب الذى دارت عليه أرجاء الشرائع . والأس الذى شيدت عليه شريعتنا الغراء . وملتنا السمحاء . فالمستمسك به مستمسك بالشرع القويم . ومهتد الى الصراط المستقيم . والحائد عن طريقه واقع فى شرك الضلال ورام بنفسه فى مهاوى الوبال

فالعز فى اقتفاء آثاره . والاهتداء بأنواره . والذل فى عدم الوقوف عند حده . حتى فى نفس ضده

فالعدل ميزان الله الذى وضعه للخلق . ونصبه للحق به تلتئم الشعوب . وتأتلف القلوب . وتتصل أسباب النجاح

وتنتشر أعلام الفلاح . وتخصب البلاد . وتسعد العباد . قال تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وفى الحديث (بالعدل قامت السماء والأرض) وقال الشاعر

عن العدل لا تعدل وكن متيقظاً وحكمك بين الناس فليك بالقسط
وبالرفق عاملهم وأحسن اليهم ولا تبدلن وجه الرضا منك بالسخط
وحل بدرّ الحق جيد نظامهم وراقب اله الخلق فى الحل والربط

فالعدل هو التوازن بين الأشياء ووضعها فى مواضعها والانصاف استيفاء الحقوق ماديا وأدبيا — والرحمة فوق العدل

٣٩

﴿ العدل بين الأجرام وسائر الأجسام ﴾

اقتضت حكمة الحكيم العليم فى خلقه أن جعل بين جميع أجزائه من الأكبر الى الأصغر ميلا طبيعياً وجذبا عاما يكاد يقضى عليها بالاتحاد لولا ما ألقى فيها من قوّة الثقل التى بها قاومت تلك القوّة فحفظت أحيازها وتوازنت — وهذا التوازن هو الذى نسميه بالعدل فيما بين الأجرام وسائر الأجسام واليه الاشارة بقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) فعلى دعائم العدل قامت الأرض والسموات وتزينتا بأنواع المبرات فالشمس

والقمر وسائر الكواكب والأفلاك والأرض من ظاهر وباطن جميعها لا قوام له الا على تلك الدعامة — فلو فارق شيء منها خطة العدل فنى لا محالة . فالعدل هو الذى يحفظ لها قانون التساوى والبقاء على هذا النظام البديع الاحكام — ولولاه لبغى بعضها على بعض وتصادمت وتلاطمت واختلّ نظامها ومحى رسمها وذهبت أدراج الرياح هباء منثوراً

٤٠

﴿ عدل الانسان مع نفسه ﴾

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

فكيف تظلمها حقها ومن لم يعدل بنفسه . فأولى أن يحل فى رمسه وكيف لا وقد جافى جنبه بذلك عن مضاجع الخير والاحسان وألقى نفسه فى مهاوى الذل والخسران وأهمل فى جانبها العدل والوفاء . فحياته والممات سواء

حياتنا كالموت ان لم تكن نهجاً الى تخليد ذكر يدوم

وهل يرجى ممن أساء الى نفسه أن يحسن الى من عداه . فعدل الانسان مع نفسه حملها على المصالح . وصدّها عن القبائح ويختار لها ماهو الأنفع والأصلح دنيا وأخرى ويهذبها ويعودها

التطبع بمكارم الاخلاق

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

ومن ذا الذى يحب لنفسه العطب وسوء المنقلب ويرضى بالقعود . عن طلاب السعود . ويرمى بها فى بحبوحة الهوان ولا يرعى لها من شؤون أليس ذلك بحيوان أعجم أو حجر أصم لا بل هو أسوأ حالا وأكسف بالا وماذا يصنع (اذا اقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا : يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار)

٤١

﴿ عدل الراعى مع رعيته ﴾

مما لا يحتاج الى برهان ولا يختلف فيه اثنان أن الراعى العادل خير من المطر الوابل -- باسمه تساجلت الأطيار فى رياض السعود ومن أفقه أشرقت الأقمار على كل موجود

ذلك هو الأمر الذى سارت بحديثه الركبان . فى كل مكان . ونادى به المنـاد . فى كل ناد . حتى أصبح فى أفواه الرجال . مثلا من الأمثال . ولا أعنى بالراعى خصوص الأمير

بل ما يعم الكبير والصغير . عملا بقوله صلي الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) فالسلطان فى ملكه راع ومسئول عن رعيته والرجل فى أهل بيته والمرأة فى بيت زوجها والناظر فى مدرسته وهلم جرا

فبالعدل تخصب الأرض وتثمر الأموال وتنتظم الأحوال وتدرّ الأرزاق ويزول الشقاق وبه يستقيم الدين ويقوى حبله المتين

فالدين بالملك يقوى والملك بالدين يبقى

فاذا قاد الأمة راعيها بأزمته . ونهج على شرعته . اتصلت الأسباب . وتفتحت الأبواب . وسهل كل عسير . فى الزمن اليسير . وراجت الأمور . وذهبت الشرور . ووافى السرور والتأمت القلوب . وانجلت الخطوب . وغرست فى الأفئدة محبته . وحمدت على مر الأيام سيرته . وبقى ولو بعد عزله أميرا . واماما كبيرا . وهكذا بعد الممات . تخلد ذكره الحسنات

فيرى على مرّ الدهور لدى الورى حيًّا بما أولاه من احسان

فمدار العمار علي العدل والانصاف بين جميع الرعية

عليك بالعدل ان أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر

فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا يبقى مع الجور فى بدو ولا حضر

٤٢

﴿ عدل الرعية مع راعيها ﴾

يكون بأطاعته فى صالح الأمور . فى الغيبة والحضور والتودد اليه . والمحافظة عليه . وشد أزره . وتقوية أمره وشكره على جميل مسعاه . وحمده على ما أولاه . قالت الحكماء (السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد) لا قوام لأحدهما الا بصاحبه

٤٣

﴿ العدل مع الأكفاء ﴾

هو عبارة عن كون التعامل فيما بينهم جاريا على سنن الحق ومناهج الصدق فى جميع الأفعال وسائر الأقوال كما قال تعالى (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا) وأن يتعاونوا علي البر والتقوى لا علي الاثم والعدوان ويؤدوا الواجب ويلينوا الجانب . وبالجملة أن يتخلقوا بمكارم الأخلاق وحميد الخصال فيرتقون ذروة الكمال

وقد كانت الأمم السالفة والقرون الماضية من أجناس المتمذهبين وأصناف المتفلسفين مع افتراق مذاهبهم واختلاف

عقائدهم مجتمعين على انكار الظلم مجمعين علي اضراره اذ هو أصـل النقم ومسلبة النعم وهو يبدل العمار بالبوار والاحسان بالأحزان . أسرع من الطير الى الأوكار . ومن المـاء الى الانحدار . وبه تكـثر الشكوى . وتعم البلوى . وتفتر الهمم وتزل القدم . ويكثر الضرب والسلب .والقتل والنهب.والهرج والمرج . ولا دخل ولا خرج . وتجف البحار. وتذبل الأشجار وتنقطع الأسباب . ويتصل الخراب . قال تعالى (انا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها — والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما) وقال عليه الصلاة والسلام (الظلم ظلمات يوم القيامة)

وحق الله ان الظلم شوم　　　وان الظلم مرتعه وخيم

وقال آخر

ألم تعلم بأن الظلم عار　　　جزاء الظلم عند الله نار

٤٤

﴿ فوائد الأمانة ومضار الخيانة ﴾

الأمانة واسطة لبلوغ الانسان مراتب السعد وسفينة تنتشل الوضيع من لجج الضعة وتقـذفه على سواحل السؤدد والمجد وهى الأساس الذى لابدمنه فى اقامة الحضارة وتشييد

المدنيـة فـكما لا يقوم البناء على غير أساس كذلك لا يتأتى ايجـاد العمران بغير هدوّ واطمئنان فان الانسان ان لم يأمن علي نفسه وأولاده وماله فلا يمكنه أن يقوم بأى عمل فيقف لذلك دولاب التجارة فتبور الصنائع وتقلّ المـكاسب فيحتال الناس على أسباب المعيشة ويتهالـكون علي تحصيل القوت من غير طرقه المشروعة فتفسد أخلاق الأمّة وتنحط لقلة العمل مداركها وينتهى ذلك بضعف قوتها وتفريق مجتمعها

فالأمانة أول صفة تحمد فى المرء ولذا نرى الناس يفرون من الخائن بينما هم يفدون الى الأمين ويزفون اليه جميل الثناء ويعينونه علي الدهر ويمدونه بالأموال . قال الله تعالى (ومن أهل الـكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائمًا) وقال تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) وقال تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وقال تعالى (انا عرضنا الأمانة علي السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) وقال عليه الصلاة والسلام لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)

والخيانة صفة ذميمة وخلق سيء ونقض للذمة وكفر بالنعمة وخبث فى الطوية وسوء فى النية . قال تعالى (ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما) وقال الشاعر

ان الامانة لو علمت كرامة تولى ذويها رتبة الاسعاد
فابعد هديت عن الخيانة كلها فى أهلها من ذلة وكساد

وقال الآخر

أدّ الأمانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطيب المكسب

وبالجملة فالأمانة سيف الدين وعماد الدنيا وهى أن تؤدى حقوق الخالق سبحانه وتعالى وألا تفشى سرّ من أودع اليك سرّه وألا تغشّ أحداً فى معاملاتك وأن تحافظ على من جعل تحت رعايتك وألا تنقض عهد من عاهدته وألا تختلس ما ليس لك فيه حق

٤٥

﴿ تأثير الأخلاق الفاضلة فى الأمم ﴾

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الخلق عبارة عن حالة للنفس راسخة بها تصدر عنها الأفعال مع السهولة بدون حاجة الى التفكر والروية فان صدرت عنها الأفعال المحمودة سميت خلقا حسناً وان انبعثت عنها الأعمال

السيئة القبيحة سميت خلقا سيئاً قبيحاً . والخلق فى النفس كالخلق فى الجسم ويستعملان معاً أى ان حسن الصورة الظاهرية مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخدّ بل بالجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك لا يتم حسن الصورة الباطنية الا اذا استكملت وحسنت بها الأخلاق جميعها

وأمهات محاسن الأخلاق أربع فضائل الأمانة والعدل والاعتدال والشجاعة

ويدخل تحت ضد الأمانة الذى هو الخيانة المكر والخداع والتبلّه والدهاء والعناد والكفر والشك والاشراك والتطير والغيرة ويدخل تحت الظلم الذى هو ضد العدل حب النفس والاستئثار والطمع والبخل وحب الرياسة والتسلط والافتخار وكفران النعم والغضب وحب الانتقام والحسد وما أشبه ذلك

ويتدرّج تحت ضد الاعتدال حب التمتع والامتلاء بالأكل والشرب والشره والحرص والتبذير والتقتير وخلافها

ويندرج تحت ضد الشجاعة الجبن والتكبر والتهور والعجب والذل والجزع والخساسة والوقاحة والرياء والملق وغير ذلك . وان الفضائل أواسط بين طرفى الافراط والتفريط

كالسخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير قال تعالى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)

وأما العفة فهي وسط بين الشره والجمود. قال تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا)

والشجاعة وسط بين الجبن والتهور وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفيها ذميم وما توسطهما فضيلة

عليك بأوساط الأمور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وقال الآخر

ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم

فهذه الأخلاق الفاضلة اذا تمكنت من أمة وتمسكت بها فى غدوّها ورواحها وفى سرها وجهرها فلا بد وأن تكون أمة حية راقية أمة مستقلة قوية تهابها الأمم . قال الشاعر

ليس دنيا الا بدين وليس الد ين الا مكارم الأخلاق

أنظر الى الأمم المتمدينة ترى حسن عاداتها ومكارم أخلاقها وائتلاف أفرادها سبب ارتقائها وتقدمها وواسطة حياتها وشوكتها ونصير قوتها وصولتها

وانظر الى الأمم التى انحطت أو تلاشت تجد أسباب

ذلك طرحهم للأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة

وبالجملة ان الانسان يستمد القوّة فى حياته من ثلاثة أشياء (الشعور والعلم والأخلاق) فيجب أن يأخذ من كل منها نصيبه حتى يقدر على أداء الواجب عليه نحو نفسه وأمته وهذه الأشياء الثلاثة هى العوامل التى يسعى أبناء الأمم الحية فى استكمال نصيبهم منها فتجعل منهم رجالا يتفاوتون فى الرقى تبعا لدرجة ما حصلوه من كل منها

٤٦

﴿ مستقبل الأمة برجالها ﴾

قوام كل أمة برجالها ولا رجال الا بالتربية لانها هى التى تعين الطبيعة على انماء بدن الناشئ فى صحة — وارهاف ذهنه فى سداد . وتقويم سيرته فى رشاد . وتكسبه من صفات الرجولية ما يؤهله لان يكون رجلا حقا فى الغد — والمراد بالرجل هنا ذاك الذى عناه أحد الفلاسفة حينما رؤى فى رائعة النهار وبيده مصباح وهو يتطوّف فى شوارع مدينة غاصة بالناس تطوّف من يطلب شيئاً لا يكاد يرى فسئل عما يطلب فقال أطلب رجلا — هذا هو المعنى المراد بالرجال هنا وقليل ماهم

وكل من تصفح كتب التاريخ القديم والحديث يجد أنه ما انحطت أمة عن منزلتها الا لانها عدمت رجالها وأنها ما عدمت رجالها الا لانها لم تعن حق العناية بتربيتهم صغاراً فلم يكن لها منهم كباراً سوى أشخاص لا شيء لهم من الرجولية سوى الاسم وانما تتم التربية بثلاث طرق متوازية تفضي كلها الى تلك الغاية — أولاها تربية البدن بحسب قوانين الصحة — والثانية ارهاف ذهنه حتى ينفذه نور المعرفة وتنزاح عنه ظلمة الغباوة — والثالثة تقويم سيرته وهداية خطواته الى السبل المستقيمة والتنكيب بها عن سبل الغي

فكل أمة حية لها فى شأن حياتها أدوار عمرانية تصعد بها فى سلم الترقى والحضارة الى أن تصل الى غايتها المتمناة وأول خطوة من خطا التقدم التربية على الوجه المطلوب الملائم لأحوال الأمة والشامل لما به سعادتها ولا ينال الانسان هذه السعادة والحياة الطيبة الا اذا توفر حظه من الصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة ولا يحصل له شيء من هذه الصفات الا بالتربية كما يشهد به العيان وكفى به من برهان — فكما أن الارض لا تجود تربتها ولا تصلح للاستنبات ولا تؤدي خيرها

وبركتها الا اذا تعهدت بالحراثة والثماد الجيد والبذر والسقى كذلك الانسان لا يتوقع منه خير ولا نفع ولا انتفاع الا اذا تعهد بالتربية والتعليم — وقد قامت الدلائل على الانسان ولو بلغ النهاية فى كرم النجار وطهارة العنصر وكمال السجايا مفتقر الى التاديب والتربية الروحانية كما أنه مفتقر الى التربية الجسمية حتى يصلح للنهوض بأعباء مصالحه الدينية والدنيوية قال عليه الصلاة والسلام (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

ولما كانت التربية الجسمية ليست خاصة بالانسان بل يشاركه فيها الحيوان لم يبق له مايميزه عنه الا التربية الروحانية وهى الخاصة التى بها يسمى انسانا

أقبل على الروح فاستكمل فضائلها * فأنت بالروح لا بالجسم انسان

ومعلوم أن الارادة النفسية هى كغيرها من اللطائف المودعة فى الانسان ساذجة فى مبدأ نشأتها قاصرة عن الجولان فى الاشياء قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)

فيجب تربية الانسان من صغره وتعليمه ماينفعه فى دينه ودنياه ثم الزامه صنعة يشترك بها مع غيره فى تبادل المنافع

حتى يتسنى له أن يقوم بخدمة متى بلغ رشده وقوى عليها ويكون بذلك قد عمل لغيره كما عمل الغير له — ولا يترك الى اختياره لنفسه أو يتكل على ثروة أهله وشرف بيته فيخلد الى الدعة والبطالة حتى اذا شب لم يجد بيده صناعة ولا وسيلة يستعين بها على الكسب لو أحوجته الضرورة اليه — فان كرم الآباء وثروتهم لا يعتمد عليهما الا ساقط الهمة قال الشاعر

لسنا وان أحسابنا كرمت يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

على أن المدار فى كمال الانسان على ما يدركه بأدبه لا بحسبه ونسبه — فالفخر بالهمم العالية لا بالرمم البالية — ومكارم الأخلاق أصدق نبأ من الأعراق — والعنوان على شرف الانسان وكرم أصله هو ما يفعله لا ما يدعيه

من لم يكن عنصره طيبا لم يخرج الطيب من فيه
أصل الفتى خاف ولكنه من فعله يظهر خافيه

فاذا أهمل الناشئ مع ما علم من سذاجته وركود ريح انسانيته حتى شب فكيف يكون — ليت شعرى لابد والله أن يرعى مع الهمل أو يفترس مع السباع الضارية فان النفوس من

ميلها وشوقها أسرع اجابة لداعى الشر منها لداعى الخير - فالنفس لولا التربيــة مجبولة على ذميم الأخلاق ميالة الى ما لا يحمد مغبته كالهلع والجزع والطمع والشح والطغيــان والظلم وحب العلو والافتيات

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقال تعالى (ان الانسان لربه لـكنود) وقال تعالى (انه كان ظلوما جهولا) وقال تعالى (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشرّ جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين) الآية : وقال تعالى (والعصر ان الانسان لفى خسر)

وبالجملة فالتربية سر النجاح ومعراج الارتقاء وعليها نتائج السعادة الدنيوية والأخروية فهى بصفتها الـكمالية أساس الابتداع وغراس الاختراع وسر فضيلة الانسان على بقيــة الحيوان ولولاها لما نشأت روح فاضلة فى أفراد الأمة والهيئة المجتمعة

٤٧

﴿ الأعمال قيم الرجال ﴾

ليس الحياة بأنفاس نردّدها ان الحياة حياة العلم والعمل

خلق الله سبحانه وتعالى الانسان ومزاياه وما أودعه فيه من الحواس المرشدة والنفس المفكرة والعقل المدبر والبيان المصور واللسان المعبر والقوى المنفذة والأعضاء العاملة التي بجميعها تصرف فى أنواع العالم وبسط يده علي كل الكائنات وكان له السلطان الأعظم على ما فى الأرض — ولم تركب فيه تلك القوى الا ليجعلها عوامل تحت سلطة التمييز والتدبير يصرّفها بمعيار الحكمة فى مجارى ثمرات ما أحاطه به من الكائنات وجعله حوله من كنوز الخيرات التى نوعها القادر وفق تنوع حوائج الانسان وجعلها صنوفا متفاوتة النفع مختلفة الفائدة وأودعها خيرات كثيرة وبركات غزيرة ولم يجعله على ما هو عليه من هذا الشكل وتلك الصورة الا ليعمل عمله الخاص به حسب رزقه المقسوم له وقد أمره بالسعي لنواله قال تعالى (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه)

فالسعي مقرون بالعمل والعمل يطلب الحركة والحركة تستدعى صرف القوّة فمن يريد تحصيل الرزق وكسب العيش يلزمه أن يجد ويتعب ويصرف مقداراً من قوّته فى العمل — وما نراه من أن بعضاً من الناس يصرف مقداراً عظيما من قوّته

فى أعمال شتى ولا يحصل الا على قليل من الفائدة . وبعضا آخر لا يصرف الا النذراليسيرمن ذلك ويستحوذ على كثير من الفائدة ربما يتوهم منه أحد أن الرزق ليس مناسباً للقدر المنصرف من القوّة وانما هو قسمة أزلية ليست مرتبطة بالعمل والسعى ولم ينظر فى الأمر نظر حكمة ولم يعرفه معرفة حاذق بصير -- بل نظر الى ظاهر الأمر وحقيقته خافية عليه بعيدة عن مداركه فالله أمر بالسعى والعمل . والجسم هو القائم بذلك ظاهراً ومأمور من قبل العقل — فما أعمال الجسم مقوّمة ومعتبرة الا حسب القوّة الباطنة وكلما كانت هذه القوّة كاملة كانت قيم أعمال الجوارح تابعة لها والعكس بالعكس قال عليه السلام (الناس يعملون الخيرات وانهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم)

ولا سبيل الى الاتيان بالأعمال تامة الحسن عالية القيمة وافرة الحظ الا بالعقل الكامل والعمل المحكم فبقدر وجود هـذا وتفاوته تتفاوت أفراد الانسان وكلما كان العقل أصح والروية أغزر والاختيار أصدق كان الكمال أتم والعمل أقوم (ان الله يحب من العبد اذا عمل عملا أن يتقنه)

اذا أكمل الرحمن للمرء عقله　　فقد كملت أفعاله ومآربه

فاذا تم هذا للمرء أتى بأعماله تامة الحسن رائقة الصنع رائعة الابداع لا يوازنها ولا توازيها منن— ألا ترى ما أبدعه الانسان من الأعمال الغريبة . أبدنه الذى أمكنه من ذلك وجعل له السلطان المتصرف فى هذا العالم —كلا— ما الانسان من هذه الجهة الا شبح وتمثال لا يتميز به عن غيره ولا يفضل سواه وانما فضله ومزيته بقوّته الروحية التى تستخدم جسمه وتوجه قواه الحسية والا فليست قوى جسمه بأكمل منها فى غيره من الحيوانات التى يقهرها ويستخدمها فى أعماله . مثلا نرى الفلاحين يزرعون وكل منهم يجنى مقادير مختلفة والصناع تشتغل ومقادير الأرباح مختلفة وهكذا — وأسباب ذلك كله التفاوت فى المعلومات — فمن يرغب فى زيادة ربحه وكثرة فائدته فعليه السعى والاجتهاد فى اجتناء الخيرات من أكمام هذه الكائنات قال تعالى (وأن ليس للانسان الا ما سعى) وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ماينفى عنى حجة الجهل قال العلم قال ما ينفى عنى حجة العلم قال العمل وقال عليه السلام (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن ينفعكم الله

بالعلم حتى تعملوا) وفى التوراة (حرّك يدك أفتح لك باب الرزق) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة) وقال بعض الحكماء (الحركة بركة والبطالة هلكة والكسل شؤم وكلب طائر خير من أسد رابض)

يا نفس ذوقى لذة العمل   و واظبى لذة العدل والاحسان فى مهل

فكل ذى عمل بالخير مغتبط   وفى بلاء وشؤم كل ذى كسل

وقال آخر

دعى نفسى التكاسل والتوانى   والا فالبسى ثوب الهوان

فلم أر للكسالى الحظ يجنى   ثماراً غير حرمان الأمانى

وقال آخر

وكم حياء وكم عجز وكم ندم   جمّ تولد للانسان من كسل

٤٨

﴿ فوائد المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى ﴾

لولا التزاحم فى الأمور لأصبحت   عمد النظام على ذراها سجدا

من بديع حكمة الحكيم العليم أن جعل التزاحم بين الأنام منشأ لتشييد النظام فبالمزاحمة استيقظ الناس من سنة الغفلة

ونشطوا من عقال الخمول وأجهدوا مطايا سعيهم وراء ما به يرغمون أنف تلك العوادى التى حطت بهم رحالها وضربت عليهم خيامها حتى أثقلت كواهلهم وألجأتهم الى شدة البحث عما به يتخلصون من ربقة أخطارها وهول مضارها وكم خبايا من الحقائق أبرزتها لهم معاول البحث فأصبحوا آمنين مخاوف دهرهم يخوضون أبحر صعوباتها دون أن يمسهم سوء ويركبون متونها خاضعة ذليلة على حين أنها تروم انتياشهم كل ذلك بما ألجأتهم اليه دواعى المزاحمة وقد علم الله فيهم ذلك فنوعهم فى الخلقة الى ما ترى وأودع كل نوع من القوى وركب فيه من الآلات ما به يقوى على تلك الصعوبات ويهزم كتائبها الجرارة

ومن هنا تقلب الانسان وتنقل فى أطوار شتى وتأنق فى الملابس وتفنن فى المآكل والمشارب وزهى فى تمتعاته بعد أن كان هو وغيره من الحيوانات سواء يتغذى بعضه بالبعض ويهيم فى الفلوات والآجام كما يهيم غيره يبتغى اصابة ما به يسد رمق الجوع ويتقى ألم البرد من نحو الريش وأوراق الشجر وجلود الحيوانات وغير ذلك مما به كفاية حاجة حياته الضرورية ويتخذ الكهوف والمغارات مساكنه يأوى اليها كل ذلك بما أودعه

الله فى جسمه من المنبهات

والانسان بما ركب فيه من أصل الخلقة وما أودع فيه من المنبهات مزاحم لغيره مندفع الى نزع آثار الخشونة الأولى والتقلب على سرر النعيم — ولولا تلك المنبهات التى تحثه على طلب حاجاته لا استولت عليه الغفلة عن تحصيلها وانتهى الى فنائه دون شعوره — ولهذا صار الانسان كما ترى مندفعا الى تحصيل أغذية يعوض بها ما فنى وملابس ومساكن يتقى بها الحر والبرد وكل ذلك يدفعه الى حب الاثرة والاختصاص بالنافع ومزاحمة من يتخيل أنه يقف فى طريقه — تلك حال كل انسان فهو ميال بطبعه الى الخروج عن حيز وضعه بما غرس فيه من الأمل الذى وضعه الله فيه رحمة ولولاه ماغرس غارس غرساً ولا بنى بان بنيانا

مثلا يرى الانسان أخاه لابسا ثوبا أجود من ثوبه مادة وأحسن منه شكلا فيدفعه حب التمتع الى طلب مثله والأخذ فى أسباب الحصول عليه وربما صادفه فى طريقه ثوب أرقى وأجمل منظراً فاذا رآه غيره أخذ يجهد نفسه كذلك فى الحصول على مثل هذا الثوب الأرقى وهكذا حتى ينتهى بهم الأمر

الى ضرب من الثياب يدهش الناظر مرآه ويروق الخاطر معناه

ومع ذلك لا يقفون عند هذا الحدولنعم ما كانوا يعملون وعلى هذا المنوال يرى الانسان جاره فى عيشة راضية توفرت حاجاتها وتكاملت مسراتها وصفت أوقاتها فلا يهدأ له خاطر ولا يستريح له فؤاد حتى يرى نفسه فى رغدمن العيش يساوى جاره على الأقل فيبعث به ذلك الى أن يخلع ثوب بؤسه ويكشف عن ساق الجد فى سيره لنوال بغيته

ان لله فى الخلائق سرّا ... من سنا برقه تحار العقول

لا ترى ذرّة من الكون الا ... ولها فى الكون شرح يطول

هذه دارنا بها زاحمتنا ... عاديات من كل أوب تصول

تلك والله حكمة من حكيم ... لنظام الحياة أصل أصيل

وغرض الكل واحد هم عليه متزاحمون يدفع بعضهم البعض عنه وينازعه ما فى يده رغبة فى الاختصاص به

كل له غرض يسعى ليدركه ... ولو تحمل فى تحصيله المضضا

٤٩

﴿ لم لم تؤثر الخطباء والكتاب فى المصريين ﴾

لا شك أن بين ظهرانينا أناساً أصبحوا عقبة بين الأدب

وذويه ولا ديدن لهم الا التفنيد واللوم على الخطباء والكتاب وتثبيط همم المشتغلين بحرفة الأدب بحيث لو سمعوا خطيباً يخطب أو رأوا كاتباً يكتب لعب بهم الغيظ ودب فى قلوبهم الحسد فترى منهم ألسنة حداداً فبدل أن يقولوا هذا الخطيب مصقع ذرب اللسان ثابت الجنان رابط الجأش واسع المجال رحيب الباع له اقتدار على التكلم فى أى موضوع من مواضع الكلام بعبارة تسيل رقة وسلامة وتستميل القلوب النافرة وترد جماح الضالين وتصلح ما فسد من أخلاق المولدين وتؤثر على فهم كل سامع — تراهم يشددون النكير ويبالغون فى التنديد ويقولون ان هذا الخطيب كليل اللسان جامد القريحة مضطرب الجنان قد استولى عليه العى والحصر وتمنطقت به الفهاهة وأخذته اللكنة — وبدل أن يقولوا ان هذا الكاتب

فى خطه من كل قلب شهوة حتى كأن مداده الأهواء

أصبحوا يقولون ان جناب الكاتب له عبارات لا تخلو عن ركاكة التركيب وجفاء الأسلوب عن الفصيح المألوف فى الكتابة والتأليف الى غير ذلك

ولا يعزب عن الأفكار اندفاع أغلب المصريين الى

التقليد الأعمى من غير روية فى الأمر وتبصر فى عواقبه فتراهم حينما يسمعون هذا الكلام يعضدونه وينصرونه ويميلون عن الخطيب أو الكاتب

انما تنجح المقالة فى المر ء اذا صادفت هوى فى الفؤاد

أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب

وكان للخطابة فى الصدر الأول من الاسلام شأو جليل ومقام كبير ومكانة خطيرة فاذا خص الخلفاء والأمراء والعلماء أنفسهم بالوعظ والزجر عن الشهوات والمحرمات والمنكرات والمنهيات — ولعمرى أنهم قاموا بها حق القيام وتأثرت بخطاباتهم الجموع وفعلت فيهم ما لم يفعله السيف حتى رجعوا الى طريق الهدى والرشاد وقام بها من بعدهم الخلف الصالح وشغلوا أنفسهم بهذا الموقف العظيم فحافظوا على الأخلاق الشرعية والعوائد المستحسنة — وياحبذا لو دام ذلك فقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وتهاونوا فى أمر هذا الموقف الخطر ولم يكثر ثوابه فاسترسل الناس نحو شهواتهم غير منقادين لواعظ ولا كاتب فبدلت نعمة العظمة والظهور بنقمة التأخر والخمود — وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاء

ما فرطوا فى جانب الخطابة والوعظ جـزاء استنكافهم من القيام بهذا الأمر النافع واشتغالهم عنه بمصلحة أنفسهم والتفرغ لاغتنام لذاتهم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) فصار الناس كالأنعام ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يسمعون النصائح النـافعة ولا يبصرون الغي من الرشد — ففقدوا الاحساس الوطنى وتفرّقت قلوبهم وانحلت عزائمهم وخمـدت نار حميّتهم . ارادة الله التى أرادها لا محيص عنها ولا مناص منها ولا راد لها

اذا ما أراد الله ذل قبيلة رماها بتشتيت الهوى والتوا كل

أفبعد ذلك نرجو تاثير الخطباء والـكتاب

وكثيرا ما رأينا بعض المصريين يتوجه للمحال التى أعدت للخطابة ولـكن بعد ما يسمع الخطيب ينهى عن خلق قبيح كما اذا نهى عن شرب الخمر مثلا تراه يتمثل بقول من قال — لا تنه عن خلق وتأتى مثله — ويفارق محل الخطابة وهو نادم على ما فرط من ضياع الزمن فى غير طائل ولا ثمرة عادت اليه ويسرع الي محلات اللهو والطرب

وبالجمـلة لا عجب فى عدم تأثير الخطباء والـكتاب

فان الأمة اذا استولى عليها الضعف ودخلت فى الهرم بسبب نبذها القانون الأصلى وعدم محافظتها على العوائد الشرعية صمت آذان أفرادها وعميت قلوبهم وتشتت جامعتهم وانحلت رابطتهم تحسبهم أيقاظاً وهم رقود لا يتنبهون بعنبه ولا يردهم عن استرسالهم وراء الشهوات لوم لائم ولا زجر زاجر سنة الله التى قد خلت فى عباده

وانا نأمل فى هذه الأيام أن يحصل احساس لدى اخواننا المصريين وتبث فيهم روح الغيرة فيعملون على ارجاع ما كان لهم من الفخر واحراز ما كان لآبائهم من الفضل وما ذلك على الله بعزيز

٥٠

﴿ فوائد الجرائد ﴾

معلوم أن الجرائد أساتذة قائمة بتهذيب الأمم وبث مالم يعلم من أخبارها ونشر ما خفى من فنونها وآثارها وعليها آثار الاعمال السياسية وتقدم الأحوال المعاشية فهى حياة الأمة العلمية . ومادتها الأدبية . تبشر وتذكر . وتنذر وتحذر وتحدث عن الحوادث الواقعة . وتقدم لك موائد الفوائد النافعة

فتهديك الى منافع كنت بها حفيا . وتبدى لك ما كان عنك خفيا. وتهدى طرائف الأخبار. وظرائف الأسمار. وتكفيك مؤونة الاستخبار . وكلفة السؤال والاستفسار . وكأنها مجاميع مفرقة . وينابيع متدفقة . أو سفن مشحونة بشحون الأقوال أو قوافل محملة أخباراً عن الأحوال . فهى ألسنة الأمم وترجمان الملوك وجهينة الأخبار . وخزينة ذخائر الأفكار . وصيقل الأذهان . ومرآة حوادث الزمان والسائح الذى يطوف البلاد ويأتيك بأخبار العباد . وأنت لا تبرح من مكانك . فهى للرئيس موقظة . وللمرءوس موعظة . وللتجار سوق بضائع وللصناع معرض صنائع . وللشارى دلال . وللمدعى استدلال ولأرباب الأقلام اعلان وأعلام وللمؤرخين مجمع وقائع وأخبار وللجغرافيين استكشاف خطط وآثار

وبالجملة يكون الانسان بها مطلعا على وقائع مصره . عارفا بما تجدد بين بنى عصره . من حوادث الزمان . وعجائب عالم الامكان . وما هو صائر فى الممالك المتمدينة. ودائر بين الملوك المتمكنة . وما هو جار بين الدول المتفقة . والملل المتفرقة . من عهود تجدد . وشروط تؤكد . وآثار تغير . وصعاب تيسر

وما بينهم من نزاع ومقاتلة . وخداع ومخاتلة . وسكون وهدنة وحركة وفتنة . وماحدث فى أحوال التجارة . وأمور السياسة والادارة. وما أبدته فحول العقلاء فى مجامعها. وما أسدته عقول النبلاء من بدائعها. وماظهر من روائع الصنائع وعوارف المعارف وطرائف اللطائف . ويعرف العوائد مذمومها وممدوحها ويميز الآراء راجحها ومرجوحها . فيجتنى ثمار الأفكار ويقتنى محاسن الآثار . ويكون كأنما طاف مشارق الأرض ومغاربها. وجرب جميع الأمور ودرى عواقبها . فلا تكاد تنزل بساحته حادثة الا وقد أحاط علمه بنظيرها .وعرف غاية مصيرها

٥١

﴿ فوائد الاقتصاد . وما يترتب عليه من الاسعاد ﴾

معلوم أن حاجة الأمم الى المال كحاجة الجسم الى الغذاء فكما أن الغذاء حياة الجسم وقوامه فكذلك المال حياة الأمم ولا قيام لها الا به وكما أن الغذاء اذا كثر فى الجسم عن الحاجة واستعمل منه فوق القدر اللازم كان مضراً بالجسم وسببا فى ضعفها واضمحلالها وسقوطها فى مهاوى الذل والاحتقار وليس ذلك قاصراً على الأمم فقط — بل الأمم والشعوب والقبائل

والعائلات والأفراد فى ذلك سواء — وفى المشاهدة أكبر دليل ولا ينبئك مثل خبير فكم من مسرف رأيناه قلّ بعد الكثرة وذلّ بعد العزة . وافتقر بعد الغنى . وأهين بعد التعظيم . وقلّ اعتباره وكثر احتقاره . وذهبت هيبته . وانحطت قيمته — وكما أن الاسراف والتبذير موجب للخراب والدمار كذلك البخل والتقتير موجب للذم واللوم والعار — فالواجب اذاً استعمال الحد الوسط والتباعد عن طرفى الافراط والتفريط فى التصرف فى الأموال قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا) وقال تعالى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى (ولا تبذر تبذيراً ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) وقال تعالى (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة)

وبالجملة سوء التصرف فى الثروة يجلب الخراب بخلاف الاقتصاد فانه يجلب الرفاهية والسعادة وكم خرّب التبذير بيوتاً عامرة وبدّد ثروة وافرة وكم أزل أميراً وصغر كبيراً وكم أغنى

التدبير فقيراً وأعز حقيراً وجعل العبد أميراً

قال الأصمعي سمعت بعض العرب يقول (من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر) وقال عبد الله بن جعفر (كمال المرء في خلال ثلاث معاشرة أهل الرأى والفطنة ومداراة الناس بالمعاشرة الجميلة والاقتصاد من بخل واسراف)

أنفق بمقدار ما استطعت ولا تسرف وعش عيش مقتصد
من كان فيما استفاد مقتصداً لم يفتقر بعدها الى أحد

وقال آخر

توسط بين تبذير وبخل ولا تسرف بما تلقاه نزرا
فان النذر يمسى بعد حين اذا لم يمن بالاسراف وفرا
وان الوفر في الدنيا ببخل وتقتير يريك اليسر عسرا
وكن في حالة تزداد فيها لدى الأقوام مرتبة وقدرا
وخير الناس مقتصد لبيب تفرّد في الملا بحثاً وخبرا
وكن في كل أمر ذا اعتدال فرب حلاوة تؤذيك ضرا
فما من باخل أحياه مال وما من مسرف يعتز دهرا

***

٥٢

﴿ اذا رزقتم أموالا عظيمة فقيم تصرفونها ﴾

لا ريب أن المال روح تحيي به أجسام الممالك وسراج يضيء به ظلام الخطوب الحالك وسلطان قوي الشوكة والبطش شديد العزيمة والبأس تذلل به الصعوبات وتحل به عقد المشكلات وتتصرف صروف الزمان وتقام معالم الأفراح والأحزان وعليه قوام الصنائع وابراز مكنونات العلوم وهو كشاف للمخبآت وفك طلاسم الفنون ونجاح الاختراعات والمشروعات وعليه قضاء الحاجات في جميع المهمات فأي شخص رزق مالا لحظته السعادة وامتدت عليه غصون السيادة والتفت الناس حوله وأصبح الكل أهله وتشرف الكل بالانتساب اليه والسعي في التقرب لديه

ان قل مالي فلا خل يصاحبني ... ان زاد مالي فكل الناس خلاني

فكم عدو لاجل المال صاحبني ... وكم صديق لفقد المال عاداني

هكذا يكون المال مجد الحياة وعز الممات

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

ولكن ذلك اذا كان مصروفا فيما يعلي عقبة المجد ويرفع صرح

العزة فاذا أنفق فى الأعمال المبرورة والمشروعات النافعة كان زينة لصاحبه فى حياته وحلية وجمالا وسعوداً فى مماته وجلالا ولكن اذا كان الشخص عنده خزائن قارون وخضع له المال ولم ينفقه فى اقامة معالم المدنية الصحيحة كانشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات وكل ما يقيم أود الراحة ويرفع بناء العمران فانه يكون عليه شراً من الفقر ومجلبة لخزيه وعاره ووسيلة لذلته وشقائه لأن الناس انما يتوجهون الى ذى مال طمعاً فى نيله وحبا فى الحصول عليه وينال شهرة عظمى ويقترن اسمه بالعلا قال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) وقال تعالى (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم)

وبالجملة المال زينة الحياة الدنيا والنفقة الى الدار الآخرة فيلزم صرفه فيما يكسب الانسان المجد حياً وحسن الذكر ميتا ولا تنفع الأموال ولا العقارات ولا التجارات ولا غيرها بغير علم وأدب يهذب الأخلاق ودين يقرّب الى الرب الخلاق

وعلى وجه العموم يصرف فى كل ما يعرض لك عمله

ولا يكون خارجا عن حد الشرع والكمال والاعتدال

٥٣

﴿ المرأة أستاذ العالم ﴾

قسمت العناية الآلهية جميع الأعمال المثمرة على أفراد الجنس البشرى حسبما أوجدته فى كل من الصفات والأمزجة وذلك مراعاة لما تقتضيه سنة التقدم وضمانة مصالح العباد من الوقوع فى الفوضى والاختلال الناتجين من قيام أحدهم بأمر ليس فى استطاعته عمله

وعلي هذا القياس قد وزعت الأعمال على الفريقين الكبيرين المكونين للجنس البشرى وهما الذكر والأنثى فاختص كل فريق بالعمل الذى يلائم مزاجه وقوته ومقدرته الى غير ذلك من الصفات التى أوجدها الخالق سبحانه وتعالى فيه — وكان نصيب الرجال من هذه القسمة جميع الأعمال التى للمجهودات البدنية فيها المكان الأول من حرث الأرض وزرعها الى الدفاع عن حومة المجتمع الذى يعيشون فيه وهو الوطن واختصت المرأة لضعفها فى القوة الجسمانية ولما أوجد الله فيها من صفات الصبر والاخلاص ورقة القلب ودعة

الأخلاق بأمور لهذه الصفات فى اتمامها حظ وافر . وهذه الأعمال كثيرة جدا منها ما هو واجب عليها نحو زوجها اذ يلزمها أن تسهر على مصالحه وتكون رسول السرور اليه وتشاركه فى جميع مشاغله وتطرد عنه الهموم والأحزان وتريح خاطره من النظر الى الأمور والمتاعب العائلية ليكون عنده الوقت الذى يتفرّغ فيه هو أيضاً للقيام بواجبه خارج المنزل أما أهم واجباتها فى نظر الأمة فهو ما يخص أولادها لأنها مكلفة بمراعاتهم والقيام بشئونهم فى مبدأ حياتهم أى فى الوقت الذى يحتاجون فيه الى عناية كبرى لضعف أجسامهم وعقولهم فهى التى تنظر فى أمورهم الصحية فتحافظ عليهم وتراقبهم خوفا عليهم من الأخطار التى هم معرضون لها من صغر سنهم وهى المكلفة أيضاً بتلقينهم المبادئ الأولية التى تبنى عليها حياتهم الأدبية فى المستقبل فتعودهم على محبة الفضيلة واحترام الحق وعلى كره الرذيلة ومقت الباطل وتلقن فى عقولهم الصغيرة التى تحفظ أول ما تسمعه أو تراه الصفات والأخلاق التى تؤهلهم متى كبروا للقيام بواجباتهم بصفتهم أفراداً من أبناء الأمة — فواجب المرأة عظيم ومسؤوليتها كبرى لا تقل عن

مسئولية الرجل خطارة وأهمية ان لم تزد عليه لأن على عملها تتوقف حياة الأمة أو مماتها ولأن ذلك الرجل الذى ينكر عليها هذه المسئولية لم يصل الى ما وصل اليه من قوّة الجسم والعقل الا بسعيها المتواصل وعنايتها التى تبذلها فى تربيته وتعليمه وهو صغير —ولو أنصف الرجل الحقيقة وأنصف المرأة معها وقدر عملها فى الهيئة الاجتماعية حق قدره وطرد من مخيلته المزاعم الباطلة التى علقت بها من كلام السلف واستبداده وغروره لطأطأ رأسه احتراما لذلك المخلوق العجيب

المرأة وما أدراك ما المرأة هى ملك السعادة الذى يهبط على الزوج الحزين البائس فيفرج عنه كربه ويطرد جيوش الحزن والهمّ والتعاسة التى تنتابه لما عندها من حسن الأسلوب ولمقدرتها على تصريف الأكدار والهموم فتجعل من البؤس سعادة ومن الحزن سروراً — هى التى تقول للرجل أبعد عنك ما أنت فيه من الغم والحيرة وأخرج لعملك سعياً وراء رزقك ودعنى أنا أقوم بهذه الأمور فيخرج هذا ساعياً مجداً مجتهدا فتكسب الأمة من ثمرة سعيه

المرأة هى احدى العاملين فى زيادة الجنس البشرى وتقويته

ووظيفتها فى هذه الجهة كوظيفة الرجل بل أكبر وأشد صعوبة لأنها تتحمل الآلام والأمراض فرحة مسرورة فى أيام الحمل ووقت الرضاعة ولا يشاركها الرجل فى شيء من ذلك

المرأة هى التى تقوم بتربية هذه الأطفال وبمراعاة صحتهم وهى التى تدرّ بهم وتمرنهم على المشى والحركة وتغير ملكتهم البهيمية التى ولدوا عليها فتجعل منهم أناساً أصحاء أقوياء عقلاء قادرين على العمل والسعى — ولوشاءت لحرمت الأمة منهم باهمالها شؤونهم وتركهم هم وشأنهم بلا رقيب

المرأة هى الساعد الأول والمرجع الأكبر لهؤلاء الأطفال متى شبوا فهى التى تسرى عنهم أحزانهم وتجلى كروبهم وتشجعهم على تحمل المصاعب وتحفظ أسرارهم وتنعشهم بالأمل الذى تبثه فيهم

المرأة هى طبيب أولادها وممرضة زوجها اذا اختل ميزان صحتهم فتعودهم وتسهر بجانبهم تقضى لهم حوائجهم وهى التى تعنى باصلاح الفاسد وترميم العاطل من أمورهم فيكون لهم من عملها رأس مال كبير

المرأة هى ذلك المخلوق الذى ملئ حبا وحنانا تعرف

المعروف وتكافئ فاعله عليه أضعافا وتغضى عن السيئات التى توجه اليها — يتغيب الزوج عليها وهى صابرة على بعده قاضية جميع ما يطلبه منها حافظة له حق العشرة . يخوفها كل يوم ويدوس على حرمتها وهى تمر على عمله مر الكرام مع ما تتحمله فى ذلك من المعاناة والشقاء

المرأة هى المصباح الذى يضىء الحياة بنوره

هذه هى وظيفة المرأة فى الحياة وذلك هو العمل الذى يجب أن تقوم به فى المجتمع الانسانى — ولعمرى أنها وظيفة عسرة الخطة وعمل صعب المزاولة يحتاج الى صبر لا يطيقه الرجال ولا أظن أن هناك من ينكر أهمية تلك المهمة التى يجب أن تقوم بها لأنها هى الأساس الذى يبنى عليه حاضر الأمة والمعيار الذى يقاس به مقدار التقدم والرقى والحضارة التى يمكن أن تصل اليها فى المستقبل - فلو فرضنا أن النساء تعمدن التقصير فى واجبهن وتوانين فى أداء مهمتهن فسد نظام العائلة وصارت حياة الأفراد المكونين لها نقمة عليهم لا نعمة لهم لما يقاسون من اختلال هذا النظام ولا يطول الزمن حتى تنعكس مضار هذا الاختلال على الأمة فيصيبها منه داء الفوضى

الذى لا تقوم لها قائمة من بعده . ولو أهملت الأمهات تربية
أولادهن ولم تعتن بصحتهم شبوا ضعافا معرضين للأمراض
والأوبئة فلا يصلحون لعمل من الأعمال ولا تستفيد منهم
الأمة لأن العقل الحكيم فى الجسم السليم ولأن المرض يشغل
الانسان عن كل عمل آخر — لو تغافلت الأم عن أمر تأديب
أولادها وتنبيههم الى الضار والنافع فى صغرهم صاروا متى كبروا
سيئى الأخلاق فاسدى التربية قبيحى السيرة منهمكين فى
اللذات البهيمية لا يعرفون من معنى الحياة أكثر مما تعرفه
الحيوانات فيذهبون بالأمة مذهبهم ولا يطول الزمن حتى
تتلاشى من الوجود — ولكن رب معترض يقول بأن انشاء
المدارس وتشييد دور العلم يغنى عن وظيفة المرأة اذ أن المدارس
كفيلة بتهذيب أخلاق الطلاب ومراعاة صحتهم وهذا
الاعتراض مردود من نفسه لأن التربية شىء والعلم الذى
تلقنه الأساتذة فى المدارس شىء آخر ولا يمكن لدور العلم أن
تقوّم بعد اعوجاج أخلاق أحد الطلاب اذا كانت فاسدة فى
الأصل وان هى أرادت أن تسعى فى عمل من هذا القبيل كان
مثلها مثل الرجل الذى يريد أن يقوّم جذع شجرة بعد أن كبر

فيستعصى عليه تقويمه وينكسر الجذع . والسبب فى أن المدارس عاجزة عن بلوغ هذه الغاية أن الطالب لا يمكن أن يذهب اليها الا بعد أن ترتسم فى عقله صورة أخلاق أمه وما عوّدته عليه مدّة اقامته معها فلا يمكنه أن يمحو هذه الصورة من مخيلته وتبقى معه ماشاء الله أن تبقى حياته معه — وقد يعترض علينا آخر بأننا نبالغ فى أهمية عمل المرأة ونزيد فى تقدير كفاءتها والحقيقة أننا المقصرون وانما نشأ هذا الظن لأننا لا نتصوّر تأثير الأم العاقلة على أولادها من جهة وعلى زوجها من جهة أخرى ولأننا لا نحلم يوما بأن امرأة تترك أولادها الذين فى سن الرضاعة ليقوم الرجل بتربيتهم وبالعناية بهم ولا يمكن أن نقدر هذا العمل الا رجل متوسط الثروة أو ضعيفها توفيت زوجته وخلفت طفلا لبيناً واذ ذاك يجب أن نتساءل ونبحث فيما اذا كان عنده الوقت الكافى والصفات اللازمة لتأدية تلك المهمة الشاقة

يظهر مما تقدم أن عمل المرأة هو الأساس الذى يبنى عليه مستقبل الأمة الذى يرتكز عليه حاضرها . بقى علينا بعد هذا البيان المجمل أن نبحث فيما اذا كانت المرأة المصرية تقوم

بالواجب عليها أم هى مقصرة أوجاهلة هذا الغرض . وليس الجواب علي ذلك صعباً لأن مشاغل النساء المصريات معروفة وأعمالهن لا تخفى على أحد منا . فالمرأة عندنا احدى اثنتين فلاحة قروية أومتمدينة حضرية . فأما الأولى فانها لا تعرف من الحياة ولا تفقه من فوائد المعيشة شيئاً . وجل ماتعتقده أنها انما خلقت لتكون وسيلة للذة الرجل وشهواته خادمة له وعبداً عنده بل أن مرتبتها لا تزيد عن مرتبة الحيوان الذى يحرث به الأرض وهى مرتدية بلباس من الجهل أسود من الثوب الذى تلتف به عادة — واعتقادها فى القضاء والقدر عظيم وعليه فان عمل الانسان وسعيه فى نظرها لا يمكن أن يجلب نفعاً أو يدفع ضررا فاذا رزقها الله بمولود تركته وشأنه بدون عناية ومراعاة — واهتمامها به قاصر على اعطائه ثديها كلما بكى فاذا شبع فانها تدعه يحبى على التراب عارى الجسم يتقلب فى الطين والأوحال التى كثيراً ما يوصلها الى فمه متى جاع وغفلت الأم عن صريخه وبعد أن يأكل هنيئاً مريئاً يحس بحرارة الشمس التى تؤثر على دماغه فيفرك عينيه بيديه الملوثتين بالتراب والطين ثم يقع فى سبات عميق وسط الطريق يقوم بعده مريض

العينين لا يرى الا هزيل الجسم ضعيفه ومتى قدر على المشى انضم الى الأولاد الآخرين فيكتسب منهم كل قبيحة ويزيد فى تربيته الأدبيه ما يراه ويسمعه كل يوم بين والده ووالدته من الضرب والشتم والرفص واللكم الذى يبدأ الزوج بزفه الى زوجته صبيحة ليلة العرس

وأما الثانية فانها لا تزيد فى التربيه والمعارف عن الأولى الا أنها قد تكون أسوأ من تلك خلقاً وأكثر اهمالا لو لاحظنا أن الأولى تقوم مقام زوجها فى كثير من الأعمال الخارجية عن المنزل وأما هذه فليس عليها واجب آخر — ومن الأسف أنها لا تصرف وقتها فى عمل مفيد بل أنها تترك أولادها مع المرضعة التى لا تعرف ان كانت حسنة الصحة أو رديئتها ثم تسلمهم الى الخدم فيشبون منحطى الأخلاق ناقصى التربية الاستقلالية مرضى أو معرضين للمرض

هذا هو حال المرأة المصرية وتلك هى أعمالها وبديهى أنها حال لا ترضى أحداً لانها تهدم نظام العائلة وقدكان من نتيجتها انحطاط المصريين وتأخرهم فى معترك الحياة ففقدنا الاستقلال السياسى والأدبى والاقتصادى لأن صفات الثبات

والشجاعة والاقدام ورباط الجأش والمؤازرة والمؤاخاة تلك الصفات التى يكتسبها الطفل مما تعوّده عليه أمه لاأثر لها فى نفوسنا فصار المصريون وهم يزيدون عن اثنى عشر مليونا آلة تعمل لفئة قليلة من الأوروبين وغيرهم لاتبلغ اثنى عشر الفا وهى نسبة مؤلمة

وقد نتج من جهل المرأة أيضاً انحطاط الآداب انحطاطاً مرعباً بين الشبان والشبوخ فلا نشغل أوقاتنا الا بالتافه المضر من الأمور فانتشر الحسد بيننا وصار كل منا ينصب أحبولة لجاره يوقعه فى شباكها ونخاصم الأشقاء وننافر الأحباء وانتشر الكسل بيننا انتشاراً أقعدنا عن السعى وكسب المال من موارده الشريفة وتمكنت من عقولنا الخرافات والبدع فصرنا أضحوكة فى أفواه الغربيين وتركنا العمل بديننا وبالآداب التى يأمر بها غير مكترثين بغضب الله وسخطه فوقعنا فى تلك الحال السيئة التى نحن عليها اليوم

أما آن الوقت الذى يقوم فيه عقلاؤنا والمتنوّرون منا بالاصلاح الواجب . أما آن لنا بعد كل ذلك الزمن الطويل الذى نخر فيه الجهل عظامنا أن نقوم قومة واحدة فنعالج

ما نستطيع من أمرنا . أما آن لنا أن نقرّ ونعترف بمركز المرأة وبالعمل الذى يمكن أن تقوم به فلا ننظر اليها نظرنا الى العبيد والخدم . ألم يحن الوقت لنقوم بتربيتها وتأهيلها لكى تكون زوجة صالحة عاقلة فنكون قد أنصفناها وأنصفنا أنفسنا لعمرى أن الحق واحد لا يتغير ولكنا نغالط أنفسنا فيه — نقرر اليوم أمراً ثم ننقضه غداً ونتعامى عن النظر الى الحقائق فلا نريد أن نثبت ما للمرأة من الحق فى التعليم ونحرمها منه ثم نطالبها بعد ذلك بتربية الأولاد والعناية بهم وبايجاد السرور والحياة فى المنزل وهى مهمة لا يقوم بها الا من نال حظاً وافرا من العلم والتربية

وليس أغرب من قول الذين أعماهم الغرور والاستبداد فادعوا أن مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق هادم لنظام الحياة مفسد لآداب المرأة وهو زعم باطل لا سبب له الا الوهم والجهل الذى نشأ عليهما الرجال والا فكيف يمكن الجمع بين التربية وفساد الأخلاق وهما ضدان اذا وجد أحدهما بطل الآخر طبعاً . ولعل الذين يزعمون ذلك يستدلون علي صحة دعواهم بما يشاهدونه من تهتك الفتيات اللائى نلن قليلا من

التعليم فى احدى مدارس القاهرة أو الأقاليم . وهنا يجب أن يحوّل نظر هؤلاء مرة ثانيـة الى أن التربية والتعليم شيئان مختلفان وان القليل الذى نلنه من العلم هو قشور ولو أن هؤلاء البنات تربين فى أحضان أمهاتهن تربية صحيحة مبنية على الآداب التى يأمر بها الدين الحنيف لتمكنت من قلوبهن أسباب الفضيلة ولما كنا نرى لهذا التهتك الذى يعيبونهن به أثراً بل لرأينـا منهن مثالا حياً علي صدق مانقول . أما الغربيات اللاتى يهمس القوم فى المجتمعات علي آدابهـن فانهن من الطبقة السفلى فى بلادهن وأكثرهن لا يعرفن لهن أبا ولا أما وقد نزحن الى مصر طلباً للثروة فنلنها بطرق خسيسة أو شريفة ثم «اشترين» بها زوجا ليس له هم فى الدنيا الا حب المال وما أكثر الذين يعبدونه بين الناس . وأرى بعد ذلك أن دعوى المدعين بأن تربية البنات تفسد آدابهن دعوى باطلة ولا أجدمانعا أبداً بعد ما عرفنا مهمتها وعملها فى تقدم الأمم من مساواتها بالرجل فى حقوق العلم والتربية عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فرض علي كل مسلم ومسلمة)

***

٥٤

﴿ أذكر طرق المعيشة واختر لنفسك منها طريقا ﴾

يوجد بين كل الناس طرق للكسب — منها التجارة وقد تكون جارية مجرى الاعتدال يقصد منها انماء المال ليصرف الربح أو بعضه فى لوازم المعيشة أو يزاد الباقى على الأصل حتى يكثر وتتسع الدائرة فيدخل الى الانتفاع منها أقوام آخرون عمالا لصاحب المال فتعمهم ثروته ويكونون كعائلة للمالك يعنيهم شأنه ويهمه أمورهم فى الحال والاستقبال. وقد تكون التجارة آخذة سبيل الاعتساف لا يقصد منها الا المال وجمعه من أى طريق وجد على أىّ وجه أخذ ويدخل فى هذا القسم المرابون والغاشون فى صنف البضائع ونوعها وجنسها وقيمتها وكثير ما هم فى كل بلاد وكل زمان — وكما أن هذا العمل يتأتى أن يكون من عمل واحد فكذلك يمكن أن يكون من جماعة أو شركة أو طائفة — وكلما كبرت كبر ضررها فى الوسط أو الجيل الذى هى فيه

ومنها الزراعة ولا نخالها يتأتى فيها من حيث ذاتها ذلك التقسيم الذى أمكن فى التجارة لأن الزراعة لا يقصد منها الا

استثمار الأرض واخراج ما فى بطنها من الخيرات بالأعمال وانما الممكن تقسيمها الى مايراعى فيه ذلك المقصد بالجد والبحث عن النافع من الأعمال للوصول الى ذلك المقصد واختيار الأصلح من المزروعات مع ملاحظة مناسبته للأرض والتقليل منه أو الاكثار على حسب حالة الفصول والرواج — والى مايراعى فيه مجرد القوت لأصحاب الأرض بقطع النظر عن تلك الملاحظات وقد يوجد هـذا القسم الأخير فى كل البلاد وان تفاوت فى القلة والكثرة باختلاف الأمكنة فترى المزارعين فى بعض البلاد يلحون على الأرض الحجرية حتى تنبت نبتاً حسناً وينوّعونه كل سنة ويتعمقون فى الأرض أو يجعلون الزرع سطحياً على ما يهديهم اليه العلم وتدلهم فيه التجارب

وبعض الناس قد رزقوا أرضاً من الخصوبة بمكان تصلح لزرع كل شيء ولا نراهم الا عاكفين على زرع صنف واحد أو أصناف معدودة ملازمين فيه طريقة واحدة كأنهم استغنوا بجودة التربة عن الأعمال

ومنها التوظف والخدمة وهذه تنقسم باعتبار الى التوظف فى الحكومات والى الخدمة الخارجة عنها وباعتبار آخر الى مايراعى

فيـه تأدية الوظيفة والخدمة بما لها من الحقوق وما عليها من الواجبات غير ملحوظ فيه الا نفس الوظيفة والخدمـة بقطع النظرعمن تؤدى له وما توصل اليه—والى ما لا يراعى فيه الا مجرد المعيشة والمحافظة على الراتب بصرف النظر عن اللوازم التى لاتقوم الوظيفة والخدمة الا بها — ويوجدمن هذا القسم الأخير كثيرون فى الممالك الا أن عددهم يختلف بتفاوت التربية وتعميمها -- وبتفاوت قيام الرؤساء بملاحظة المرءوسين حق القيام— وبتفاوت العمل على ما أوجبه القانون بلا تفرقة بين الاعاظم والصغار

ومنها الصناعة وقد تكون كالتجارة موجهة الى اجادة العمل وتحسين المصنوع مراعى فيه الربح والنماء وتوسيع دائرة الصنعة من حيث هى ويدخل فى باب الانتفاع بها الكثير من العمال - وقد تكون سائرة الى الاكثار من المال بصرف النظر عن وجهته ومأخذه — ويدخل فى هذا القسم الغشاشون فى المصنوع من جهة المادة أو التمويه وهم كثيرون وان اختلفوا فى الأمم باختلاف التربية العمومية وبتفاوت مراقبة الحكام واحكام النظام وربما اختلف ذلك فى المملكة الواحدة

باختلاف الزمان

وقد يمكن ادخال بقية الطرق المستعملة بجلب الرزق التى فيها وجه الصدق والغش فى تلك الطرق الأربعة فلم يبق بعدها سوى الطرق المحضة للغش والتدليس وهى أكثر من أن تدخل تحت عد أو يحصيها كتاب لأن الناس كلما رأوا منها قديما جددوا فيه بدعا واستنبطوا منه فروعا والحوادث لا تنقطع ولا تنحصر فلا بد من وجود تلك الطرق بدوام الزمان

ولنسرد منها بعض الشىء مما اتخذه أهله طرقا للعيش والموت أحسن من السلوك فيها للمتقين

فمن ذلك طريق التكفف للقادر على الكسب بالعمل وطريق السرقة والاغتصاب وطريق الخدعة والاحتيال وقد يدخل فى الطريق الأخير الدجالون والرمالون وكذبة الدعاة الى طرق يسمونها خيرية وليست منها فى شىء لأنها مناقضة للشرائع الحقة ومنافية للمعقول وقد أمرنا على لسان دعاة الهدى بأن لا نصدق الا بما جاءوا به من النور المطابق للمعقول أولئك أقوام نصبوا الحبائل للبشر والشباك للصيد فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل — الآداب

٥٥

﴿ الناس من خوف الفقر فى الفقر ﴾

يوجد بين كل أمة أفراد حبب اليهم من دنياهم الجمع وكرهو أن تكون لهم يد فى البذل أو أن يكون منهم على الناس طول بل ان منهم من بالغ فجعل نفسه ومن تلزمه مؤونتهم عداد الناس فلم يعطها حقها من الانفاق وضيق على ذوى قرباه من الصبية والنساء فلم ينالوا من سعته غير الحرمان وفقدوا بوجوده كل شىء من الراحة والنعيم وكان بقاؤه فيهم على كره منهم وهولاء عنهم مشغول الفكر بالكنز والتحرز من الضياع منهوك الجسم بما أخذ على نفسه من طريق الكف عن المشتهيات بل الحاجيات والضروريات فما كان أجوده من فقير صابر يتحمل مضض الفاقة ولا يألم لبعده من النعمة ولا يجد من ذاته باعثاً الى اللذة فيعيش فى شظف العيش وقشف الاضطرار قرير العين ناعم البال ولئن ذكر بأن حالته لا تلائم ثروته سخر بالناصح وانتصب مكان الواعظ وأخذ يبين فوائد التقتير ومضار السرف وعدّ كل من حاد عن جدته مجداً فى سبيل الفقر مسرعا الى العوز والاقلال وضرب لذلك الأمثال بمن

أنفق فأملق ومن مال الى التبذير فآل الى التدمير واحتج بالتخوّف من مصيرهم والوقوع فى عاقبة أمرهم

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقر

قال الزمخشرى (لا سرف فى الخير كما لا خير فى السرف) وهذه أيضاً حكمة نستبين بها أن الطرف الثانى للتقتير وهو السرف مضر ضرر الطرف الأول بعينه لأن المسرف وهو من يعطى من ماله ما لا يستحق لمن لا يستحق همه أن يبعثر ما جمع الأولون لغير فائدة ولا فى طريق مصلحة وهو لا يتنعم منه بشىء فى نفسه ولا يستفيد منه من وكل اليه أمرهم من القرابة الشرعيين فهو معهم فقراء فى أنفسهم وان عدهم الفقراء من المثرين ولا يمضى عليه وعليهم زمان حتى يصلوا مصير البائس ومن ضاقت به ذات اليد عن لوازم الحياة بهذه الحالة يتلاقى مع الطرف الأول فى نقطة الاعدام وخسارة المال وقد جعل الله عاقبة الأمرين (التقتير والسرف) واحدة حيث يقول (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)

فرتب الملامة والحسرة على ارتكاب مانهى عنه فى

الجانبين جانب غلّ اليد الى العنق وجانب بسطها كل البسط دلالة على أنهما يشتركان فى شر العاقبة — ولا شبهة فى أن اللوم كما يتجه على من غلّ يده الى عنقه كذلك يتجه على من بسطها كل البسط لأنه لا منفعة فى المال المكنوز كما لا فائدة فى المال الذى يصرف فى غير وجهته وما خلق لأجله من المنافع فى الناس — وكذلك يعدّ كل منهما محروما من ماله ولا بد يوما من مراجعة الواحد منهما عقله فيرى أن لا نفع له فى ماله فتلحقه الحسرة على حرمانه من ماله وضياع حياته سدى فى الجمع أو التفريق والتبديد بدون عائدة تعود عليه فى مآل دينه أو دنياه ويالها من حسرة يخشاها العاقل ويتحاشاها البصير فعاقبة الطرفين واحدة بلا نكران

حدّد الله الوسط بين هذين الطرفين وعينه كل التعيين بآية (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فالسرف والتقتير طرفان والقصد بينهما قوام — وقد حسب البعض أن السرف لا يكون الا بالانفاق فى المعصية اما فى الوسعة الشخصية والمنزلية فلا اسراف — وذهب آخرون الى أنه فى الأخيرة سرف كما هو فى المحرمات وهما رأيان

لا بد بينهما من وسط كما هو بين السرف والاقتار — والعدل فى ذلك ان كل نفقة فى خير علي شريطة بقاء المادة الأصلية للثروة بالغة ما بلغت لا تعد من الاسراف فى شيء أما الخير فقد بينته الشريعة المطهرة ودلت عليه أعمال السلف الصالحين وان الاقتار المذموم هو الامساك عن الانفاق فى هذا الخير ومن باب أولى أن يعد الامساك عن الانفاق فى اللوازم المعاشية تقتيرا شائنا

أنواع الخير الذى أبانته الشريعة المطهرة كثيرة فقد رغبت فى بذل كل ما يعود منه على المنفق أجر ولم تقتصر علي الواجبات كالزكاة فى النقود والزرع والماشية والعروض وزكاة الرقبة بانسلاخ رمضان وكخمس الغنائم وسلب القتيل بل بينت كل ما فيه كرامة خلق وتطبع بفضيلة كالصدقة الجارية والوقف علي نوع مخصوص والتبرع بالاحسان واعانة المحتاج ومواساة الفقير بالعطاء وتعهد الأغنياء للمساكين كلما دعت حاجتهم الى الانفاق — وليس من حاجة لسرد النصوص القرآنية والحديثية والأثرية فانها بين يدى كل من اطلع عليها من الناس ولا خفاء فى فهمها ولا التباس فانها كلها من الصراحة بمكان يدركها معه حتى الأميون

يعدّ كريما ولا يحسب مسرفا شرعا كل من خصص من ماله بعد أداء الواجب من الزكاة المفروضة جزءا لا يضيق عليه معيشته للصدقات وله أن يجعل بذله لطائفة مخصوصة من الناس يعين صفاتهم ويجريه عليهم ما شاء من الزمن أو طول الحياة ويكون مقترا ارتكب ما نهى الله عنه ان كانت عنده تلك السعة وخصصها لنفسه ولم ينتفع منها أحد سواه فانه ربما جرّ ذلك الي التقتير على نفسه ومن هم عالة عليـه فوقع من خوف الفقر فى الفقر وان خاف من نسبته الى الاسراف فلا سرف فى الخير

يعتبر مقتراً ملوما كل من منع المستحق ما يستحق من المال كأن علم بأن فى جيرانه أوأهل محلته أو بلده بائساً كبرت عليه نفسه فتعفف عن ذل المسألة الحافا فبات فقيرا ثم لم يواسه بما يقدر عليه من طعام أو مال يسد خلته ويدفع حاجته أو كان علم بأن فى أولئك من كان غنيا فدهمه القضاء بما لم يكن فى الحسبان فأمسى وهو فى مصاف الفقراء ثم لم يبادر الى نجدته بماله والسعى بجاهه فى اعلام الأغنياء بحاله حتى يجتمع له منهم ما يجعله رأس مال لحياته فى مستقبل الزمان

أو كأن رأى من أولئك من قضى على عائلهم بالموت
أو ليس لهم بعده من ساعٍ على رزقهم وهم لا يقتدرون عليه
كأن كانوا صبية أو مرضى أو كهولا ثم لم يتعهد أمرهم بماله
وبسعيه فى استنهاض أهل الخير لهم ودعوتهم الى اغاثة أولئك
المضطرين — أو كأن شاهد منهم نسمات من اليتامى تدور فى
الأزقة بلا عمل ولا كسب لقلة ما يجدون ممن يأويهم ويربيهم
ثم لم يسعفهم بالمال وبذل الجاه فى استجماع مايصلح شأنهم من
أغنياء أمتهم ومواطنيهم فى البلاد — كل هؤلاء وأمثالهم يعدون
مقترين وممن يخافون الفقر وهم فيه

النوال والسخاء فى هذا السبيل وأمثاله خير وفضل أما
قصره على المباحات فنقص وجهل — ولأن يبنى الرجل لنفسه
بيتا من المكانة والمنزلة فى قلوب مواطنيه لخير من أن يبنى
بين منازلهم قصراً مشيداً يفسح فيه المدى ويكثر فيه الزينة
ويستجلب اليه البهار فان البيت فى القلوب قوى الدعائم متين
الأساس كلما تقادم عليه العهد زاد رفعة وانفساحا وذلك القصر
وان بناه بالاحكام حتى كان كالاهرام يبلوه الزمان وما لذته
لصاحبه وهو قذى فى عين الفقير كلما رآه تضجر لحالة نفسه

أما ذلك البيت بيت المواساة والاحسان فهو قرّة عين الفقير ومتنزه البائس والمسكين ومحط رحال المجد والفخار وان زخرفه ليدوم بدوام الناس فى الوجود

ومن الناس من تجده يسهل عليه الانفاق فى الاستطالة بالبناء الزائد عن حاجاته بكثير ولا يهاب المصرف فى مثل الأفراح والمآتم وغيرها فينفق ماله وراء الناس ويجنح الى الخيلاء فى الملبس والمطعم وهو لا يحتاج من ذلك الاالى جزء من عشرات — ينفق هذا وهو مرتاح القلب غير متألم مما يرميه به العقلاء من الخروج عن القصد فى هذا السبيل — ثم ان دعى الى مبرة شرعية تقاعس وكلما أجهد الناصح نفسه وجدّ فى الطلب ازداد تقاعداً وتباعداً وكان هذا حاله فى كل دعوة الى مكرمة تطالب بها مكارم الأخلاق — فما لمثل هذا من دواء ينفعه فى تصرفاته الا الالجاء الى الخير فانه لاينفع معه الدليل ولا يفيده البرهان اذا ارتكز فى دماغه أن عمله هو اللازم وأن غيره من طلاب المآثر الباقية عابث مضيع للمال فى غير طريقه المعتاد فان لم يكن القسر لازمه ناصح وما هو من حيث الوجود بقليل ودأب على تذكيره بالشريعة وتمثل له بآياتها

وأعمال أهلها فعدل عن طبعه ومال الى الخير فعمله وتعوّد بالعمل عليه فتتجه وجهته اليه وان وجد فى الأمة كثير من أولئك وعز على الناصحين تهذيبهم فلا بأس من تركهم والركون الى التربية فى الصغر فانها أقرب للمنفعة وأدنى الى الانتفاع

يعدّ مسرفا شرعا كل من صرف ماله أو شيئاً منه فى محظور لضرورة أو مال فى تصرفه الى الخيلاء والرياء أو أكثر من لوازم الحياة وحاجياتها وزخارفها مقتصراً عليها وتأدى به ذلك الى ضياع المال كله أو معظمه والاحتياج الى الغير بعد زمان وان خرج به تجاوز الحد الى الاستدانة لستر الحالة كما يفعله الكثير كان من السفهاء المغرورين وربما كان من اللازب أن يقوم عليه قيم يدير له شؤون المال ويتصرّف بما فيه المصلحة لئلا يتكاثر الدين وهو فى غفلته فلا يصحو الا وقد نفد الرزق أجمعه وأصبح من المقلين وتلاقى مع طرف التقتير ونادى عليه حاله والناس لا خير فى السرف بحال من الأحوال — الآداب

٥٦

﴿ فوائد صناديق التوفير ﴾

ان من أهم ما يجب أن تصرف اليه العناية هو غرس

مبادئ الاقتصاد والتوفير فى نفس الأولاد من الصغر حتى ترتاح اليه نفوسهم عند الكبر

ولا شك أن صناديق التوفير عظيمة الفائدة فى كل بلاد أنشئت فيها وعلى الخصوص فى البلاد التى تكون فيها أبواب التبذير واسعة فعلى كل عاقل يسعى فى وضع كل مايتوفر لديه فى احدى صناديق التوفير المنتشرة فى أنحاء القطر ولا يخجل من قلتها فان القليل مع القليل كثير

قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

ولا بد من يوم يجد فيه مبلغاً يقوم بحاجاته بل بمعيشته بل الخجل الأعظم هو عدم وجود مال متوفر لديه مع شدّة حاجته اليه قال الامام أبو بكر « انى لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام فى اليوم الواحد » وقال بعض الملوك (أفضل أن أرى رعاياى يضحكون على بخلى من أن أراهم يبكون من اسرافى) ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر وطاب نفساً بالذل

وأسباب الاقتصاد عديدة ومزاياه مفيدة وفوائده جمة

وعوائده عامة فان الأموال المقتصدة تنفع صاحبها عند وقوعه في الحاجة (الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود)

وقال الشاعر

ان الدراهم فى المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهى اللسان لمن أرادفصاحة وهى السلاح لمن أراد قتالا

فأنعم بهذا المشروع الذى وسع ما ضاق وكبر ما صغر ووفر ما زاد ويسر ما تعسر وشرح صدوراً كانت منقبضة وساعد أناساً هم فى حاجة الى المساعدة بلا مقابل ولا أجر — ولله درّ من شرع ومن تمم ذلك العمل . العظيم القدر . الكبير النفع . الجليل الوضع

وبالجملة الناس طوائف فمنهم الأغنياء الواسعو الثروة الذين اذا لم يعيشوا بالترف الزائد لم يمكنهم أن ينفقوا دخلهم كله وهؤلاء يكفيهم أن يعتدلوا فى نفقاتهم حتى لا تزيد على دخلهم والا فان أسرفوا كثيراً لم يسلموا من الفقر -- وان اقتصدوا كثيراً جمعوا مال الدنيا وأوقفوا حركة الأعمال وغلوا أيدى أهل الصناعة والتجارة وكلا الأمرين مذموم — ومنهم الفقراء والأواسط الذين اذا عاشوا بالحكمة والتدبير لم يزد

دخلهم على نفقاتهم الا قليلا وهم الفريق الأكبر من البشر فهؤلاء يجب عليهم الاستعداد للعطلة والمرض والشيخوخة بذخر النقود عند مسيس الحاجة اليها — وذخر النقود فى البيت قلما يفى بالغاية المطلوبة وربما تنفق على غير حاجة شديدة وذخرها فى البنوك الكبيرة متعذر لأن هذه البنوك لا تستلم الا المبالغ الكبيرة وتحبس فيها نصف سنة على الأقل ـ فاذا مست الحاجة واقتضت الحالة وضع صناديق التوفير لذخر ثلاثة أو خمسة قروش أميرية للفقراء من العمال وغيرهم لجاءت بفائدة عظيمة وأصبحت من أفعل الوسائط لتهذيب الناس وردعهم عن الشرور وجعلهم من الذين يحسنون صنعاً

٥٧

﴿ هل الفوائد الناتجة عن تأليف الشركات فى بلادنا من الأجانب مشتركة بيننا وبينهم أو عائدة عليهم فقط ﴾

من أنعم النظر فى أحوال الأمم الأوروباوية وتأمل فى أمور الجمهوريات الأمريكية والمستعمرات الأوسترالية وسبر غور هذه الأمم بمنظار الانتقاد وبحث فى أحوالها وأطوارها بتأمل وافتقاد تجلت له فى أحسن جلباب وظهرت

له حقائقها بغير حجاب واتضح له جليا أنها نالت قصب الرهان في مضمار التمدن والعمران وفازت بأمانيها من اتساع نطاق الحضارة وتقدّم الصناعة والزراعة والتجارة فنشأ عن ذلك اشتراك المنافع بين الأمم واشتباك فروع التجارة بين جميع الحكومات والملل بتأسيس الشركات

أنظر الى الشركات الدولية كشركات السفن البخارية والسكك الحديدية والأسلاك البرقية وما أفادته من تسهيل المواصلات وتقريب المسافات فقطعت الفيافي والفلوات واخترقت الجبال والآكام والصحراوات وكثر انتقال الأفراد الى كافة الممالك والبلاد على أحسن أسلوب وأتم نظام مما هو مشاهد بالعيان في كل محل ومكان

وانظر الى الشركات التجارية وما فعلته يد المنافسة في البلاد الغربية يندهش لبك ويتحير فكرك

وانظر الى الشركات الصناعية وما وصلت اليه يد الصناع من المصنوعات التي عمرت جميع البقاع

وانظر الى الشركات الزراعية وما وصلت اليه في تلك الأقطار مما يدهش الأبصار ويبهج الأنظار فما غادرت شبر

أرض فى تلك البلاد الا وأخصبته حتى منحدر الجبال أصبح رياضاً وبساتين يسر الناظرين ولا يبعد أن تستخدم قممها وذراها من غرسها وبنائها فتقدمت الأراضى تقدما باهراً وصار الفدان الواحد يساوى مبلغا وافرا ضعف ما كان يساويه قبلا مرتين أو أكثر وهكذا بقية الشركات التى غيرت نظام الهيئة الاجتماعية وأوجدت المنافسة فى كافة المشروعات التجارية والصناعية وجعلت جميع الأفراد مشمولة بالمنافع العمومية ونشرت بينهم روح الحضارة والمدنية وصار الكل يشتغلون ويربحون ويكسبون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

٥٨

﴿ وصف روضة ﴾

بينما كنت سابحا فى بحار العمل اذ حصل فى نفسى فتور وملل وصدأت مرآة الجنان وسئمت القوى والأركان ونبذ القلم البنان وكلت الأفهام والأذهان وصار اللسان أصمت غير ناطق فسرت أحدق فى جوانب الحدائق فاذا أنا بروضة واسعة الأرجاء فسيحة الانحاء تحار فيها الأبصار وتقصر عن وصفها الأفكار ترابها من مسك وكافور وحصباؤها

الدر النضير قد فاح أرجها وأضاءت سرجها جنة عالية قطوفها دانية وطلحها منضود وظلها ممدود وأعلام أشجارها مرفوعة وفا كهتها كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة خضرة نضرة أنيقة طلولها وديقة وأغصانها وريقة ذات ألوان وأفنان وأكمام وأكنان وثمرات حسان قد فاح الطيب من مجامر أزهارها وصاح خطيب العندليب على منابر أشجارها وترنم البلبل على العيدان فمايل تمايل النشوان أو القيان الحسان وقد ملئت من أنواع الأزاهر وألوان النبت الباهر بدرّ وزبرجد وفضة وعسجد تجوس المياه خلال ديارها وتشرق بآفاقها أنوار أنوارها وبرز أبريزها وحسن تطريزها وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت عاليها من رونق الورق المونق ثياب سندس خضر واستبرق فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين من أثمار ذات بهجة وأزهار تنعش المهجة فتحلت بما يروق لسان كل انسان وتجلت فى رفرف خضر وعبقرىّ حسان

فى روضة غناء غناها الصبا فترقصت طرباً غصون البان

ومن نظر الى ما فيها بعين الحقيقة وسرّح بصره فى هذه

الروضة الانيقة لشكر أيادى صانعها ولجأ اليه وأثنى على صائغها وان كان لا يحصى ثناء عليه وقال تعظيما لقدره (وما قدروا الله حق قدره) وانشرح صدرى بالوقوف على مغانيها وجاد فكرى حيث جال فى معانيها وامتلأ قلبى من نورها نورا وانقلبت الى أهلي مسرورا

٥٩

﴿ وصف مصر ونيلها السعيد ﴾

لعمرك ما مصر وانما هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها وروضتها المقياس والنيل كوثر

مدينة ذات محاسن فيها أنهار من ماء غير آسن روضة أريضة عيون أزهارها مريضة وأنواع البركات من نهرها مفيضة ونوازع الهموم والغموم بها مريضة كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس فى وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلالة أو سرير ملك نصب فى ميدان أو قلب جيش له مصر والجزيرة جناحان مقرّ العلماء الأعلام والقضاة والحكام كم سكن بها من خلفاء وملوك وأمراء ورؤساء ووزراء وفقراء وأغنياء وكتاب وشعراء تقام فيها معالم العلوم والفنون ونغمات وألحان

وتدريس أفنـان وقضاء أوطار وضرب أوتار كل نفس بما كسبت رهينة وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة فهـذا يسعى فى خلاص ذمتـه وهذا يوقعه القدر فى حبائل جنايته بخيانته قل كل يعمل على شاكلته

بها ما شئت من دين ودنيا　　واخوان تأسوا فى المعانى
فمشغوف بآيات المثـانى　　ومفتون برنات المثـانى
وكم من قارئ فيهـا وقار　　أضرا بالجفون وبالجفـان
وكم من معـلم للعـلم فيهـا　　وناد للنـدى حلو المجـانى
فصل ان شئت فيها من يصلى　　واما شئت فادن من الدنان
ودونك صحبة الأكياس فيها　　أو الكاسات منطلق العنان

قال ابن اياس ان بعض الحكماء وصف أرض مصر فقال: هى فى ثلاثة أشهر (لؤلؤة بيضاء) وثلاثة أشهر (مسكة سوداء) وثلاثة أشهر (زمرّدة خضراء) وثلاثة أشهر (كهرمة صفراء) وذلك لأن أرض مصر يركبها النيل وقت فيضانه فتكون بيضاء من افتراش الماء عليها — ثم تصير مسكة سوداء متى نزل الماء عليها — ثم تصير زمرّدة خضراء وقت الربيع — ثم يصير زرعها أصفر كالذهب

فمن الناس من يسكن مصر ليعدّها عونا على تقواه ومنهم من يعدّها للعبه وملهاه هذا يرعى فيها النجوم ويناجي الحي القيوم وهذا يغفل ليله الى الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم هذا ينظر اليها بعين الفكرة والتبصر فى عجائب القدرة وهذا ليس له منها الا الابتهاج بنضارة الزهرة

رأيت رياض القدس فى روضة المنى على نيل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للناظرين مشارق وفيها وجوه كالبدور البوادر
ويشبه سيب الماء فيها صوارما بأيدى الهنا سلت لسلب النواظر
عليها جلال الله جل جلاله وفيها سرير السر سرّ السرائر

يحيط بأرجائها النيل الميمون فيبرئ من الأسقام عليلا ويشفى من الأوار غليلا

ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتفضيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدّمة والشرح للنيل

فهو حياة الأرواح والأنفاس ويحشر له الناس ويحج فيه الى المقياس وفى الحقيقة هو خلعة رضى ولباس ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل ويركب اليه الملك والجنود ويكون للنـاس من مائه ولونه

المحمر ورود

ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وله فى كل سنة أجل معدود

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعه مخلق تملأ الدنيا بشائره

٦٠

﴿ فوائد النور ومضار الظلمة ﴾

النور حاجة من حاجات الجسم يسر من وجد فيه للحصول عليه كما يتألم لفقدانه فهو يزيد الجسم قوّة ونشاطاً والقلب طهارة والفكر جودة — أنظر الى العصفور فانه يصفو حاله فى النور ويترنم بالحانه ويغرّد بصوته الجميل ويقضى وقته فى سعة من السرور وان حرمه اضطرب لفقده وفترت همته فلا تسمع له صوتا ولا لحنا — قال كبار الحكماء (المحل الذى لا يدخله الشمس يزوره الطبيب) وقال آخر (لابد من طبيب للعائلة والأفضل أن يكون هذا الطبيب نور الشمس) وانظر أيضاً الى النباتات والأثمار فلا تنبت ولا تنضج الا بالنور — فهو أس السعادة وأصل الوجود وسبب النموّ والصعود وعليه مدار

الصحة والصفاء بل هو حياة من فى الأرض والسماء فيلزم الاعتناء بوصوله الى محلات النوم والمطالعة

٦١

﴿ فوائد اللغة العربية ومزاياها على سائر اللغات ﴾

ان للغة العربيـة من الفوائد خزائن لا تنفد وكنوزاً لا تفنى وبدوراً لا تحجب وعيونا لا تنضب ورياضا لاتذرى ولـكن لا يصل اليها الا من غاص بحرها وولى وجهه شطرها وسبر كنه أغوارها وجاس خـلال ديارها وجاب نجادها ووهادها وراد مروجها وورد مناهلهـا — ومن المزايا التى تترتب على معرفة العربية وتمتاز بها عن سائر اللغات الاعجمية كونها أوسع من غيرها من اللغات وأكثرها طرقا فى فن الـكتابات وأفصحها مقالا وأفسحها مجالا وأوفقها للنظم طباعا وأطولها فى النثر باعا فيمكن أن يؤتى فى المقام الواحد بدرجات من الاسهاب وأنواع من الايجاز تستطاب الى غير ذلك من أساليب البلاغة والبراعة التى توسع مجال اليراعة

وكونها غـير قابلة للانعدام كغيرها من لغات الأنام لأنه نزل فيها كتاب عربى مبين تلاوته من أعظم العبادات

عند جميع المسلمين فما دام هـذا الدين قائماً كان هذا اللسان موجوداً دائماً بخلاف اللغات الأخرى فليس فيها كتاب يتعبد بمجرد تلاوة كلامه لاعتقاد أربابها أن الترجمة كافية فى بيان مرامه. وقد أوصى أحد فلاسفة الألمان يوماً تلاميذه فقال (اذا أردتم أن تكتبوا فكراً تأمنون عليه كرور الأجيال فاكتبوه بالعربية فان لها دون غيرها من اللغات مزية فقالوا وما مزيتها فقال لأن فى العالم أمة عظيمة العدد ترى من أصول دينها تلاوة كتاب فيها يسمى « القرآن » ولا شك فى بقاء الأديان فى الأمم العظيمة الشان. وحينئذ فلا شك أن هذا الكتاب يبقى ما بقى هذا الدين وأن العربية تبقى ما بقى هذا الكتاب)

وما يطنطن به بعض الناس من قصورها انما هو عن جهل بها أو لغرض يتعسر اخفاؤه وما يعترض به من أن الاستكشافات فى هذه الأعصر كثيرة وليس فى اللغة العربية كلمات للدلالة عليها فاعتراض ضخم فى الظاهر فارغ فى الباطن

وما مثله الا كفارغ بندق خلىٍّ من المعنى ولكن يفرقع

فان باب الاصطلاح ليس مغلقاً فى اللغة العربية مفتوحاً فى غيرها وبالجملة اللغة العربية أليق اللغات وأكفلها بحاجة العلوم

فمن ذلك سعتها فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألف كلمة وعدد كلمات الانجليزية ١٠٠ ألف كلمة (على أن معظم هـذا العدد الأخير اصطلاحات صناعة) وعـدد مواد العربية ٤٠٠ ألف (مادة لا كلمة) وبسبب غنى اللغة العربية وسعتها نجد فيها للمعانى الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل معنى مهما كانت درجـة التفاوت وبذلك لا يكون محل للالتباس أو الابهام فى التعبير اللذين هما آفة العلم والأدب

٦٢

﴿ ما هى الحاجة الماسة لحفظ اللغة العربية الفصحى ومضار هجرها واستعمال اللغة العربية العامية كتابة ﴾

غير خاف أن اللغة العربية رابطة عامة لعدة من الخلائق فى المغارب والمشارق ولحمة عظمى لجملة من الأمم صلتها من آكد الصلات وحرمتها من أعظم الحرم — ولا يكفى فى عقد هذه اللحمة اللغة العامية لأن لكل شعب فيها طريقة خصوصية فلهجة المصريين أو الحجازيين تخالف لهجة غيرهم من المغربيين أو الشاميين فالأمر العام الذى ترجع هذه اللهجات اليه ويعتمد فى مبادلة الأفكار المختلفة عليه هو اللسان الصحيح الشريف

لسان التحرير والتأليف — أجل ان اللغة العربية مفتاح العلوم ومصباح الفهوم وواسطة لادراك ما يجده الانسان ويقع تحت العيون والآذان تجعل صاحبها قادراً على ارسال أشعة أفكاره الى أبناء جلدته فيستجلون ضياء أنواره ولا يجدون فى طريقهم عقبات من العقادة تحجب عن الطالبين مراده — بخلاف من تقاعدوا عن الحصول عليها وتقاعسوا عن تعلمها وصرف الهمة اليها فلا يعرفون قيمتها الا عند الشروع فى العمل ويأسفون حينئذ على حرمانهم من مزاياها بطاعتهم دواعى الكسل ويندمون ولا ينفع الندم حيث زلت القدم

وليس من وسيلة لحفظ لغة أمة أقوى من استعمالها فى التعليم والتعلم ولا واسطة لنماء علم بين أمة ونشر التعليم بين بنيها غير استعمال لغتها — فبديهى أن استعمال أمة لغة غير لغتها فى التعلم والتعليم هو هجر للغتها واماتة لها فاللغات المساة الآن ميتة ما صارت كذلك الا لهجرها

وهناك أمر أشد خطراً وأعظم وقعاً وضررا وهو أنه لما كان السواد الأعظم من الشرقيين هم المسلمون وكان هذا الدين الاسلامى قائما بالقرآن المجيد الذى هو باللغة العربية لزم

لأجل فهمه اللغـة العربية بحيث متى انعـدمت انمحق الدين الاسلامى وهلك السواد الأعظم من المصريين دنيا وأخرى لأن الدين هو ملاك الأمر والعروة الوثقى التى لاانفصام لها

أجل — ان من أحب الله أحب رسوله العربى ومن أحبه أحب العرب ومن أحبهم أحب العربية ومن أحبها عنى بها وثابر عليها وصرف همته اليها فان العرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة — والاقبال على تعلمها من الديانة اذهى أداة العلم وواسطة التفقه فى الدين وسبب اصلاح المعاش والمعاد ثم هى لاحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر مكارم الأخلاق ولو لم يكن فى الاحاطة بمعرفة مبانيها والوقوف على حقائق معانيها وتصاريفها ومجاريها والتبحر فى جلائلها ودقائقها ومجازاتها وحقائقها الا قوّة اليقين فى معرفة اعجاز كتاب الله المبين وزيادة التبصر فى اثبات النبوّة التى هى عمدة الأيمان لكفى بالعربية الفصحى فضلا يحسن أثره ويطيب فى الدارين ثمره

***

٦٣

﴿ فوائد تمهيد الشوارع ونظافتها وانارتها ﴾

مما يستدل على حالة التمدين والحضارة ملاحظة كيفية الشوارع والأزقة — فمن أهم الواجبات افراغ الهمة وبذل العزيمة فى تحسين هذه الكيفية واتقانها — على أنه لا يسمح لهم التمدين قط بترك الشوارع والأزقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط مظلمة الأرجاء قذرة الأنحاء بل يطلب منهم دائما أن تكون مستقيمة عريضة ممهدة البلاط والخط — وذلك لأن الشارع أو الزقاق اذا كان ضنكا يمنع سهولة تجدد الهواء ويعوق امتداد النور الى مخازن الناس أو حوانيتهم فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والأورام ونحو ذلك — واذا كان معوجا فانه يعسر انطلاق خطوات الناس فتعثر أرجلهم وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم وحينئذ يكون السير فى الزقاق عراكا لا انتقالا واذا كان وعراً غير مستو فانه يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالهم الثقيلة فتنهشم حوافرها وتتكسر أرساغها فضلا عن المؤذيات التى تنجم من الشتاء فى تلك الطرق الوعرة

فيؤثر فيها بحيرات من الأوحال تمنع الذهاب والأياب وتقفل للتجار والصناع الأبواب وعندها تقف حركة الأعمال وتتعطل الأشغال وتتجرع الفقراء كأس الذل والهوان ولا يبقى سبيل لسلوك العميان — ومن حيث أن الأقذار والأوساخ لها أشد الأفعال السمية فلا يسوغ والحالة هذه تغافل أرباب التمدين عن ملاشاتها. ويجب الاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للأسواق والشوارع والخاصة للبيوت والمساكن فرارا من تلك التأثيرات الرديئة ومراعاة لحق المدنية

٦٤

﴿ من كمال الشجاعة الحزم ﴾

علي كل حال فاجعل الحزم عدّة   تقدمها عند النوائب فى الدهر
فان نلت حظاً نلته بعزيمة   وان قصرت عنك الحظوظ فعن عذر

اذا أخذ المرء بالحذر والاحتراس فى موضع الشدة وعمل على الجراءة والاقدام عند انتهاز الفرصة وكان بحيلته أوثق منه بشدته وبحذره أشد منه بشجاعته واختلس من يحاربه خلسة الذئب وعرف قبل انتشاب الحرب طريق المهرب فقد أخذ بالحزم فان النفس أقوى ما تكون اذا وجدت سبيل النجاة

وسلامة العافية

ركوبك الأمر مالم تبد فرصته   جهل ورأيك فى الاقحام تغرير
فاعمل صوابا وخذ بالحزم مأثرة   فلن يذمّ لأهل الحزم تدبير

واذا اتسع للانسان المنهج فليحذر أن يضيق عليه المخرج

واذا هممت ورود أمر فالتمس   من قبل مورده طريق المخرج

فان نال الانسان حظاً وسعادة فقد حصل عليها بجدّه واجتهاده بطريق الاستحقاق — وان لم يحصل الانسان على مرغوبه ولم يجنى ثمرة أتعابه ونام عنه الدهر ولم تساعده الحظوظ فيلتمس له عذر بأن الدهر عكسه ورضاه من الغنيمة بعد التعب بالخسارة والفشل — بخلاف من نال أمراً بدون عمل فقد ظفر به بطريق الاتفاق — وان لم ينله فلا يجد من يعذره بل يسمع من يؤلمه ويرميه بالقصور والتقصير

وبالجملة ينبغى للانسان أن يكون الحزم قائده والتبصر رائده والتدبير مرشده والحكمة قرينه والعقل دليله — ولقد منح الله تبارك وتعالى النوع الانسانى عقلا ليستعمله اذا طرأ له شىء مهم يحتاج الى الروية والفكر وخص ذلك النوع بهذه الجوهرة الثمينة ليمتاز عن غيره

الحزم فى غير وقت العزم معجزة والازدياد بغير العقل نقصان

فبالعقل يعمل ما لا يعمله الحسام فيدير شؤونه ويصلح أحواله ويعمل فى حياته بتعقل وتدبر وتبصر فى العواقب

وذو يقظات مستمر مريرها اذا الدهر لاقاها اضمحلت نوائبه
يصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه
وأين يفر الحزم منه وانما مرائى الأمور المشكلات تجاربه

هذه الأمم التى نراها قد امتطت أوج السعادة وارتقت مدارج السيادة انما كان رائد أعمالها ومعظم سيرها التدبير والحكمة والحزم — وتلك الأمم التى نراها فى أحط درجة الجهالة وأسفل مدارك الوحشية انما تستعمل الطيش والتسرع والتساهل وعدم النظر فى العواقب

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان
فلربما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

ولا عجب فى ذلك فالحزم والتدبير أفضل شىء به يمكن الملك أن يسوس رعيته والتاجر ماله والأب أسرته وأبناءه والدائن مدينه وغير ذلك

اذا المرء لم يحتل وقد جدّ جدّه * أضاع وقاسى الصعب وهو مقصر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا * به الأمر الا وهو للقصد مبصر

فالتدبير يفعل ما لا تفعله القوّة والنظر فى العواقب من الفكر الصائب

٦٥

﴿ الأيام صحائف الآجال فخلدوها بصالح الأعمال ﴾

انما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

التاريخ حياة الذكر ومدبر الحياة يسجل لكل واحد المجد والشرف والفخار أو الذل والضعة والعار — فهو الحكم المطلق الواقف بالمرصاد يكافئ من حسنت سيرته ويعاقب من ساءت خطته

المرء بعد الموت أحدوثة   يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ   تطيب بعد الموت أخباره

وأعمال الانسان كالنجوم والحياة كالنهار والموت كالليل لأنه لا يظهر فضل المرء الا بعد موته ولا يعرف مقامه الا بعد ذوقه كأس الحمام — فكما أن النجوم لا تظهر الا فى الليل كذلك الرجل لا ترى أعماله الا بعد موته فان كانت صالحة ترى القوم

قد عدّت مآثره وكان محمود الشهرة طيب الثناء يخلده التاريخ صفحة بيضاء — وان كانت طالحة فقد صبّ عليه ربه صوط عذاب وأصحبه قومه باللعنات وصار اسمه لا يذكر الا مرادفا بالتهكم مقرونا بالاحتقار وما ذلك الا لأنه حاد عن طريق الخير وشذ عن فعل المعروف ولم يراع للعاقبة حقاً ولم يخش لها بأساً ولم يدر ماذا يكون بعده مما يسجله التاريخ له من المجد والفخار أو الخسة والاحتقار

وأفضل الناس من طمح ببصره الى الأمام وعلم أن الآجال صحائف الأيام فخلدها أفضل الأعمال وجرد تاريخه من نقطة سوداء تشوّه وجه صحيفته البيضاء حتى كان مثالا حسناً لمكارم الأخلاق وجمال الطباع نصيراً للمروءة فهذا الذى يسجل له التاريخ ذكرا حسناً وحديثاً عاطرا وأثراً خالدا خيرى على مرّ الدهور لدى الورى حيا بما أولاه من احسان بخلاف من جعل مطمح نظره الشهوات واللذات وأفنى عمره فيما لا يغنى ولا يثمن من جوع فحشر نفسه فى زمرة من لا يخافون عقابا ولا يتحاشون عذابا فيغير الله نعمته وتحل به نقمته ويسجل لنفسه الخزى واللعنة الى يوم الدين وحقت

عليه كلمة العذاب

حياتنا كالموت ان لم تكن نهجاً الى تخليد ذكر يدوم

وبالجملة ان من ترك له ذكراً حسناً لم يمت أبداً — قال عليه الصلاة والسلام (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) فهذه ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين فى حق صاحب العمل تديم عمله وتجعله باقياً — فهذه الفضائل مخلدة للذكر مؤبدة للأجر وبضدها تتميز الأشياء

نافث على الخيرات أهل العلا فانما الدنيا أحاديث

وقال آخر

كن محسناً مهما استطعت فهذه الـ ـدنيا وان طالت قصير عمرها

ان المآثر فى الورى ذرّية يفنى مؤثرها ويبقى ذكرها

فترى الكريم كشمعة من عنبر ضاءت فان طفئت تضوع نشرها

فالدنيا دار كثير سكانها عديد قاطنوها تختلف آراؤهم بحسب اختلاف مطالبهم ومشربهم - وينقسمون الى فرق متعددة كل منها يقوم بعمل دون غيره — فالأطباء يعالجون المرضى والقضاة ينظرون فى القضايا ومحاكمة المجرمين — والمهندسون

لبناء المساكن أو اصلاح طرق الرى — والنجارون لعمل ما يلزم للمنازل من أبواب ونوافذ وغيرها — والحدادون يسبكون الحديد -- والكل يسعى فى هذه الدار لينال قسطاً من المال يساعده فى الحياة أو ليؤدى واجبا مفروضا عليه وهو العمل — ولعمر الحق ما الحياة الا شقاء ونصب يولد الانسان باكيا علامة له على شقائه فيها وعذابه الدائم الذى لا ينتهى الا بانتهاء أجله ويموت باكيا من شدة الألم وينتقل من داره التى يسكنها الى القبر الذى يجعله مأواه ومسكنه ويصير جسمه الذى كان كالزهرة النضرة جثة هامدة لا حراك فيها وبعد ذلك تتحوّل تلك الجثة الى رفات سحيق — فاذا تأمل الانسان وتبصر وعلم أن ذلك هو حاله لنبذ ملاذ الدنيا ولعاف النفس عن الهوى ولعلم أن الجنة هى المأوى فلا يترك حسنة الا ويأتى بها ولا سيئة الا ويتخلى عنها — ويكون حقيقة هو الرجل الذى عرف الحياة وقدرها وعرف الآخرة وأعدّ لها من الحسنات والفضائل ما يخلد له ذكراً حسناً

اذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا   فعما قليل أنت ماض وتاركه

***

٦٦

﴿ اذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث تكره ﴾

لا يخفى أننا نجد من شعورنا الانسانى أن الأحوال النفسانيـة المختلفة كالتفكر والاحساس والارادة صادرة عن شىء باطنى قائم بذاته مغاير للجسم فهذا الشىء يسمى بالنفس أو الروح - وبما أن شعورنا يبقى على حالة واحدة من الصغر الى الـكبر وأن الجسم تلحقه التغيرات المختلفة نعلم أن النفس ليست بمادة وليست قابلة للقسمة وأنها شىء آخر مخالف للجسم ولـكنها مرتبطة به حيث نجدها تقتسمه أحواله كالقوّة والضعف والصحة والمرض كما أن الجسم مرتبط بها ويقتسمها أحوالها كالفرح والحزن وخلافهما

ثم أن التفاعلات المتغايرة التى بين الجسم والنفس اما أن تكون متسببة عن النفس أو عن الجسم — وذلك اذا كانت حالة من أحوال النفس تتولد من أثر ظاهرى فى الجسم تعتبر تفاعلا سببه الجسم — واذا كانت حالة من أحوال الجسم تتولد عن أثر باطنى فى النفس تعتبر تفاعلا سببه النفس

وينتج من ذلك أن الأحوال الجسمية الظاهرية تكون محسوسة للنفس وأن الجسم تلحقه الحركة بواسطة تأثير النفس فيه

وأقرب أجزاء الجسم من النفس هى الأعصاب لأنها توصل الآثار الظاهرية الى النفس وتكون واسطة لها فى تأثيراتها فى الظاهر وتدعو الجسم بواسطة الاحساسات النفسانية الى الحركة الاختيارية ولذلك يمكن أن تعتبر الأعصاب آلات للنفس

والأعصاب تكون فعالة اما بواسطة التأثيرات الظاهرية أو الباطنية فالظاهرية كالضغط والضرب أو الحرارة والنور والكهربائية — والباطنية كدورة الدم والأحوال الصادرة عن النفس — والأعصاب منها ما ترسل الآثار من محيط دائرة الجسم الى مركز الاحساس النفسى وتسمى أعصاب الاحساس — ومنها أعصاب ترسل التأثيرات النفسانية الطالبة للحركة الى محيط الجسم وتسمى أعصاب الحركة الاختيارية ان كانت مسبوقة بالارادة — والاضطرارية اذا لم يسبقها ارادة وهناك حركة شبيهة بالاضطرارية كالضحك عند رؤية شىء غريب وكحركة الدم عند الحياء والخجل وكحركة الأعضاء

الصادرة تحفظا كتغميض العين اتقاء خطر . والحركات التقليدية كالتثاؤب عند رؤية آخر قد تثاءب وغير ذلك . ويعد من ذلك النوع الحركات الطالبة لها الآداب فى المقابلة والمؤانسة الانسانية فهى وان كانت اختيارية فالتمرن عليها يجعلها كالاضطرارية فالذى يتربى بأخذها تصير له عادة وطبعا لا تحتاج فى صدورها الى ارادة منه

ولما كانت النفس فى الانسان أمارة بالسوء ميالة للشر طلابة للراحة احتاج الناشئ فى صغره الى مزيد عناية . فمن ألهم الله والديه أن يرضعاه ثدى الأدب والجد من صغره ووهبه مع ذلك عقلا كاملا شب وحب الارتقاء يشب فى صدره وذروة المجد مرمى نظره وخدمة الوطن كل أمله فلا يستصعب شاقا ولا يجد فى طريقه للمجد عائقا . فهو ينفر من الراحة ويأنف الانغماس فى اللهو مع السفلة ويجد نفسه أعلى مقاما وأرفع منزلة من أن يدنس سمعته أو يلوث صيته بالانكباب على اضاعة الوقت فيما يضر ولا طائل تحته فيمقت جنبه المضجع وتبغض عينيه الكرى الا غرارا أو مضمضة

ومن أهملاه والداه شب والكسل قرينه والهاوية قطينه

والفقر أليفه والعجز حليفه يعيش ليأكل ويقتل الوقت الثمين ولا يميز بين الغث والثمين حتى اذا كبر صدمته مصائب الحدثان وافترسته مخالب الزمان

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

قال الامام الغزالى (الصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش ومائل الى كل ما يمال اليه به فان عوّد الخير نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة -- وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدبه -- وان عوّد الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه) وحينئذ فلا بد للارتقاء الأدبى من التربية وهذه يجب أن يبدأ بها من الصغر

٦٧

﴿ فوائد ومضار الانتقاد ﴾

الانتقاد والفحص من أحسن الوسائط لاصلاح الأعمال وترقيتها وتطهيرها مما طرأ عليها من الفساد اهمالا أوسهوا أو جهلا -- وان النفس المهذبة المتربية لترتاح لمن يقوّم عوجها من عالم عليم وامام حكيم فيسمع قوله ويخشى لومه ويتقبل انتقاده

بقبول حسن فبذلك تتقدم العلوم والمعارف ولا يظهر منها الا ما هذبته العقول ونقحته الأفكار وأصلحته الأنظار والأبصار فتتجلى فى أحسن مثال وأبهى منظر وكمال منطوقها الحقائق ومفهومها الدقائق يعلو وجهها البشر والسرور ويقرها جميع الجمهور وبذلك تقوم المصلحة العامة علي قدم الأمانة وتسير الأمة فى سبيل الرقى والنجاح فيسمو عزها ويبسط سلطانها

وقد اعتنى به الغربيون اعتناء عظيما لأنه يدعو الحاكم والكاتب والتاجر والصانع لبذل جهده فى اتقان عمله فتتقدم البلاد وتحسن حالتها حساً ومعنى فتراهم لا ينزغ بينهم كتاب ولا يشرق عندهم مخترع حتى يفحصوه فحص الناقد البصير فينظرون فيه من كل وجهة ويزنونه وزنا دقيقا — وبذلك طهروا المطبوعات من المضر والتافه والساقط فلا يجسر على نشر ما كتب الا الكفء القدير الواثق بعمله الطالب نفع وطنه والا كان عمله اذا أقدم تجارة يهددها سوق الكساد ولا تلبث أن تبور ويضرب بها عرض الحائط

والانتقاد من أهم ما أنشئت لأجله الصحف والمجلات فهو أجل منافعها اذ به يرتدع الظالم عن غيه ويجبر المستبد على الوقوف

عند حده فهى توصل صوت الشعب وتعبر عن رأى الأمـة لمن يقدر علي تلبيتها واجابة ندائها والاصاخة لمطالبها وتخفيف ويلاتها ومصائبها

وبالجملة الانتقاد ضرب من ضروب الاصلاح اذا كان الغرض منه الارشاد الى الصواب والتنبيه عن الخطأ والحض على الصحيح . والا صار مجلبة للتقاطع والاحقاد ومثار التنافر والعناد وحينئذ يسقط نفعه ولا يحسن وقعه بل يصـير تعنتاً ودعوى كاذبة يلصق العار بالمنتقد ويحط من كرامته لأن قصده ارسال ما فى كنانة غيظه من سهام التشفى والانتقاص

فاذاً يجب على المنتقد ألا يضرب بحسامه الا صفحا كى لا يجرح شعور المنتقد جرحا مميتاً قاتلا — يجب عليه ألا تبلغ لهجته الشدة ولا تتجاوز اللائق بالأديب من الرقة — يجب عليه أن يدرأ العيوب بالشبهات فاذا لم يجـد شبهة فلا مناص من الانتقاد

كما أن الواجب على من انتقد عمله أن يقـدّر الانتقاد الصحيح حق قدره وينظر فيه نظر من يريد الصواب وينشد الهداية ويبحث عن موقع الخطل ولا يتعالى ويتغطرس شامخاً

بأنفه فما هو بالمعصوم وان هو مهما علا كعبه فى فنه الا انسان.
والله وحده هو الذى تفرد بالعصمة والكمال

٦٨

﴿ التدبير والنظر فى العواقب يفعلان ما لا تفعله الكتائب ﴾

الرزانة والتؤدة والتفكر والتروى فى الاقدام والاحجام من الحكمة والعقل فلا يقدم العاقل على أى عمل الا اذا نظر فى عاقبته ان خيراً فخير وان شرا فشر — فالنظر فى العواقب من الفكر الصائب ومن لم ينظر فى العواقب فليس الدهر له بصاحب. فحينئذ ليست القوّة للأجسام انما القوّة الهائلة للتدبير العظيم أمره. الرفيع قدره. الجليل شأنه. فكم أعز ملوكا وشيد دولة ورفع صولة وأعلى منارا ونصر جيوشا وقهر جنوداً

هذا الاسكندر ذو القرنين بحسن تدبيره وقوّة فكره وسلامة عقله لما قرب من « فور » ملك الهند لمحاربته وجده قد جمع له العدة فى أسرع مدّة من الفيلة المعدّة للحروب والسباع المضراة بالوثوب مع الخيول المسرجة والسيوف القواطع والحراب اللوامع فلم يقدم ذو القرنين على فور بل تمهل ودلته فطنته وأنتجت له همته أن يتقدم الى الصناع الذين معه أن

يصنعوا له خيلا من النحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال مملوءا جوفها بمواد نارية وتلبس وتقدّم أمام الصفوف فعند ما تهجم عليها الفيلة وتلف خراطيمها عليها ولت هاربة وألقت من كان عليها وداستهم تحت أرجلها ومضت مهزومة — وقد تمت له حيلته حسب أمنيته وانتصر على فور وقهره وأهلكه بحيل ومكايد مع حسن تدبير ونظر فى العواقب — ومن هذا القبيل ما يحكى أن قنبرة اتخذت لها مسكناً فى مكان كان طريقاً لمورد ماء يشرب منه فيل فبينما هو سائر منه اذ هشمت أرجله عشها فكسر بيضها وقتل فراخها فأخذت القنبرة تصيح بالبكاء والعويل ورفرفت بجناحيها على رأس الفيل وأقرأته السلام وقالت له أيها الملك لقد خربت بيتى وقتلت أفلاذى — أهل فعلت ذلك سخرية بمقامى واحتقاراً لحالى واستصغاراً لضعفى فأومأ اليها باعتقاده كل ذلك فتركته ولم تنطق ببنت شفة — وأخذت تفكر وتدبر فأرشدها التأمل والنظر فى العواقب الى مشاورة أخوتها فطارت الى الطيور وأخبرتهن بما فعله الفيل معها من الاستهانة وأشارت عليهن بأن تسير معها فئة ليفقأن عينى الفيل حتى يضلّ ويعمى ففعلن ذلك وتم لها مرادها — ثم ذهبت الى

الضفادع وشكت ما حل بها من الجور وظلم الفيل وأخبرتهن بما فعلته بالفيل من فقء عينيه ثم طلبت منهن المساعدة على تمام هلاكه وأشارت عليهن بأن يتوجهن الى حفرة جافة قريبة منه وينقنقن فيسمع الصوت فيظن أن الماء قريب اليه فانتقلت الضفادع ونقنقن فأسرع الفيل الى الحفرة لشدة عطشه فهوى فيها وتكسرت عظامه ولم يقدر علي الخروج من شدة مااعتراه من العمى والآلام . فرفرفت القنبرة بجناحيها حتى سقطت على رأسه وقالت أيها الملك المغتر بعظمتك وجلالك وكبر جسمك وقوّتك.الشامخ بزلومة أنفك الى السماء وأستك فى الماء.ماذا نفعك هذا الجسم الكبير وهذا الهيكل العظيم وأنت خال من العقل والتدبير احتقرتني واستصغرتنى لضعف جسمى وقلة بنيتى ووهمت أن القوّة فى الضخامة والطول.وفاتك أن القوّة للأفكار والعقول

٦٩

﴿ فوائد ومضار التقليد ﴾

التقليد التشبه بالغير ان خيراً فخير وان شراً فشر والعاقل من قلد غيره فى الفضائل والكمالات ونافسه فى اقتناص

الخيرات وزاحمه فى كمال الأعمال وتشبه به فى جلائل الأفعال

هذه أمـة الغرب التى ما كانت تذكر قلدت الشرق عند ما كان شمساً مشرقة أيام الحروب الصليبية فارتقت وأخذت عن العرب أحسن العادات وأفضل الصـفات وكمال العرفان وأصبحت هى التى تضىء العلم والعمل على أرجاء المشرق الذى غربت شمسه وأشرقت عليهم — وكلنا لاه يمرح ويلعب وتفعل الغربيون بنا ألاعيبهم ونحن أطوع لهم من خيال وتبعناهم تبع المقلد الأعمى — فياله من داء عضال اختلفت فى أدوائه رجال الشرق فمن قائل لا سبيل لنا الى الخروج من ربقة هذا الانحطاط الا تقليد الأمة الفلانية واختار أمة من الأمم الغربية أشرب فى قلبه حبها فأخذ يبث أعمالها ويؤم أميالها — ومن مدّع أن التقليد لهذه الأمة لا يوصلنا للغرض المطلوب وانه يجب علينا أن نقلد الأمة الشهيرة وانتقى له أمـة أخرى مدحها وفضلها على سواها وهكذا حتى كثرت الأحزاب واختلفت الأميال وصار كل حزب بمـا لديه فرحا . ونسوا أو تناسوا الدواء الشافى وهو رجوعهم الى عوائدهم وأخلاقهم والتمسك بعقائدهم ودينهم — هؤلاء رجال الصدر الأول من الاسلام لم يبلغوا

هذه الدرجة الفخيمة التى يرتعد لها قلب الجبان ويعجب منها كل انسان لكونهم كانوا يرجحون غيرهم فى الشجاعة ويقلدون أو لأنهم كانوا مستكملى العدد والعدد بل لأنهم اجتمعوا تحت كلمة واحدة وانقادوا للقانون الشرعى الذى هو كافل لأحوال المعاش والمعاد فكانوا يتحاكمون اليه فى السلم والحرب وجميع الأعمال بحيث لا يبتون أمراً من الأمور الا بعد عرضه على قواعد الدين وأحكامه فان ساعدت عليه أتوه والا تركوه وبهذه الحالة صار جانبهم محفوظاً وسلطتهم نافذة وقوتهم مشهورة وأعمالهم مرضية اذ كانوا لا يولون الأمور الا أربابها قائمين باقامة الحدود محافظين على شعائر الدين الى أن غير الأمراء والرجال ما فى أنفسهم واتبعوا شهواتهم وبدلوا وجهتهم وفرقوا كلمتهم فحقت عليهم كلمة (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

ولا تنشط أمة من عقالها أو تقوم من رقدتها أو تستيقظ من غفلتها الا بباعث يبعثها ومنبه ينبهها كذكر مجد اسلافهم وتقليدهم فى أعمالهم وأفهامها أن لهم استعدادا للكمال ورجائهم الخير وتوسمهم اقبال الزمان وتبسم الدهر فى وجوههم

وبالجملة التقليد غريزة أودعها جل شأنه فى نفس الانسان لتكون داعيـة العمل ورائد الرقى ومبعث الحركة ومطلع شموس المدنية والعمران

يولد الطفل وهو لا يعلم شيئاً من شؤون الحيـاة فتراه مولعا بتقليد أمه وأبيه وسائر ما يقع تحت حواسه من حسن أو قبيح — فجدير بالانسان أن يصرف تلك الغريزة الى النافع من الاشياء ويجعلها وصلة بينه وبين أعاظم الرجال فيقلدهم فيما أتوه من جليل الأعمال فان شاء فليـكن مرشـداً حكيما أو قائداً عظيما أو طبيباً ماهراً أو منشئاً محرراً أو سياسياً محنكا أو أصوليا بارعا أو سائحا متجولا أو قاضيا عادلا أو وزيراً نصوحا أو خطيبا فصيحا أو شجاعا مدافعا أو تاجرا رشيدا أو مخترعا مفيدا — فانه ان فعل ذلك علم مقدار نفسه فى الوجود وقلد تقليداً نافعا وأفاد واستفاد وان أضاع تلك الهبة النفسية وقلد تقليد الغراب وكان كمن اغـترّ بالسراب وبهره حسن المنظر فشغله عن سوء المخبر وسار يخبط فى أموره خبط عشواء لا يميز بين السراء والضراء فذلك الذى رجع بصفقة المغبون وضل ضلال المفتون وكان تقليده وبالا عليه وضرراً على من التفوا

حوله وحذوا حذوه فضل وأضل

٧٠

﴿ الربا ومضاره ﴾

رغد العيش مبنى علي تبادل أعمال البر والاحسان بين الناس وعلي مواساة بعضهم بعضا وأخذبعضهم بيد بعض والا فلا مدنية — وان تجد من دين نزل من السماء الا وهذه الخصال فى مقدمة تعاليمه — ومن باع درهما بدرهمين فقدعمد الى قطع تلك الروابط الثابتة ورضى من الحياة أن يعيش فى التجرد من الانسانية والمدنية فلا يحسن ولا يحسن اليه ولا يؤاسى أحداً ولا أحداً يؤاسيه وهى خسارة كبرى يحتسبها عليه نظام الدين والعمران

ذلك هو المرابى آثر منفعة نفسه على اقامة المصلحةالعامة وهى العمل بحكم المؤاساة والبر فجر ذلك اليه اذ فقد من الناس من يؤاسيه اذا أجدب أويبره اذا أترب — وأيقظ على مطالبه الأطماع وعرض ثروته لأهداف الأغراض واستبدل بشاشة الوجوه وكنوز الضمائر ببهارج الظواهر

وان من النفوس نفوسا تؤثر الكثير المظنون من المنافع

على القليل المقطوع به منها وانما ينشأ ذلك من بعد الهمة أو من الطمع الهائل — وما تلك الأنواع من النفوس بكثيرة العدد فى الناس وانما الذى يغلب وجوده فى جميع الطبقات هى التى تؤثر القليل المحقق على الكثير المظنون لاسيما اذا كان هذا محفوفا بمشاق ومكاره وكان ذاك مما يبلغ براحة واطمئنان

ومتى هان على الناس بيع الدرهم بدرهمين أخلدوا اليه وأعرض أكثرهم عن مشقة المكاسب المدنية من نحو تجارة وصناعة وزراعة لأن ما تأتى به هذه الأسباب من النمو المالى على ما فيه من الجهد والعناء مظنون على العكس مما يجىء به المكسب الربوى فانه مع قلة مؤونته وخفة عمله مشهود ومتحقق

والنفوس أكثر ميلا وأشد ولوعا بما كان من هذا الضرب من المكاسب — وهنالك مهب الفقر المدقع ومصب العجز المدمن وهما خطبان أليمان لا ينتظم بهما جنس ولا يصير عليهما اجتماع — وذلك ما يفعله الربا بالهيئة الاجتماعية — قال تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا) والحكمة فى تحريم الربا هى أنه

يقتضى أخذ مال الغير وهو القدر الزائد بدون عوض وهـذا حرام لقوله صلى الله عليه وسلم «حرمة مال المسلم كحرمة دمه» وقد أجمعت الأئمـة أيضاً على حرمة أكل مال غير المسلم من الذين دخلوا بلادنا بأمان وعهود بخلاف الحربيين

كيف لا وأنه اذا تمكن الشخص من تحصيل درهم زائد بواسطة عقد الربا لأعرض عن وجوه الكسب كالحرف والصنائع لما فيها من المشقة العظيمة ولا شك أن هذا يفضى الى انقطاع منافع الخلق لأن مصالح العالم لا تنتظم الا بالتجارات والصنائع والحرف فاذا حصل الاعراض عن هذه الأشياء استغناء بالربا فلا بد أن يختل نظام العالم — وأيضا الربا يؤدى الى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس بسبب منع القرض والسلف — فاذا حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم ورد مثلها فقط — وأما لو كان الربا حلالا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين فيؤدى ذلك الى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس — بل والى ذهاب أملاكهم ووقوعهم فى ذل الفقر والمسكنة كما عليه الغالب من أهل زماننا هـذا قال تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات)

٧١

﴿ العائلة بالآباء خيرها بخيرهم وشرها بشرهم ﴾

العائلة وان كانت أخص المجتمعات فهى أصلها وأقرب للانسان من غيرها وتنتظم من زوجين متآلفين يأنس كل منهما الى الآخر — والازدواج الأدبى هو ما يكون ملحوظاً فيه الى الحكمة الالهيـة التى هى طلب العفة والتكثير وما وراء ذلك من قضاء الأميال الجسمية فخارج عن مقصد الآداب وان كان ذلك هو الباعث الطبيعى -- ومن دواعى الازدواج طلب مصافاة النفوس والأنس والتعاون وغير ذلك من الصفات الفضيلة التى تؤذن بصفاء العيش وابتهاج النفس ولا تصدر ذلك الا عن ثابت محبة بين الزوجين لذاتهما

ثم ان المحبة للذات اما أن تكون لجمال الخلق أو كمال الخلق فان كانت لجمال الخلق والظاهر التى وراءها الأخلاق الذميمة فقلّ أن تصل بالانسان الى غاية محمودة — بخلاف التى تنبعث عن كمال الأخلاق وحسن السجايا ولو كان دونها دمامة الخلق

وأهم الخصال الحميدة بينهما هى الثقة ببعضهما فى جميع

الأحوال ومتى نفدت الثقة انحلت عرى النسبة بينهما وعاشا
مفترقين أهواء مجتمعين أجساما — ولولا ماشرع الله من الطلاق
لتفاقم الأمر وعز الصبر — ولذلك كان اختيار الزوجين لبعضهما
فى الأمم السالفة لاسيما الأمم العربية من أهم الأمور فكان
العربى يقطع المراحل لاستوصاف خطيبته ويقصد الخبير بشأنها
الدربة المجرب الذى عجم عود الأيام ليلقى عليه من وصفها
فيأخذ فى سرد شمائلها من جمال الظاهر وكمال الباطن وحسن
السجايا التى يجب أن تكون عليها النساء وقتئذ وكذلك هى
عند استوصافها الزوج — فكان لامطمح لنظرهما الا الصفات
الجميلة من الكرم والمجد والشجاعة والعفاف

والزوج والزوجة سيان فى الحقوق ومتساويان فى المعاملة
فكما أن سيد العائلة لكونه أقوى حماسا وأشد بأسا وأوسع
تصرفا كذلك هى رئسة أموره لتدبيرها المنزل ونظرها فى
مصالحه وجلبها لراحته — فاسترقاقه اياها أوصرفها فى خدمته
الخارجية عن حقوقه ضد للعدل مناف للآداب حطة فى الانسانية
خدش لناموس الحياء — وكما أنهما تقتسمه الحزن والسرور
تقتسمه كذلك الخيرات المنزلية فلاحق له فى اختصاصه بأطايبها

واستئثاره بها نفسه ولو رضيت الزوجة

وتقوى النسبة بين الزوج والزوجة اذا صارا أبوين لاتحادهما على أمر واحد وهو « التربية » وفى هذه المرتبة تتم العائلة وتزيد الحقوق فتكون ثلاثة حقوق. الأبناء على الآباء وحقوق الآباء على الأبناء وحقوق الأبناء على بعضها

فأما حقوق الأبناء على الآباء فهو الاعتناء بالتربية الجسمية والعقلية وطبع محاسن الأخلاق وجميل الصفات وتعليمهم التعاليم الدينية مع تمرينهم على العمل بها وأخذهم بالرفق والتودد لا بالقسوة والتخويف — والتسوية بين الأشقاء وبعث المحبة فيما بينهم وتعويدهم على اقتسام الحزن والسرور بعضهم البعض وهديهم الى مايصلح معاشهم من بعدهم والمحافظة على ذلك كله وعدم التفريط فيه

وأما حقوق الآباء على الأبناء فهى الطاعة وخفض جناح التواضع والاحترام والتعظيم من قدرهم والثقة بهم والاحسان فى المعاملة اليهم ومساعدتهم والشكر على أنعمهم والخشية لا الخوف منهم

وأما حقوق الأبناء على بعضهم فالحب والاحترام والشفقة

والعدل فى المعاملة وصفاء السريرة والمساعدة وغير ذلك — وما يكون منهم منافياً للآداب والمعاملة كظلم أحدهم الآخر أو الاضرار به فموكول لعقاب الآباء متبعين العدل والانصاف مع الاحتراس والحيلة كيلا يظن به من يستحق العقاب منهم أنه أدنى درجة من أشقائه أو من له الحق أن له الفضيلة عليه

وبالجملة أن تربية الأبناء سواء الذكور منهم والاناث وتعليمهم العلوم والآداب من أول واجب على كل أمة تريد صلاحها وتقدمها وانخلاعها عن جلباب البساطة وانقاذ أفرادها من مهالك الجهل والتوحش والانحياز بهم الى جانب التمدين والحضارة حتى تكمل النسبة بين الرجل والمرأة ويقوى تعارفهما وتتأكد ألفتهما وثقتهما ويكون مجموعهما تمثالا للخير وصورة للآداب يبعثانها فى أبنائهم وتكون العائلة مثالا للمجتمعات الخارجية ونموذجا للوطن ومنوالا للأمة

فالعائلة بالآباء خيرها بخيرهم وشرها بشرهم

اذا كان رب البيت بالطبل ضاربا * فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وكما تكون الآباء تنشأ الأبناء فلا يستخرج من الحديد الذهب ولا يجنى من الشوك العنب

ينشو الصغير على ما كان والده ان الأصول عليها ينبت الشجر

٧٢

﴿ المرء قليل بنفسه كثير باخوانه ﴾

حب النفس فطرة فى كل انسان ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية بل هو خلق وجد مع الانسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه

ولما كان الانسان فى حالته الفطرية الأولى قبل كل اجتماع كانت ملكة حب الذات لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات التى تنازعه فى معيشته — بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذى يتبعه فى سلوكه فلا يتأخر عن فعل أمر يعود عليه أو يجلب له لذة ولو كان قبيحاً أو فيه شر للناس

ولكن منذ اليوم الذى ابتدأ الانسان فيه أن يعيش فى جامعة من أبناء جنسه متضامنة فى وسائل الحياة أخذ الشعور بحب الذات يتناقص عند كل فرد من أفراد هذه الجامعة لما تحققه من أن حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده بل من وظيفة جميع أعضاء العائلة التى هو منها — فالقبيلة التى تشمله

فالحكومة التى ترعاه

ومن ذلك اليوم وجد فى جانب هـذا الواجب الذى تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها فى ألا يعمل فرد منها عملا يعود عليها أو على عضو منها بالضرر — ومع التقدم رويداً رويداً فى نظام الاجتماع صار كل عضو من الأمة يتمتع بأعمال كل أعضائها وينتفع من أفكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء — وعلى ذلك صارت الحقوق والواجبات متشعبة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد اليوم مرتبطاً بأهل بلده ارتباطا شديداً

نعم أن حب النفس لا يزال فى فطرة كل انسان بل أنه لا يزال أشد الاحساسات الطبيعية وألزمها للنفس حتى يخيل أن كل حب سواه كالعشق أو محبة البنين أو الصديق أو المال لم يخرج فى الحقيقة عن كونه شعبة من حب الانسان لنفسه بالواسطة — بمعنى أن الانسان يحب نفسه فى كل انسان وفى كل شىء يميل اليه

لكن لا ريب فى أن الدين والتربية والتأديب قد أثر جميعها على هذا الاحساس الطبيعى حتى أضعفه أو على الأقل

رسم له دائرة محـدودة لا يتخطاها — فـكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة وهى ممنوعة اذا كانت بعكس ذلك

والتربية الحسنة النافعة انما تظهر فى اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقاً لمصلحة الهيئة الاجتماعية فيخدم الانسان نفسه ويخدم الناس فى آن واحد وفى الغالب اذا خدم الانسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم فى تحقيق آماله لأن العمل اذا كان يحتوى على منفعة عمومية رضى الناس أجمعون وعضدوا عامله بأقوالهم وأعمالهم — وهذا التعضيد يساعد به العامل ولا شك فى تنفيذ ما أراد وتحقيق ما قصد

ومن الأسف أن الشرقيين قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس فى تربية النشء فشبوا على ما نراه ممتازين بمهارة غريبة فى انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير — فهم يتهافتون على العمل النافع لهم اذا كان فيه اضرار بالمصلحة العامة — وقد لا يقبلون عليه اذا تجرد من ذلك — فالموظف يعرف لتقدمه كل الطرق ما عدا طريقا واحداً وهو «الشغل»

والفرد من الأهالى لا يستعين فى طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات وبجميع أعمال الزور حتى ضد

أقرب الناس اليه

وها نحن نعيش اليوم كل واحد فى جانب الآخر بدون أن يمتزج به الا امتزاجا سطحيا — كل منا سائر فى طريقه مهتم بنفسه لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط — مع أننا نرى غيرنا على خلاف هذه الأخلاق

نرى الأمة المكونة من أربعين مليونا من النفوس مثلا كل أفرادها على قلب رجل واحد

واذا ذكر اسم الوطن ألفيت هذا المجموع العظيم مؤلفاً من جمعيات سياسية وجمعيات علمية وأخرى فنية وهكذا بقدر ما يوجد من فروع العلوم والفنون — نرى حب الاجتماع فى كل شيء وفى كل انسان عند الأمم الغربية — فلهذا يلزم تعويد نشأتنا على الاجتماع بأمثالهم حتى اذا شبوا على ذلك كان حب الاجتماع فطرة فيهم فلا يكون حب النفس من العيوب المفضية الى انحلال أجزائنا والاضرار بجامعتنا كما هو الآن

٧٣

﴿ فوائد الوقار ومضار الاحتقار ﴾

الوقار أو الاحترام هو محك التربية فكلما كان نامياً فى

أمة كانت تربيتها جيدة واذا فقد كان فقدانه انذاراً بانحلال جامعتها وسقوط أبهتها وعظمتها

وان أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد في رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف أو جميل أو نافع

واذا كان هذا الاحترام عاما عند الجميع وشاملا لجميعها كان دليلا على قوة تربية الأمة حيث لايجرأ على مخالفة هذا التيار القوى الا نفر قليل

ونحن معشر المصريين لانحترم وطننا ولا نعرفه وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب والدخلاء وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب في الحقيقة لنا

أما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراما في نفوسنا لا في الماضي ولا في الحال — اذ في الماضي كان المصريون يخشونها ويرهبونها أشد الرهبة حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة. واليوم اذا اعتدل مبدأ السلطة انقلب الخوف بناء على

حركة رد فعل طبيعى وبتحرضات أخرى الى استخفاف وكلاهما بعيد عن الاحترام الذى يلزم أن يكون متبادلا بين الهيئة الحاكمة والمحكومة

فاذا توفر هذا الاحترام من الجهتين من جهة الحكومة بالتفاتها الى راحة الأمة والاعتناء بسماع ندائها وتنفيذ رغباتها كما ينبغى وبحسب الامكان — ومن جهة الأمة بأن تنق بوكلائها ولا تتأخر عن طلب الاصلاحات التى تراها لازمة لها وتغيير القوانين التى تراها مضرة بها بلا تردد ولا خوف وتقدر أعمالهم حق قدرها ان كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتنبههم ان أخطأوا وتشجعهم على الاستمرار فى الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى يكون ذلك لزاما لهم كان ذلك من أهم أسباب سعادة الأمة

والعائلة — يلزم أن يكون أساسها الاحترام ونحن مع الأسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة وكثيراً ما يتغلب عليها هوى النفس

فليس بالنادر أن يتزوج الرجل امرأة وتلد له أولاداً ثم يتركها وأولادها ويتزوج سواها — وقد يترك هذه حاملا ليأخذ غيرها كذلك — وهكذا يقضى حياته فى تشييد بناء

عائلات وهدمها بدون أن يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده لأنه لم يفكر الا فى لذة دنيئة لا تذكر فى جانب الاضرار التى تنجم عنها — وان أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق — وهو أبغض وجوه الحلال الى الله تعالى — وقد اعتاد أهل مصر استعماله بطريقة شائنة جدا لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل

فعلى الآباء أن يحترموا أنفسهم أمام أولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب أن تكون لا كما هى الآن ميدان يتخاصم فيه الأهل ويتشاتمون وقد يتضاربون ويفترقون

وأيضاً لم يوجد بيننا احترام للعلم والفضيلة ولذلك لا تميز فى المعاملات بين صاحب الفضيلة وصاحب الرزيلة بل فى بعض الأحيان قد يكون احترامنا للثانى أكثر من الأول على أن المدنية الصحيحة تعتبر أكبر مكافأة لمن عمل عملا صالحا أن يحترمه الناس — وأكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث أن يحتقروه — ولا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبا فيها

والرزيلة ممقوتة مبغضة الى النفوس الا اذا أحس الناس بقوّة حكم الرأى العام وسلامته — ولا يوجد شيء يبرهن على فساد أخلاق الأمة أكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها اذ لا شيء أقرب للفضيلة من احترام الفضيلة

وبالأسف نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون بمعارفهم وأعمالهم — ونرى شباننا يهزءون بالشيوخ ولا يثقون بتجاربهم فيرمونهم بالجهل ويحسدونهم على وظائفهم ان كانوا من أصحابها ويزاحمونهم فى الأقوال والأعمال ولا يتأخرون عن أن يتسوّروا أكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء على مراكزهم

٧٠

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾

العالم الانسانى جميعه جسم واحد أعضاؤه الأمم — صحته الهدى — داؤه الغى — دواؤه النصح والارشاد فاذا لم يأمر الآمرون بالمعروف وينهى الناهون عن المنكر خسروا الدنيا والآخرة وباءوا بغضب يحارب ضمائرهم وخسارة تنقص أموالهم وقتل

يحصد رءوسهم وانتهاك لحرماتهم وصبت اللعنةعليهم والخزى والعـذاب المهين . واذا قام الهداة بارشاد الرعيـة وأوقفوا الأمراءعندحدّهم اذا ظلموا وعلموهم اذا جهلوا وذكروهم اذا نسوا كان العـدل وانتظم الأمر — ولم يأل الناصحون من الأمم جهـداً فى غابر الأزمان فى النصح والارشاد ولم يبالوا بما ينالهم من الأذى والموت قياما بما عهداليهم وماتوحى به ضمائرهم ـ وهذا «بيـدبا» حكيم البراهمة قام مقام الخصم الألد فى وجه «دبشليم» ملك الهند حينما طغى وتجبر — فوقف مدافعاً عن أبناء أمته الضعفاء فى منزلة بين المنزلتين اما استقامة الأمور وانتظام الجمهور واما سفك دمـه واذاقته طعم الموت الزؤام وأبى ذلك الفيلسوف البقاء على الذلة والهوان فنال بالنصح بغيته وأبقى له أثراً يذكر بعده — فحيـا الله الحـكمة والحـكماء ومن معهم

وهؤلاء الخلفاء الأربعة عنوان العدل ونبراس الهدى وعلم السعادة ومع ذلك لم يذرهم الناصحون ولم يدعهم المرشدون

وكذا النصحاء وقفوا فى وجوه بنى أمية واسـتعذبوا التعذيب ورضوا بالموت كما وقـع (لحطيط الزيات) اذ قال

للحجاج انك من أعداء الله فى الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة — وعبدالملك بن مروان أعظم منك جرماً وأكبر منك اثما وانما أنت خطيئة من خطاياه وسيئة من سجاياه — فأمر بقتله فقتل شهيد الحرية وهو فى الثامنة عشرة من عمره

وأيضاً ملوك العباسيين كم وعظهم الواعظون وأنذرهم المنذرون ـ هذا أبو جعفر المنصور دخل عليه عبد الرحمن بن عمر الأوزاعى وقال له يا أمير المؤمنين أخاف أن تسمع النصح ولا تعمل به فصاح به الربيع وانتهره بالسيف فقال المنصور هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة — وسار الأوزاعى فى نصحه ووعظه وزجره لأمير المؤمنين وانذاره

فلولا الهداة والمصلحون فى الدول العربية والمحررون والحكماء فى الدول الغربية لغلب العزيز أذلها وأقل الكثير أقلها وأضحت طعمة للآكلين فريسة للقانصين فأسرع اليها الفناء وحقت عليها كلمة العذاب والشقاء ـ قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)

فاصلاح الأمم يتوقف على توخى أحسن المثل التى ينتهجها

قادة الشعوب وانتهاج أوضح المسالك التي يسلكها المصلحون ليسيروا مع الأمم سير الأستاذ مع تلميذه وليأتوا البيوت من أبوابها وليخاطبوها بلسانها - وكما أن الأستاذ يحادث قلب التلميذ بما يشاكل طباعه ويناسب أطوار استعداده فهكذا قادة الأمم مع الشعوب - هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا - ومن غيرها فقد حاد عن الصراط المستقيم

٧٥

﴿ هل نحن فى عصر المدنية ﴾

التمدين تمصير الأمصار وتنظيم المدن وعداد مرافق الحياة فيها لتنال حظها من أصول حياة دهرها - وللمدنية خمسة مطالب «الغذاء» لصلاح الجسد و«الدواء» لاتمامه و«الثوب» لوقايته مما يحيط به من الجو و «المسكن» ليقيه من عاديات الوحوش واللصوص و «السلاح» لحفظه من عدو من جنسه يفاجئه - وتحوط هذه المطالب خمس دوائر

الأولى لأركان المدنية الأربعة الأمارة والزراعة والتجارة والصناعة.

الثانية للرياضيات من فلك وحساب وهندسة وجبر

الثالثة للطبيعيات وهى المعدن والنبات والحيوان والانسان ثم القوانين العامة والكيماء — ثم الضوء ونواميسه — ثم الحرارة وقوانينها

الرابعة للبخار ونقله الأجسام وادارته الآلات واحداثه الضوء ونقله البريد

الخامسة للكهرباء وتلغرافها وادارتها آلات أعمال الغذاء والملبس والمسكن واضاءتها وحرارتها — فهذه هى الدوائر الخمس التى أحاطت بالانسان وخدمت غذاءه ودواءه وثوبه وداره وحصنه فرجعت الحياة وان تعاظم شأنها وكبر شكلها واتسع نطاقها الى كسرة خبز وثوب وأمن

وليس التمدين اشباع البطن وستر الجسم والأمن على النفس وما أحاط بها — كلا — فهناك بهجة للنفس وسرور للقوى المفكرة بتعقل مثل هذه العلوم — وكأن هناك تسابقا بين شهوات الأجسام وقوى العقول فكما يتسابق ذوو الشهوات الى نارها يسبق الحكماء الى نورها — ولئن كان للاجسام غذاؤها فللعقول بهاؤها وروحها . ولئن بقى بها الجسم ودوويت بها علله فللارواح فرح بمعرفتها وبهجة بادراكها — وهذه الأجسام

اذ خلقت عاجزة دبرتها العقول وجعل احتياجها سبيلا لاستنباط الحيل والدقائق والنظر فى الكثائف واللطائف واستخراج الدقائق حتى تعرج الأرواح الى عالمها وتدرك أسرار ما أحاط بها حتى سارع الانسان اليوم الى درس الطائر فى حركاته وسكناته فيسكن معه فى جنته العالية التى لا تسمع فيها لاغية

أن المدنية ترفع الأخلاق بنسبة واحدة ترفع الخير والشر معاً فان غلب شرّها خيرها آلت بهم الى الدمار كدولة الرومان وان غلب الخير الشر بقيت الى أجل معلوم مادام القلب موجودا فاذا عظم بناء هيكل المدنية وتم نظامه لم تؤثر فيه زعازع المفاسد وانما يبقى ثابتاً الى أجله فلا دهشة من سماع فساد الأخلاق والغش والخيانة وعموم السكر فى أمة عظمت مدنيتها لأن ذلك قليل فى جانب شامخ عزها ورفيع مجدها فالبحر لا ينجسه شىء

ومتى زاد الضرر فغلب المنافع آلت الأمة للخراب كمدنية المصريين المبنية على شفا جرف هار — قال هنرى الفرنسى (اصحب الخمر معك لتبيد الجنس الشرقى)وذلك لأن القوم علموا أن الشرقى غر ساذج يغتر بالزخارف وليس لديه من العلوم والمعارف ما يقاوم هذه المبكيات المحزنات

وبالجملة المدنية هى ترقى الأفكار الداعى لتحسن الأخلاق والاحسان فى المعاملات — والمراد بترقى الأفكار انتقالها من المدارك الشهوانية الى المدارك الروحانية مدارك الضمير الحر والنفس الطيبة المهذبة وذلك لأن الانسان خلق وله نفسان واحدة حيوانية والأخرى روحانية — فالأولى هى الأمارة بالسوء الداعية الى الشهوات — والثانية هى الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر — والأصل فى الانسان أن تتغلب عليه الأولى لمعاشرته للناس ومعاملته اياهم فتتملكه الرذائل ولكن اذا استعملت معه الوسائل لقهرها فقهرت وتغلبت الثانية عليها تملكته الفضائل وصار بعد أن كان لا يسير الا حيث يقوده طمعه وشرهه يسير حيث يرى الفضيلة فيتبعها

أما ما يظنه الناس أن المدنية والتمدين حسن الثياب والهيئة جميل السمت أو من يأكل أطايب الطعام وأشهاه ويلبس أحسن الملابس وأبهاها — أو الاسراف فى الشهوات واللذات أو عدم المحافظة على الدين والشريعة أو التحايل على جمع المال وتثميره أو غير ذلك مما تلوكه ألسنة المغترين بظواهر الألفاظ وهم عن معانيها غافلون فبعيد كل ذلك عن التمدين والمدنية الحقة

٧٦

﴿ هل الأفيد اجبار الحكومة كل شاب على الجندية أو اطلاق سراح الموسر الذى يفدى نفسه وأسر المعسر ﴾

معلوم أن الانسان لا يكمل حاله الا بالشجاعة والعدل والعفة والعلم فهذه أمهات الأخلاق وجنات السعادات ورضوان الحياة بل هى الأساطين التى عليها بنيت الاستقامة والكمال والمدنية.

فالشجاعة هى القوام الأكبر للحياة ولا قيمة للعلم بلا قوّة تنفذه

فى الجبن عار وفى الاقدام مكرمة * والمرء بالجبن لا ينجو من العطب

هذه الأمة العربية افتتحت هذه البلاد بحد السيف والسنان والسلم والصلح فتربعوا فى دستها أيام الدولة الأموية والعباسية والفاطمية — ولما ضرب المماليك مصر ضربات الظلم والاستبداد وبطشوا بطشهم فيها وتحكموا على النفوس وأكلوا اللحم وأذابوا الشحم وأهلكوا الحرث والنسل ظل القوم فى ديارهم صرعى من الجور والعسف لا سلاح معهم فنسوا من شدة الفزع الأكبر حظهم من الجندية مدّة من الزمان وهم يتقلبون

على جمر الجهالة ويسبحون فى بحار الضلالة ويرصفون فى قيود العبودية والاسترقاق — حتى اذا جاء «محمد على باشا الكبير» فحررهم وأعتقهم وأطلق سراحهم وعلمهم العلم المفقود ودربهم على الحرب والضرب فضربوا بالمدافع والسيف وألفوا رحلة الشتاء والصيف فيوما تراهم للروس مهاجمين وآخر فى الحجاز يقاتلون الوهابيين وطورا فى بلاد الروم يقاتلون ومرة فى اليونان وكريد يتبارزون وآونة على الشام يزحفون — وكان العلماء الأقدمون يأمرون تلاميذهم بتعلم هذا الفن الجليل فكان أحدهم يقصد البحر وقد هاجت أمواجه فيركب السفينة فتتقاذفها الأمواج لتكمل نفسه بالشجاعة — وبعضهم كان يقف فى المواضع المظلمة المخيفة حتى يتعوّد عليها — واذا كانت هذه الفضيلة من أشرف الخلال وأعلاها فلماذا يفرّ النشء المصرى من التحلى بها — واشتهر بين العامة أنهم يؤخذون ظلما وزوراً وكأنهم يساقون الى السجون

ليت شعرى ما هذا الجهل والضلال المبين الذى أضرّ بالأمة وأسقطها فى يد الاحتلال — ان هذا لشىء عجاب كيف يسوغ للأغنياء الجمع بين نقيضين اشتروا بمالهم لأبنائهم العلوم

واشتروا بمالهم الجبن حيث يفـدى الواحد ابنه بدفع البدل كأنهم يحذرون أن يتكمل الأبناء بفن الشجاعة

وكذا الفقير جمع بين نقيضين معكوسين الجهل والشجاعة

أليس من العدل أن يعرف الناس قاطبة ما القصد من نظام الجندية ثم لا يصطفى قوم لفقرهم وينبذ آخرون لدفعهم الفداء ـ كلا ـ فان كلا المدرستين (مدرسة الشجاعة ومدرسة العلم) تهذيب وتدريب لا تعذيب وتغريب وابعاد وتخريب وانما هو درس وتعليم . غايتهما خدمة الوطن الكريم ـ فاذاً الأجدر أن يحشر النـاس فى صعيد واحد لا تفرقة بين غنىّ وفقير والا فما معنى الفدية وأى وجه لها الا الدلالة على الجهل المطبق وعدم ادراك الفضـيلة وما الميزة بين الصنفين وكيف الفرار من الفضيلة ـ على أنها ان كانت فضيلة أفلا تعم النوعين وان كانت رذيلة أفلا تشمل الطائفتين حتى يكون العدل مسوّيا بين الطرفين ـ فاذاً المسئولية واقعة على عاتق الحكومة المصرية التى لا تجعل الجندية اجبارية عامة لكل فرد من أفراد الرعية وتصلح شأنهـا حتى لا تكون فى أعين الأهالى قذى بحيث يقلل مدة خدمتها وتحسن المعاملة بين الجنود فى المأكل والمشرب

والرياضة وترخص لهم اجازات أسبوعية وسنوية يقضونها بين أهاليهم وأقاربهم وتمهد لهم سبل الراحة والرغبة فى هذه الفضيلة الجليلة حتى تهرع اليها الشبان وتطرق أبوابها كما طرقت اليوم أبواب المدارس العلمية التلاميذ واكتظت بهم حتى ضاقت عليهم بما رحبت — وكانت قبلا المدارس خاوية على عروشها لا تؤمها التلاميذ الا كرهاً ووراءهم أمهاتهم تسخم الوجوه وتلطم الخدود كما يفعل اليوم بمن أخذ جنديا ـ فاللهم قرّب الزمن الذى تتساوى فيه مدرسة الشجاعة بمدرسة العلوم والكل عليهما يتهافتون وفى فضيلتهما فليتنافس المتنافسون

٧٧

﴿ مدارج الانسان فى معترك الحياة ﴾

الانسان فى حال نشأته ودور طفوليته أضعف أنواع الحيوان قاصراً عاجزاً هلوعا يترصده الحيوان المفترس بمخلب وناب . وتكتنفه الطبيعة بمصائب وأوصاب . فيدب محاطا بمكاره الطبيعة الخارجية من أمراض قتالة وعوارض مغتالة ثم يشب فيقع فى قبضة مكاره النفس الداخلية فيكون منذ يدب الى أن يشب عرضة للمهالك بين عاملين قويين أسهلهما عليه

أقتلهما له — وليس هذا حال الانسان باعتبار الطفولية فقط بل هو حاله أيضاً باعتبار أول وجوده على الأرض اذ أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الانسان خلقه سليم الفطرة ساذجا ليس عنده من القوّة الطبيعية والالهامات الفطرية ما عند سائر الحيوان ليدفع بها الآفات ويصد الهجمات اللهم الا مسحة من العقل الفطرى كانت لا تغنى عنه من الحياة شيئا ولكن الله سبحانه وتعالى أودع فى خزائن ذلك العقل أسراراً كامنة فيه كمون النار فى الزناد — فكما أن هذه لا تظهر الا بالقدح كذلك تلك الأسرار « وهى مدارك العقول الفائقة » لا تظهر الا بالاحتكاك بالمقاصد الحيوية التى لا تتناهى فى جانب العقل البشرى — ومن ثم كان بدء صعوده من حضيض البهيمية الى أوج البشرية بالطرق التدريجية والالهامات العقلية التى تترقى بترقى الحاجة وتمو بنموّ وسائل التربية والتعليم

ولا ريب أن الانسان يحتاج فى تدبير المعيشة الى وسائط كثيرة أهمها التعاون والاجتماع واحتياجه الى مساعدة من عداه من بنى جنسه فى تدبير شؤون الحياة البشرية فكان ذلك من بواعث انضمامه فى أول حلقة من حلقات الاجتماع

وقصارى القول أن الانسان بعد أن كان يسكن الغابات الكثيفة ويأوى الى ظل الأشجار الغضة ويأكل من نبات الأرض ويهيم من الحيرة فى كل واد دخل فى أول طور من أطوار المدنية وهو الاجتماع ثم أخذ يبنى لنفسه الأكواخ الحقيرة وينحت فى الجبال بيوتا — ومنها الكهوف الصناعية التى ترى فى كثير من الجبال اتقاء عوادى الطبيعة ودفعاً لمخاطر الوحدة ثم مازال يتسع أمامه مجال الفكر وتتشعب طرق المقاصد بتشعب طرق المعيشة حتى تولدت فيه قوّة الاختراع وقوّة الحرص والطمع فنما عنده حب التغالى بمظاهر الاجتماع والتغالب فى ميدان المظاهرة الدنيوية فاحتاج للاعتصام بقوّة الاجتماع فى المدن طلباً لرغد العيش وهرباً من عناء البداوة فخطط المدن وابتنى المعاقل والحصون ومصر الأمصار وشيد فيها شاهقات القصور وزاهيات المنازل والدور وكان فى غضون ذلك يجول بفكره فى مناحى الطبيعة باحثاً عما أودع الله فيها من الأسرار وأوجد من المنافع فى المواليد الثلاث ليسخر منها لمصلحته ماشاء فيما شاء — ومن نعم الله سبحانه وتعالى ورأفته بهذا النوع الانسانى أن جعل له من العقل سلطانا اذا أطلقه من وثاق

الأوهام تناول به أسرار الطبيعة من كبد السماء ويخرج بها من
أعماق الأرض بلا حرج عليه لينتفع بها فى الحياة الدنيا فيزرع
ويستثمر ويعمر ويستعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران
ويستمد مادة الحياة الطيبة مع توالى الأزمان من خلال المتاعب
والمشاق التى يتكبدها فى استجلاء الحقائق واطلاق الفكر
فى أطراف الوجود. يتناول به من أسراره قوة تدرأ عنه غوائل
الضعف الطبيعى الذى فطر عليه وتدفع طوارئ الطبيعة وأخطارها
التى تكتنفه — وقد جدّ الانسان وراء هذه الغاية فوصل
وفعل فى الوجود من آثار العقل ما فعل مما هو مشاهد بالعيان
فى كل زمان ومكان ولكن توصل الى ذلك تدريجا بأعمال
الفكر والاسترشاد الى طرق السعادة بنور العلم الذى استمده
من الشرائع الآلهية واهتدى به الى تطهير النفس البشرية من
أدران البهيمية فأقام له ذلك العلم من نفسه على نفسه حسباً
يهديه نوره الى الصراط المستقيم

وبالجملة خلق الله الانسان الأول آدم أبا النوع الانسانى
الذى قال تعالى فيه للملائكة (انى جاعل فى الأرض خليفة
قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح

بحمدك ونقدّس لك قال انى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون)

ولقد ثبت بالأدلة القطعية أن آدم كان راقياً لأن الخالق جل شانه علمه كل ما يلزمه لحياته ولكنما الأيام وتقلباتها وحوادثها أنست أولاده مدنية أبيهم خصوصاً لما انقرض معظمهم فى حادثة الطوفان وتشتت من بقى منهم بعد رسو سفينة نوح علي الجودى يطلب أقل عيش فى الأرض والذين تناسلوا من هذا الفريق درجوا على سنة آبائهم لا مقر لهم ولا ماوى الا الأمكنة التى يجدون فيها الأعشاب والنباتات

فالانسان فى تلك الأزمان البعيدة كان يسكن الأكواخ الحقيرة والمغارات ويتخذ كل أدواته من الأحجار لجهله بما فى الأرض من المعادن التى لم تخلق الا له ولم يكن له عمل سوى استعداده لملاقاة أعدائه الحيوانات الضارية ومكث على هذه

الحال الأزمان الطويلة التى سماها علماء التاريخ بالعصر الحجرى
أو البربرى أو عصر الهمجية ولكن لما كان بطبيعته قابلا للرقى
لوجود العقل فيه والحواس كما قال تعالى (والله أخرجكم من
بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار
والأفئدة لعلكم تشكرون) نظر الى نفسه وتحسر وقال ما أتعسنى
حظا كيف يكون للحيوان سلطان علىّ وأنا أعمل وأختار ولى
قوّة على الاختراع — وأنتبه من ذلك الوقت ودقق البحث
حتى وصل الى القصدير الذى لم يغنه شيئاً عن استعمال الأحجار
لأنها أقوى منه وأشد صلابة ولا تغير حرارة الشمس أشكالها
كما تغير أشكاله فجدد البحث حتى وصل الى النحاس الذى خطر
بباله أن يخلطه بالقصدير فحصل على البرنز الذى كان مبدأ سعادة
له وافتتاح عصر جديد سماه علماء التاريخ بالعصر البرنزى

ولكن هذه الاكتشافات كانت سببا عظيما فى استمراره
فى البحث حتى اكتشف الحديد الذى تمم سعادته واعتبر
فاتحة عصر جديد سماه أهل التاريخ بالعصر الحديدى ومن هنا
ابتدأت المدنية وانتشل الانسان من وهدة كانت بعيدة الغور
وقويت مداركه ووجدت عنده من التجارب حقيقة سماها العلم

وفرع لها فروعا عديدة وأغصانا كانت ثمارها نجاحه وفلاحه فكانت تلك الحقيقة أكبر سبب فى تمدينه اذ بها ذلل العقبات التى كانت أمامه واتخذ له موطنا يدافع عنه وعرف كيف يكتشف وكيف يخترق البحار والمحيطات وكيف يوجد الروابط بين البلاد والممالك وكيف وكيف ... الخ مما لم يتضح له الا بعد الآلاف من السنين

فالانسان الآن بفضل العلوم وانتشارها ليس ذلك الذى كان لا يعاشر غير الوحش بل هو العالم الراقى المدرك واجباته العارف مقدار حياته

٧٨

﴿ مدنية الاسلام ﴾

الاسلام قد أقيم علي أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه علي ركن لسعادة البشر ركين ذلك أن عروج الأمم علي معارج الحق الأعلي وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الأجلى وصعود الأجيال على مراقى الفضائل واشراف طوائف الانسان على دقائق الحقائق ونيلهم السعادة الأبدية وفوزهم بالسيادة الحقيقية كل ذلك مشروط بامور لا يتم الا بها

منها صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الاوهام فان عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابا كثيفا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر بل أن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق وفوق ذلك ماتجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له فى الاخافة وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة - ثم يكون ألعوبة فى أيدى المحتالين وصيداً فى حبائل الماكرين والدجالين

وأول ركن بنى عليه الاسلام صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله تبارك وتعالى منفرد بتصريف الأكوان متوحد فى خلق الفواعل والأفعال وان من الواجب طرح كل ظن فى انسان

أو جماد علويا كان أو سفليا بأن له في الـكون أثراً بنفع أو ضر أو اعطاء أو منع أو اعزاز أو اذلال — ومن المفروض خلع كل عقيدة بأن الله جل شأنه ظهر أو يظهر بلباس البشر أو حيوان آخر لصلاح أو فساد أو أن تلك الذات المقدّسة نالت في بعض الأطوار شديد الآلام وأليم الأسقام لمصلحة أحد من الخلق فضلا عما يحف بذلك من خرافات كل واحدة منها كافيـة في أعماء العقول وطمس نورها — وأغلب الأديان الموجودة لا تخلو من هذه الأوهام — ان شئت فاضرب بنظرك الى ديانة (برهما) في الهند — ودين (بوذه) في الصين — ودين (زرادشت) في بقايا الفارسيين وكثير من أديان أخر

ومنها أن تكون عقائد الأمة وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها مبنية علي البراهين القويـة والأدلة الصحيحة وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيهـا فان معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا فلا يكون مؤمناً والآخـذ في عقائده بالظن ينصب عقله علي متابعـة الظنون والقانع بان آباءه كانوا على مثل عقيدته فأولى به أن يكون عليها

يلتقى مع سابقه فى مضارب الوهم وفجاج الظن وأولئك المتبعون للظن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما تعوّدت ادراكه فلا يذهبون مذهب الفكر ولا يسلكون طرائق النظر واذا استمر بهم ذلك تغشّتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر فيحيط بهم الشقاء ويتعثر بهم البخت وبئس المآل مآلهم فان كان لا بد من الاستئناس لما نقول بقول أوروبى فهذا (كيزوا) الفرنساوى صاحب تاريخ التمدن الأوروبى قال (ان من أشدّ الأسباب أثراً فى سوق أوروبا الى تمدنها ظهور طائفة فى تلك البلاد قالت ان لنا حقا فى البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها) ولو كان ديننا هو الدين المسيحى وعارضها كثير من رؤساء الدين ومنعوها ما ادعت من الحق محتجين عليها بأن بناء الدين على التقليد — فلما أخذت تلك الطائفة قوّتها وانتشرت أفكارها نصلت عقول الاوروبيين من علة الغباوة والبلادة ثم تحركت فى مداراتها الفكرية وترددت فى المجالات العلمية وكدحت لاستجصال أسباب المدنية

الاسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية والقدح فى سيرتهم — هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل وكلما حاكم حاكم الى العقل تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل وانطفاء نور البصيرة ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد كل منها ينفع العامة ويفيد الخاصة وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه بيان الغاية منه فى الأغلب وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة

ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه على أصل الكثرة فى الواحد أو الوحدة فى الكثير وأن الواحد يكون أكثر والكثير يكون واحداً مما تنبذه بداهة العقل فلما أنكر العقل أصل هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ولا يهتدى لدليل عليه ولا مرشد اليه يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل

ونبذ أحكامه حتى يمكن الايمان بهذا الأصل – مع أن العقل مشرق الايمان فمن تحوّل عنه فقد دابر الايمان – وأن فرقا بين ما لا يصل العقل الى كنهه لكنه يعرفه بأثره وبين ما يحكم العقل باستحالته فالأول معروف عند العقل يقرّ بوجوده ويقف دون سرادقات عزته وأما الثانى فمطروح من نظره ساقط من اعتباره لا يتعلق به عقد من عقوده فكيف يصدق وهو قاطع بعدمه

***

الاسلام أباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أوما تعدّى ضرره الى غيره . وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تعثر بها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر فبدّدت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة

فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليها الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « ثم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طريق البحث هادون

صرّح فى وصف أهل الحق بأنهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بتمييز ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستو كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون — صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل

الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وانما السابق واللاحق فى التميز والفطرة سيان . بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب --عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان فيه قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع لله وحده

والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعدّ لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم أن نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الأصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقاً فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان

***

الاسلام رفع بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم وضنا به على

كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمى اليه ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم الا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء فى الشرائع والنبوّات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانىّ وان هم الا يظنون) — (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين)

*
* *

الاسلام جاء والناس شيع فى الدين وكانوا الا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون فأنكر الاسلام ذلك كله وصرّح تصريحاً لا يحتمل الريبة بان دين الله فى جميع الأزمان وعلى

ألسن جميع الأنبياء واحد قال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) — (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين) — (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرّقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) — (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) — (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) وبالجملة لقد حكى التاريخ وهو أصدق حاك أحوال الأمم فى الأزمنة الغابرة وقرر أنهم كانوا على درجة كبيرة من الهمجية ولم يكن ذلك خاصا بأمة ولا قبيلة بل كانت كل البلاد فى هرج ومرج لا يهدأ للناس بال ولا يطمئن لهم فؤاد وكانت الحكومات منابع الظلم ومهاد الاستبداد. والافراد الحاكمون لا تهمهم مصالح الرعايا ولا يلتفتون الا لأنفسهم وتنمية أموالهم وعظمتهم وكان الجهل والفقر لم يخلقا الا للمحكومين وحسبك

من ذلك ما كان عليه الفرس والروم مع أنهم كانوا أقدم الناس فى المدنية

وبينما هم فى غفلتهم ساهون وفى عظمتهم وكبريائهم لاهون اذ ظهر نبأ الاسلام فأزعجهم وكدرصفوعيشهم لأنهم رأوا أنه سيحط من عظمهم ويغل من أيديهم بالرغم عنهم لأنه أساسه ايجاد المساواة بين أكبر كبير وأصغر صغير ويصعب على أولئك أن يتنازلوا الى ذلك وقدعلموا أنهم ان لم يرجعوا عن غيهم وضلالهم فستدرك الرعايا هذا المبدأ وتتألب عليهم وقد كان ذلك فان الاسلام لماتقدم وكوّن معتنقوه الدول الكبيرة فى الشرق والغرب انتقلت تعاليمه بسرعة الى أهالي آسيا وأوروبا فأدركوا المبادئ الدستورية وقاموا مرّة واحدة يطالبون بها حتى منحوها — هذا

ولما اكتشف أهل أوروبا بلاد أمريكا واستعمروها انتقلت تلك التعاليم الى أهلها وكذلك الأمر فى بلاداستراليا

فمدنية الاسلام هى أساس ما نراه الآن من الحضارة فى كل أنحاء المعمورة ولا ينكر ذلك من له المام بتاريخ ذلك الدين المتين والافرنج أنفسهم يقرّون بفضل قوانينه ولقدأخذوا

عن العرب نماذج العمران وقدسوا فلاسفتهم كالعلامة ابن سينا وابن رشد ونحوهما ممن نشروا العلوم والفلسفة

ولقد تواترت الأخبار ودلت الآثار على أن الناس فى القديم ما كان لهم عمل غير الاستعداد للحرب والنزال وما كانت تلك النيران تنطفىء لحظة بل كلما كانت تخمد من جهة تذكو من أخرى وكانت رحى القتال فى دوران مستمر تطحن فيه رقابا وتهرق دماء ولم يكن للأمن ذكر على ألسنتهم ولا حقيقة تخطر ببالهم وبقيت تلك الحال آلافا من السنين الى أن جاء الاسلام فأوقف الحروب لأنه علّم الناس كيف يتحدون وفتح لهم أبواب السعادة التى كانت مغلقة فى وجوههم وأرشدهم الى أن النجاح انما يعدو بسرعة خلف محبة بعضهم لبعض فلما وجد الأمن واطمأن كل علي ما يخاف عليه التفتوا الى البحث عن خيرات الأرض فأخرجوا مافى باطنها وتفننوا فى المخترعات حتى وصلوا الى درجة لم تكن تخطر للقدماء على بال وذلك يسير علي العقول ما دامت هادئة فان المرء اذا كان مكدر الخاطر مشتت الفكر فلا يمكنه أن ينظم بيته فضلا عن أن يخترع هذا

والعرب بفضل ذلك الدين قد تركوا ما كان عليه من الكبرياء والعظمة فان العربى كان يأنف من أن يطأطئ رأسه حتى ليصلح شراك نعله كما كان الفقير منهم لا نصيب له من القول والعمل بجانب الغنى وكان كل واحد منهم له وجهة فلا تكاد القبيلتان تتحدان بل الشخصان ولكن الاسلام جاء بضد تلك الشيم القبيحة التى لا تلائم العمران فجمع الغنى والفقير فى صف واحد فى الصلاة وفى صعيد واحد فى الحج وجعل للثانى نصيباً فى مال الأول حتى يكون هناك انعطاف وميل — وبعد أن كانت كل قبيلة يحكمها حاكم مستقل يخالف حكام القبائل الأخرى والكل على خلاف جعلهم يخضعون لكلمة واحدة ويعملون بيد واحدة حتى صاروا أول الناس بعد فى الحضارة والمدنية وقد كره العرب فيما لا يوافق الهيئة الاجتماعية من القتل والزنا والظلم والاسراف وعقوق الوالدين وشرب الخمر والتنابز بالألقاب والتفاخر بالأنساب وغير ذلك من أمهات المفاسد ففى القرآن (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا) — (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان

فاجتنبوه لعلكم تفلحون) — (ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاثم الفسوق بعد الايمان) وغير هذا من القوانين العظيمة وكان الوأد فى العرب فاشياً فكانت البنت لا حظّ لها فى الحياة فأنزل الله تعالى فى ذلك (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقكم واياهم ان قتلهم كان خطئاً كبيرا) (واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) كل هذا مع الحث على ما يرقى شأن الانسان ويجعله حيا بمعنى الكلمة كالاجتهاد فى طلب العلم والاقتصاد والسعى وراء الرزق ونحوها من أمهات الفضائل قال تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) — (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً) ومن ذلك سرى للعالم كله ما جعله يرفل فى ثياب العز — وهاهى قوانين الاسلام السياسية يعمل بها أهل الحضارة وقد أدرك بواسطتها كل واحد ما له من الحقوق بعد أن كان مستعبداً لا حق له فى أى طلب ولا اختيار له فى أى عمل ولم يكن الاسلام دين قسوة وغلظة وانما كان دين لين وعطف وشفقة وهذا هو الدين الذى جعل نفوس معتنقيه تميل اليه وتشفق به قال تعالى لرسوله

عليه الصلاة والسلام (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ولم يكن من قوانينه التكليف بما فوق الطاقة بل كلف القادرين فقط الذين يمكنهم تأدية العمل من غير أن يلحقهم منه ضرر قال تعالى(لا يكلف الله نفسا الا وسعها) وقال (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وفى الحديث « بعثت بالحنيفية السمحاء » وهو دين التسامح لأنه مبنى على الاتحاد والألفة وهذا من أكبر الداعيات اليهما

ولو رجع الانسان الى تاريخ الذين صدقوا فى الدين واعتنقوه بحق وولوا الرياسة الكبرى كالخلفاء الراشدين ومن عدل بعدهم لوجد ما يحق له أن يفتخر به وليس بغريب فان الدين هو كذلك غير أننا نعده مما يفتخر به لقلته عندنا الآن

ولقد كانت أفقر امرأة تدخل علي أمير المؤمنين وتشتكى بكل جراءة ما ألم بها من ظلم أو فقر لعلمها أن العدل يمنع أصحابه من الطغيان

ومما يروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج ذات يوم من المسجد ومعه أحد أصحابه واذا بامرأة علي

ظهر الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام . ثم قالت رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة فقال لها قولى فقالت عهدى بك وأنت تسمى عميرا فى سوق عكاظ تصارع الصبيان فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ثم لم تذهب حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله فى الرعية واعلم أن من خاف الموت خشى الفوت . فبكى عمر رضى الله عنه فقال لها صاحبه كفى فقد أبكيت أمير المؤمنين . فقال عمر دعها أما تعرفها قال لا يا أمير المؤمنين فقال له هذه بنت حكيم التى نزل فى حقها (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) اه وتلك هى الحرية التى نسمع بها الآن وما عندنا منها شىء

فان الحرية هى أن يتمتع كل فرد بما يبيح له الشرع أن يتمتع به وليست تضييع الأموال فى الميسر والخمر ونحوهما فحبذا لو رجع ذلك الوقت الذى كان يدرك فيه كل امرئ حقه وحبذا لو أصلحنا من أنفسنا وقومنا من اعوجاجنا الذى أودى بنا مع علمنا أن ديننا هو الذى يرفعنا ويجعلنا فوق الاعناق وما مثلنا الآن الا كخادم أرسله سيده ليقضى له حاجة ودله علي

طريق يسير منها فخالفه وسلك غيرها فجاء باكيا يقول لقد ضربت يا سيدى وأهاننى فلان فقال له السيد معنفا ألم أدلك على سبيل كنت تأمن على نفسك من الأخطار لو سلكتها

فنحن كذلك يعاقبنا الله بتسليط غيرنا علينا جزاء تركنا الطرق التى وضحها لنا المولى رحمة بنا

ونحن فى كل الأزمنة والأمكنة نفسح لغيرنا من أهل الأديان الأخرى ونوسع لهم صدورنا فنعاملهم ونجالسهم ونعينهم على نوائبهم ونجاملهم فى أفراحهم وأحزانهم ونسليهم اذا حلت بهم نازلة أو ألمت بهم ملمة وليس هذا بغريب علينا ولا مدهش لنا وان أدهش غيرنا فان هذا هو ديننا الذى بنيت قوانينه على التسامح فانه أوصى بأهل الذمة خيراً وجعلهم معنا فى المعاملات سواء لهم ما لنا وعليهم ما علينا وكذا الذين طلبوا منا أن نعطيهم الأمن حرّم علينا دماءهم وأموالهم وكل شىء يضرّ بهم وخصوصاً أهل الكتاب فانه أحل لنا التزوج بنسائهم وأكل ذبيحتهم بقوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) — (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) وقد أوصى بهم حتى فى الجدال

لاظهار الحقائق اذ قال (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن) — (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) فما أحسن هذه الدعوة وأرقها على القلوب وأخفها على الأسماع وهكذا كانت سنة المسلمين من قبلنا ومعاملتهم لمن خالفونا فى وجهة الدين حتى فى الحروب اذ كانت الأوامر تلقى على القواد هكذا « لا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تقلعوا شجراً مثمراً »

وفى ارشادات أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله عنه لبعض قواده (وستمرون على أقوام فى الصوامع رهبان ترهبوا لله فدعوهم وما انفردوا له فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم) وحسبك ما هو معلوم من أن المسلمين كانوا يكتفون بأخذ الجزية ممن فتحوا بلادهم دون أن يتعرضوا للأديان مسلمين دخولهم فى الدين لتوفيق الله جل شأنه

ولا أظن دارس التاريخ يجهل ما عمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أهل بيت المقدس الذين طلبوه بنفسه فسعى اليهم وأمنهم على كل شىء ولو كان هذا الدين ضيق الصدر

لحنق على كل هذه الأقوام التى ترتزق من بلاده وتعيش كما
تريد ولكان السلطان محمد الفاتح ترك الأروام وهم حائرون
فى البحار يوم فتح مدينة القسطنطينية ولم يسترجعهم ويعطهم
الامتيازات التى يعاكسون بها أمير المؤمنين الان — فما أوسع
الاسلام صدرا وأكثره ميلا الى السعادة — والاسلام صالح
لكل زمان ومكان فان أساسه الألفة والاتحاد. وهذا المبدأ
مبدأ مساواة من ورائه كل خير وسعادة — والعالم من نشأته
يسعى وراء ذلك وان دينا من تعاليمه حفظ الحقوق ومنع الظلم
وسفك الدماء لأولى أن يحب ويعض عليه بالنواجذ

وهل الدين الذى يعلم الناس كيف يعيشون ويأمرهم
بالعمل ويحذرهم من نتائج الكسل ويحثهم على الاقتصاد والنظافة
والسير الاكتشاف وتربية الأولاد والتعلم وترك اللهو واللغو
اللذين يضيعان الأوقات النفيسة ويغرس فيهم جميل الفضائل
ويوجد فيهم الغيرة على أعراضهم وبلادهم يتهم بالتقصير ويرى
من اعتنقه بالرذائل منسوبة اليه مع أنه برىء من أن يدعو
الناس الى الرذيلة

وهل الفضائل التى ذكرت وأمثالها كانت مطلوبة فى

الأزمان السالفة فقط — أو كانت فضائل والان صارت رذائل كلا فهى هى لم تتغير ولم تزل كل الناس تعدو خلفها

ورب قائل يقول ان قطع اليد فى عقاب السارق أو رجم الزانى أو جلده أو جلد شارب الخمر أو نحوها من عقوبات القانون الاسلامى أمور صعبة وحشية

فأقول له أظنك لا تنكر أن العقاب علي جريمة اذا كان صارماً كان أدعى الى الانزجار وأظن أن قطع يد واحد من بلد يكفى فى تأديب كل أهل ذلك البلد من حيث السرقة وكذا الرجم والجلد — علي أن العضو اذا أصابه مرض وخشى من تعديه الى بقية الأعضاء يجب استئصاله . ولا ريب فى أن الزنا اذا تسوهل فى عقاب مرتكبيه فشا وازداد الى حد لا يجد فيه كل واحد السرور الذى يوجد عادة من جهة الأولاد فضلا عن أن ارتكاب أخف الضررين أمر واجب عقلا كما هو واجب شرعا

اذاً كل زمان يصلح له هذا الدين المتين لأنه يدعو الى الفضائل ولا يكرهها عقل وهو سهل (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ذلك وان المتهمين لهذا الدين بالوحشية وعدم

الموافقة للأعصر الحاضرة يعملون به فى معاملاتهم والقوانين الأساسية عندهم مستنبطة منه ولذا لم يظهروا الا بعد أن غلبهم وهجم معتنقوه على بلادهم واستعمروها فهم يعملون به ليأخذوا مجداً قدرأوا أهله عليه فى الأزمان السالفة والأعصر الخالية

٧٩

﴿ من سعى رعى ومن نام لزم الأحلام ﴾

كل من فى الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات

من ردد طرف البصيرة فى نظام هذا الكون وما أبدعته به يد القدرة رأى أن الحكيم العليم قد ركبه من أمور تنوّعت صفاتها وتغيرت مظاهرها وهى على اختلافها ليست فى الحقيقة الا مادة واحدة عملت فيها عوامل القدرة فنصبتها على هذه الشرائط متنوّعة الصفات مختلفة الأحوال حسبما تقتضيه طبيعة حياتها وحكمة وجودها لابسة من حلل النظام وحلىّ الأحكام ما يشهد للحق جل شأنه بالتفرّد فى صفات الكمال — ومن بديع حكمته أنه لما انتقل الانسان من الوحشية الى المدنية أثبت له ذلك الانتقال وجوب الأعمال . ونادته الجماعة حىّ على التعامل . فمن لا يؤثر أن يعمل لا يأكل — فاندفع كل الى

الخبط فى مهنته والغوص فى حرفته فذهب يمارك الجمادات كل كثيف . ويباشر الصنائع كل خفيف ويمارس العلاقات كل عليل منقطع ويتاجر بالبضائع كل كليل مبتدع . ويستقصى الموجودات كل دقيق مخترع وهكذا قد انخرط الجميع فى الارتباط وغرق الكل فى لجج الاختباط فكل طائر على أجنحة الطيش ليقطع آفاق العيش فترى البعض يشكو الكلال والبعض يندب الملال وهذا يتوجع فى التعب وذاك يتفجع من الوصب فأعين تبكى من العسر وأفواه تضحك من اليسر

كل من فى الكون يشكو دهره ليت شعرى هذه الدنيا لمن

فأبصار الجميع شاخصة الى غرض واحد وهو طريق العيش والرزق فهم عليه متزاحمون بواسطة حرف ومهن وأسباب مختلفة فالناس بين مزاحمة تقتضى تنافراً ومساعدة تقتضى ائتلافا وليسوا فى ذلك سواء «فطرة الله التى فطر الناس عليها»

فالانسان مسوق بحسب خلقته وما تقتضيه فطرته الى الشغل والعمل ليمرن نفسه — ولذلك كان مضطراً طبعاً لأن يتبصر زمن صحته فيما يكون اذا أصابه مرض يمنعه عن العمل أو اعتراه وهن الشيخوخة وضعف القوى — ولهذا جاء الحديث

الشريف « تزودمن صحتك لسقمك . ومن غناك لفقرك . ومن شبابك لهرمك » وبعبارة أخرى . سنة الله فى خلقه هى أن ينظر الانسان فى الحال الى ما يؤول اليه أمره فى الاستقبال بل هذا النظر الذى يطلبه الوجود هو قاعدة سلامة الأوطان ورأس المدنية والعمران -- وهذا انما يدعو الانسان الى أن يدّخر فى يومه شيئاً من ثمرة عمله فى هذا اليوم يستعمله فى يوم ثان اذا طرأ عليه ما يمنعه من العمل فاذا كان اليوم الثانى كان غير محتاج لنفقته لسبق حصوله عليها فاذا لم يعرض عليه ما يمنعه من العمل أمكنه شغل هذا اليوم فى تحسين آلات عمله أو مبادلة عمله ذلك اليوم بالآلة اللازمة له من غيره ليسهل عليه العمل بعد بما ادّخره قبل — وهذا المدخر هو رأس المال

فرأس المال اذاً هو جزء من ثمار أعمال سابقة يستعان به فى الأعمال اللاحقة — وظاهر ان لكل انسان رأس مال هو ما ادّخره فالنجار الذى يملك فارة وقدوما ومنشارا صاحب رأس مال. والحداد الذى يملك كيراً وسندانا ومطرقة صاحب رأس مال. ومالك محراث للحرث أومسطرين للبناء أومقص للخياطة كل من هؤلاء صاحب رأس مال

وليس رأس المال قاصراً على النقود أو الأرزاق المستعملة فى استنتاج أرزاق أخرى أو مؤونة أو آلة بل الادراك رأس مال والأدب رأس مال والبرّ والخير رأس مال لمن يسديه وحب الوطن رأس مال بل جميع الأعمال فالسابق منها رأس مال فى الحال والحالى رأس مال فى الاستقبال

فالطفل الذى يتعلم القراءة والكتابة والحساب وتاريخ وطنه وما كان عليه سلفه حاصل بتعلمه على رأس مال واذا تعلم بعد ذلك صنعة زاد رأس ماله وحينئذ لا يتوقف نجاحه فى المعيشة الا على أن يكون عاملا صادقا أمينا مؤديا لواجباته

والذى تعلم الشريعة وأحكامها حاصل على رأس مال يحصل له به الفائدة — والاعتبار باستعمال رأس المال فى ارشاد الناس الى صالحهم واقامة العدل بين الناس ليقف كلّ عند حدّه فيحصل الأمن وتحفظ الحقوق — والطبيب له رأس مال هو معلوماته التى اكتسبها بالتعلم وانتفاعه منه موقوف على حسن استعماله لهذه المعلومات - والسياسى الذى جرّب الأمور واختبر الناس يملك رأس مال تختلف قيمته بحسب تجاريبه ومعرفته لأحوال العالم وضروريات أمته . ورأس المال هذا يستعمله

السياسى أيضاً كما يستعمل التاجر رأس ماله فى الاستغلال فيبذل منه فى صورة مقترحات مايعود على الأمة التى يشتغل من أجلها بزيادة ثروتها ورفعتها ورفاهيتها بنسبة رأس ماله

ولرأس المال من أى نوع كان أهمية عظمى فلاغنى لأمة عنه والا فكيف يكون الاستنتاج اذا أعوز النجار القدوم والحداد الكير والصناعة الفوريقة والبناء المسطرين والخياط المقص والزراع المحراث وكيف تكون حالة الأمة اذا لم يحصل أفرادها على المعلومات الأدبية والدينية والعلمية والابتدائية التى أصبحت اليوم ضرورية لكل انسان وبها يتميز عن غيره من أنواع الحيوان

وكيف تكون حالة الأمة اذا لم تتخذ رجالا من أهلها أهل حزم وعزم ودراية سبروا الزمان وأهله يؤتم بهم فيحصل بين أفرادها التضافر والتعاون والتحابب ويكون للأمة بمقترحاتهم أميال معلومة تسعى لها اذ لا فوز لأمة اليوم فى معامع المزاحمة وميادين التمدين والحضارة الا اذا تمسكت بصفوة رجالها وأقدرهم وأمضاهم فى العمل — لا جرم ان الأمة تتقهقر وتخسر بقدر مايعوزها من ذلك فالاستنتاج بدون هذه

الآلات ينقص نقصاً فاحشاً ولو أجهد الصناع أنفسهم فى العمل فلا تكون محصولات البلاد كافية لمعاش الأمة وحياتهم وتصبح الأهالى فقراء ويعتريهم الاضمحلال والذلة والهوان

فان الثروة العمومية للأمة تتعلق كل التعلق بما ذكرناه من رأس المال وبينها وبين حالة الأهالى ارتباط شديد فكلما صارت الأمة أكثر عددا وأعز شأنا زادت الثروة العمومية بحسب نسبة حسابية تزيد عدد الأهالى تبعاً لنسبة هندسية فاذا بلغت الثروة العمومية ثلاثة أمثال ما كانت عليه يبلغ عدد الأهالى تسعة أمثال ما كانوا عليه — وكما أنه لا سبيل للحصول على رأس مال الا بالعمل والادّخار أى السعى والحرمان كذلك لا بقاء له من غير مثابرة على العمل والادّخار — فمن أنفق من غير أن يكتسب فانما يبدّد ثروته ويمدّ يده الى الفقر لأنه يشتت ثمرة العمل السابق الذى استجمع بالسعى والحرمان فيكون فى طريق الخراب طريق فيه يرى رأس ماله انتقل من يده الى يد غيره أكثر منه نشاطاً وأحسن تبصراً

فالعمل المستجمع لا يحفظ الا بالعمل فكما أن الملابس تنهك والمنازل تتشعب ان لم يتداركها العمل كذلك الأعمال

السابقة لا سبيل لحفظها والانتفاع بهـا الا اذا أمدت بأعمال لاحقة — وكما أن المبانى ان لم يتعهدها أصحابها بالأعمال تسقط وتهدم وتنفصل أجزاؤها بعضها عن بعض فيتداركها آخرون بالعملة ويستجمعونها فتصبح بناء آخر جديداً ولـكن فى يد ملاك آخرين — ولذلك العمل المستجمع فى السابق ان لم يكن مقرونا بالعمل فى الحال تبدد وانتشر واستولى عليه آخرون فينتفعون به فلا يحفظ للتاجر رأس ماله فى استقلاله الا بالعمل والمثابرة عليه والا ضاع سعيه السابق وما قاساه فى الحصول عليه من التعب والحرمان — وكذلك الامر فى رأس المـال الذى يكون فى صورة مقترحات لا تحصل جميع فوائدها الا اذا حصلت المثابرة لحق الهيئة الاجتماعية التى استعملت فى صالحها هذه المقترحات خسارة عظيمة هى ضياع أعمال مدخرة ادخرها السلف لينتفع بها الخلف ولا سبيل لهذا الخلف أن يدخر لخلفه رأس مال الا اذا زادت الأعمال التى ادخـرها سلفه بعمله والمثابرة عليه — الآداب

***

٨٠

﴿ فوائد النور الصناعى المسمى بنور الغاز ﴾

من غرائب نتائج الأفكار وعجائب مناهج الابتكار نور الغاز الذى انتشر فى شوارع مصر انتشار الروح فى الجسد حتى قالت له الظلماء لا أقيم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد فيا له من مخترع أرانا عجائب المقدور وأخرجنا من الظلمات الى النور فسبحان من قدّر ما كان وما يكون ويخلق ما لا تعلمون — كيف لا وما تلا منشور نوره على جنود الظلماء حتى كتب الله عليهم الجلاء وما دبت أرواح مواده فى عروق مجاريه دبيب السيل حتى كتبت أنامل مصابيحه فى صحيفة الجو (فمحونا آية الليل) وجعلنا آية الغاز مبصرة ولا أينعت على أغصان القوائم زهور أنواره حتى انتظمت فى أجياد الطرق عقود أزهاره — كم قوّمت أسنة أشعته فخرقت حلة الظلماء ونطقت ألسنة أنواره

كأن مشكاة نور الغاز حين بدت انسان عين لها بالناس أبصار

وما كان يظن أن الأحجار تنتج أنوارا ولا أن الأماء تلد أقمارا وغير عجيب أن تنتج الأفكار شبيه هذه الأنوار فما

الفكر الا شعاع نور العقل وهالة نبراس الفضل واذا كانت القوى الجسمية انما استكشفت الفحم الحجرى لما بينهما من المناسبة الجرمية ثم لم تعرف جميع مزياته بل استعملته فى ضروريّاته فلا غرو أن اتجهت شموس الأفكار اليه فأباحت لنا من مكنون الحكمة ما أعلمنا أن النور كائن فى الظلمة ومن تأمل فى القوّتين وقرن بين المزيتين علم أن الشىء انما ينتج مثله والفرع انما يشبه أصله وثبت بالدليل لديه ان شبيه الشىء منجذب اليه

٨١

﴿ وصف حديقة الأزبكية ﴾

بينما أنا مشتغل بالدرس اذ حصل فتور وملل فى النفس فحضرنى أحد أصحابى وصديق أحبابى فقال هيابنا نخرج الى بعض المتنزهات لتزيل من ذهنك ما به من الترّهات وتسمع هناك الألحان وضرب المثالث والمثان وتنزه الأبصار وتقتطف الأزهار فقلت له أى متنزه تعنى لأكون على بصيرة فى شانى فقال (الأزبكية) أردت وهى التى عينت فانها جالبة الأفراح سالبة الأتراح فأخذ هذا الحديث بمجامع فؤادى وجلب لى

النشاط من كل وادى فذهبنا نستبق اليها سراعا ومددنا فى مسيرنا باعا فباعا وقدحلّ وقت الأصيل والجوّ صاف والنسيم عليل فدخلناها بسلام آمنين وحيتنا جميع الرياحين وتثنت قامات أشجارها وتغنت قيان أطيارها والروض قدجلا للعين زبرجده والأصيل قد راقه حسنه فنثر عليه عسجده فما أعجب سندس رياضها وبياض حصبائها وخرير مياه فساقيها المرمرية كأنه معدن لؤلؤ سائل من أفواه فضية

والريح تجرى رخاء فوق بحرتها وماؤها مطلق فى زىّ مأسور
قدجمعت جمع تصحيح جوانبها والماء يجمع فيها جمع تكسير

فهى جنة مفتحة الأبواب فيها كل شىء يجلو النظر ويذهب الصدا عن الألباب فرؤيتهـا تسرّ النفوس الزكية وتزيد فى العقول الذكية وضعها بهيج عجيب ورونقها بديع غريب مزخرفة النواحى والأرجاء مزينة الجهات والأنحاء

زينت بالنقوش فهى عروس قد غدت من نقوشها فى تمائم
فأجل طرف طرف عينك وانظر أوجهاً فى جمالها القلب هائم
وغصون المنى بروض التهانى أثمرت فاقتطف زهور كمائم

كأن الليل فيها نهار من كثرة الأضواء والأنوار محتفة بكوا كب

من الغاز يستضىء بهـا كل من جاز وفيهـا قصور شاهقات وأبنية شامخات

هكذا هكذا المبانى فدعنا من مبان فى الحسن لا تدخل العد
فوق أنهارها غصون عليها ثمر الحسن يانع ومنضد
لو رآها رب الخورنق والايــوان بل والسدير أصبح مكمد
كم بها للعيون مرأى بديع يجلب الأنس للذى راعه الصد

وقال آخر

بالأزبكية طابت لى مسرات ولذ لى من بديع العيش أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها السموات
مدّت اليها الروابى خضر سندسها وغرّدت فى نواحيها حمامات
والماء حين سرى رطب النسيم به وحلّ فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط من فضة واحمرار الورد طعنات
وللنــديم بهــا عيش تسـاعده على اغتنام دواعيه المسرات
يروح منها صريع العقل حين يرى على محاسنها دارت زجاجات
وللرفاق بهــا جمــع ومفترق لما غدت وهى للندمان حانات

فقضينا تلك الليلة فى هذه الحديقة الغناء فى لهو وطرب وفرح وسرور وصفاء نتجاذب الراح بالراح حتى مطلع فجر الصباح

٨٢

﴿ فوائد القضاء والمحاماة وأيهما أنفع للهيئة الاجتماعية ﴾

ان القضاء من أرفع الأركان وأقوى دليل علي ذلك استتاب الراحة به والأمان فلو لم يكن قضاء لأخنى علينا الزمان ولشبت نيران البغي والعدوان ولتحرق أجسام الضعفاء وتمتع بين ذلك بالنهب الأقوياء وغير خاف مايحدث من ذلك على كرّ الدهور والأيام من اعدام الجنس البشرى اذ أن روح القوّة لابد أن تكون لدى الناس بدرجات فمنهم قوىّ ومنهم أقوى ومنهم سباق غايات فيقلد الفريق السابق زمام السلطنة فيفتك بالكل

فلهذا كان المقصد من القضاء انما هو نصب قسطاس العدل فى الأحكام واصدار الأمر باذاقة القاتل كاس الحمام مع عدم الميل الى شر الوسواس الخناس ومن غير رعاية الخاص والعام من الناس — ولا بد للقاضى أن يكون رجلا حراً بالغاً عاقلا سليم السمع والبصر واللسان متصفاً بصحة التميز وقوة الجنان بعيداً عن السهو والغفلة مأمونا فى حالى رضاه وغضبه عدلا فلا يكون مرتكباً للكبائر ولا مصراً على الصغائر وأن

يكون عارفا بالناسخ من الأحكام والمنسوخ والمقيد والمطلق والخاص والعام قادراً على استنباط الأحكام بالقياس

وينبغى أن يكون شديداً من غير عنف ليناً من غير ضعف مستشيراً أهل الحزم والاجتهاد وأن يكون مكانه مرتفعا عن محل الخصمين وأن يحث الخصمين على أن يصلحا ذات بينهما فان أبيا أصدر الحكم عليهما وأبرمه وأن يمتنع من بيع وشراء لنفسه ومن اقامة وكيل فى ذلك معروف له فى البلدة لئلا تحابيه الناس ويحرم عليه قبول الرشوة واذا حضر خصمان فلا يستقبل بالترحيب صاحب الشرف منهما بل يسوّى بين الوضيع والرفيع والجليل والحقير والغنىّ والفقير والصغير والأمير — وينبغى له أيضا ألا يقضى بين الناس وهو متأسر بأى مؤثر خارجى أو داخلي كالسرور الزائد والحزن الشديد والبرد المؤلم والحر الذى يكاد يذهب بالعقل والجوع والعطش وغلبة النعاس

والمحاماة مهنة شريفة وصناعة محتاج اليها فى البلاد المتقدمة ذات الشأن والثروة اذ معلوم أنه كلما زادت الثروة وتطلعت الناس الى الازدياد منها كثرت بينهم المنازعات فيحتاجون الى المحامى وهو وكيل فى الحكم والمخاصمة يتكلم مكان المرء بما

يعجز عنه ويدافع عنه بما لم يعلمه ويشهد له بما لم يخطر على باله فيثبت الحق لأهله ويكفى موكله مؤونة التعب وينوب عنه فى مخاصمته فترى المحامين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه ويقوى جنانه استعداداً للنزال فى ميادين المقال وتأهبا للدفاع فى مواقف النزاع ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة فى الحكم ورفع التهمة والجرم — ويمارس هذه الصناعة اليوم كثير من الفضلاء جعلوا نصر الحق نصب أعينهم وان دخل فيها جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب لا يهمهم الا الحصول على الدرهم والدينار بأى وجه كان يدافعون عن القضية ولو علموا ضعف أساسها ويتقدمون عليها ولو بدا لهم عدم نجاحها ويقفون ضد الحق وان كان جليا فأولئك ليسوا من المحامين فى شىء وشقاء الأمة بهم أكثر من نفعها — فيجب على المحامى أن يكون عالما بصناعته محيطا بدقائقها وأن يكون ذا مروءة وشهامة وعفة ودين ونفس شريفة تنأى به عن الدنايا فصيح اللسان قوى الجنان مراعيا المصالح العامة جاعلا دأبه نصر الحق مرشداً للناس وهاديا لهم الى أقوم الطرق حتى يؤتمن على أمورهم ويوثق به فى شؤونهم وتملكه الأمة

قيادها وتعطيه زمامها

يأيها الشهم المحامى الألمعى ومن يراعى حكمة المشرع
عليك بالصدق وبالأمانه واحذر من النفاق والخيانه
فأنت خصم فى القضاياوحكم تهدى الى الحق كمايهدى العلم
وأنت للقاضى أجل مرشد وهو الي التحقيق منك يهتدى
وأنت قاض والقضاة تبع اذا شرحت ماتريد استمعوا
فانظر الى قولك سامى الشان وصنه عن زور وعن بهتان
واعلم بأن الله بالمرصاد لمظهر الفساد فى العباد

وبالجملة لا مشاحة فى أن للقضاء الفضل العظيم والنفع العميم لجميع المخلوقات فهو الهيئة الحاكمة التى تردع الظالم عن ظلمه وتوقف كل واحدعندحده فهو الذى ينقذ الأبرياء من مخالب الأشقياء بل هو الدعامة الوطيدة التى يبنى عليها أساس العمران ويتوقف عليها عمار البلدان واستتاب الأمن فى كل مكان وزمان فاذن هو الأنفع للهيئة الاجتماعية ولا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال بخلاف المحاماه فيمكن لرب الأمر أن يتولاه والله الموفق لهداه

٨٣

﴿ فوائد الصدق ومضار الكذب ﴾

الصدق أفضل خصال الانسان وأوضح دلائل الايمان وأجل مواهب الاحسان وأكمل نعم الملك الديان وهو دال على جلالة القدر ونزاهة النفوس وعلوّ الهمة وصلاح الشيم والشمائل وبه تمام المكارم والفضائل فمن تحلى به فقد أحرز الفضل بكماله وجمع الخير فى أقواله وأفعاله لأنه أوضح دلائل العقل وأعدل شواهد الخير وأرفع منازل البر وأقرب الى السلامة وأبعد من الملامة وأجدر بالغبطة والكرامة وقد وصف المولى به نفسه حيث قال (ومن أصدق من الله قيلا) وقال تعالى (يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقال عليه السلام (عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البرّ وان البرّ يهدى الى الجنة) وقال الشاعر

الصدق يمن ومنجاة ومحمدة فيه الكرامة والاقبال والشرف

وأما الكذب فهو أوضع كل خطة وأجمعها للمذمة والخسة وأكبرها ذلا فى الدنيا وأكثرها خزيا فى الآخرة وهو من أعظم علامات النفاق وأقوى الدلائل على دناءة الأخلاق

والأعراق لا يؤتمن حامله علي حال ولا يصدق اذا قال — قال تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) وقال عليه السلام (آفة الحديث الكذب — أعظم الخطايا اللسان الكذوب) وقال الشاعر

لا يكذب المرء الا من مهانته   أو عادة السوء أو من قلة الأدب

فالصدق أوجبه العمل وأكده الشرع وان كان لا يوجب نفعاً ولا يدفع ضراً فمن اتخذه سنة كانت له أحصن جنة وبه يتم الفضل وتكمل المروءة وتنتشر المصالح وتستر القبائح وأن الكذب رمد عين السيادة ومطفئ سراج المروءة والسعادة وموهن قوى الجلالة وسادّ طريق الاحسان ومحبط عمل الانسان وهادم بناء الايمان لأنه من الأفعال التى لا تقبلها العقول ولا تستجيزها الديانة — قال بعض الحكماء الكذب ملجأ الفجار وسبب العثار وقلما نجا منه من اضطر الى الاعتذار

فاذاً من الحق على كل عاقل والوجب على كل فاضل أن يأخذ نفسه باجتنابه وينزّهها عن سقطته وارتيابه وأن يتحرّى الصدق وان توقعه وأن يرفض الكذب وان نفعه

وبالجملة ليس الكذب فضيلة من الفضائل ولا سياسة

من السياسات كما يفهم بعض المارقين المتملقين وليس مما يعلى قدر الانسان بل بالعكس يسقط المروءة ويذهب ماء الوجه ويدل على ضعف الايمان بالله تعالى فمن اعتاد الكذب اعتاد الناس ذمه وأكثروا من السخط عليه كذلك الله يمهله حتى اذا أمسكه لم يفلته فانه ظلم نفسه وظلم الناس بجانبه لاسيما اذا كان رئيسا من الرؤساء أو ممن يفهم فيهم الناس أنهم ناصحون أمناء — قال تعالى يصف حال الكذابين يوم تجزى كل نفس بما كسبت (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة) وان الكذاب الذى صار الكذب خلقا له وليس ببعيد فان العادة طبع ثان كما قرّر الفلاسفة لا إخال باله يصفو يوما لأنه بعيد عن الحقائق راكب سفينة قل أن تنجو به وممتط مطية قلّ أن تصل به الى حيث يريد — قال حكيم

لى حيلة فيمن ينـ ـم وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليلة

وفى الحديث الشريف (الكذب رأس كل خطيئة) ومما روى أن رجلا أتى الى النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فى الاسلام فقال يا رسول الله انى أعمل من الخطايا ما لا يمكننى أن

أبتعد عنه فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام أتعاهدنى علي ترك الكذب قال نعم فلما ذهب الرجل وأراد أن يشرب الخمر قال فى نفسه أنا ان شربت الخمر وسألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فبم أجيب وقد دخلت فى الدين ان أجبت بنعم أقام علىّ الحد وان أجبت بلا فقد كذبت وقد عاهدنى على ترك الكذب اذاً فلأتركنه فتركه وكذا بقية الموبقات وحسن اسلامه

ولكنما الصدق فضيلة حسنة لا يحصد غارسها فى نفسه الا أثماراً طيبة وخيرات جزيلة وقد حث الله تعالى عليه فى القرآن الكريم اذ قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال يمدح أهله (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) وقال عليه الصلاة والسلام (الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان أمنته)

٨٥

﴿ أيهما الأنفع للهيئة الاجتماعية الطبيب أم المعلم ﴾

ان المولى تبارك وتعالى خلق الانسان ضعيفا مجرداً من

العلوم والمعارف لا يميز بين الغث والثمين قابلا لطوارئ العلل والأسقام تائها فى لجج الضلالات والأوهام يخبط فى أموره خبط عشواء لا يميز بين السراء والضراء فمتى وصل ليد المعلمين العلماء سلبوا جهله وقادوه الى الهدى والاهتداء وأما الأطباء فيصلحون الأجسام من العلل والأسقام بالأدوية والعقاقير وكلاهما لا يسد مسد الآخر فى التدابير

وحينئذ لا تفضيل بينهما والحاجة ماسة لكليهما وانما التفضيل بمقارنة نتائج أحدهما بالآخر وهى تقضى بتفضيل المعلم على الطبيب اذ هو مقوّم للروح الحاكمة على البدن -- ولا ريب فى أن الروح أشرف من الجسم وأعلى . كيف لا وأن الطبيب حسنة من حسنات المعلمين الأعلام فمقامهم بين العالم فوق كل مقام ولهم الشرف الأسمى والاحترام

٨٥

﴿ وصف الامتحان المنعقد بنظارة المعارف ﴾

فى منتصف الساعة الثانيـة صباح يوم الاثنين الموافق عشرين ربيع الآخر سنة ١٣٢١ دقت الأجراس فاندهشت منـا الحواس وتسلط فى قلوبنا الوسواس من هول محفل

الامتحان وما أدراك ما الامتحان ان هو الا يوم لا ينفع فيه خل ولا رفيق ولا مال ولا صديق الا من أتاه بقلب عليم وذوق سليم (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)

فدخلنا الى الخيام وكأننا سقينا كأس الحمام وأخذ كل منا مضجعه وعرف كل واحد نمرته وموضعه ورأينا لجانا معقودة وأبوابا مسدودة وقسوة سائلين وتشديد مراقبين وطلبة يهمسون ولا يتنفسون فاستولى علينا الشيطان وتحققت الأذهان من الحرمان واستوى الجاهل وذو العرفان والشجاع والجبان فى هذا الميدان الا انى تسابقت تسابق الفرسان فى المضمار وأعربت بكل لسان عن وجوه الاضمار وثبت قدمى وأطلقت لسان قلمي وحليت الطروس باللطائف وطرزته بالظرائف وكشفت نقاب المعضلات وحللت صعاب المشكلات فلله الحمد من قبل ومن بعد اذ رميت السهام لنيل المرام وأصبت المرمى فى نهاية الامتحان الذى يكرم فيه المرء أو يهان

***

٨٦

﴿ التاريخ وفوائده ﴾

ليس بانسان ولا عاقل　　من لا يعى التاريخ فى صدره
ومن وعى أخبار من قبله　　أضاف عمراً الى عمره

التاريخ مرآة الأعصر الغابرة والحاضرة به ينير العقل ويحيي القلب ويلجم الارادة ويدعو الى المقاصد الحسنة وهو نور الحق وحياة الذكر ومدبر الحياة ورسول القدم — فبه معرفة أحوال الأمم وبلدانهم وعاداتهم وأعمالهم المادية والأدبية وصنائعهم وأنسابهم الى غير ذلك فيعتبر بأحوالهم الماضية والتنصح بها قال تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر) وقال عز شأنه (وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) وقال الامام علىّ لابنه الحسن رضى الله تعالى عنهما (أى بنى انى وان لم أكن عمرت عمر من كان قبلى فقد نظرت فى أعمالهم وفكرت فى أخبارهم وسرت فى آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأنى بما انتهى الىّ من أمورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره

ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل أمر نخيله وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله)

وبالجملة التاريخ أجلّ العلوم قدراً وأجلاها فى ظلمات الحيرة بدراً يكسب صاحبه النباهة حتى يفوق أمثاله وأشباهه فيحوز المراتب العلية ويفوز بالمطالب السنية اذ به تستنير الفكر والألباب وتعلم حوادث الأزمنة والأحقاب وبمرآته ينكشف مادوّنه الأوّلون من العلوم والصنائع ويظهر ما خفى من أحوال القرون السالفة وأخبار الأمصار الجامعة وما فيها من الآثار والمنافع فهو أعظم مربّ للانسان يدعو الى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل فاذاً هو مدرسة عامة تسمو فيها العواطف وتشرف الاحساسات التى عليها المعوّل فى ارتقاء الأمة الى أرفع الدرجات وهو الضامن الوحيد لتهذيب النفوس وتوسيع المدارك

٨٧

﴿ علوّ الهمة من الايمان ﴾

المعالى وما أدراك ما المعالى — المعالى نداء الأحرار ونبات الأفكار مطية العقلاء وتاج الملوك وشعار الأمراء ومنار الفلاسفة والحكماء ومقصد الأدباء والشعراء فهى

غاية مطلبهم وجلّ غرضهم وكلهم يسيرون اليها كالأسود الظافرة لا يرهبون خطراً ولا يقدمون حذراً

دعيني أجدّ السعي فى طلب العلى فأبلغ سؤلى أوأموت فأعذرا

فللمعالى سبل خطرة حرجة المسلك لا يظفر بها الا المقدام الجسور ولا يتغلب علي عقباتها الا الحرّ الصبور

لا يمتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا

والرجل الخامل ينظر الى المعالى من بعيد وهى بين يديه أقرب من حبل الوريد

اذا ما تمنى المرء ادراك غاية عليه باهمال التقاعد والكسل

فلا تبلغ الغايات من دون همة ويحظى بها الانسان بالكد والعمل

وأول السبل الى درك المعالى هو الاقدام والتعب فالذى لا يقدم على الأمر الخطر بكل عزمه لا يناله والذى لا يتعب فى غايته ولا يسقيها من ماء فكرته ان يدركها وكيف يرقى العلا من طبعه الكسل

يامن يسامى العلاعفواً بلا تعب هيهات نيل العلى عفواً بلا نصب

فلقد جعل الله سبحانه الراحة فى بساط التعب والمجد من شامخات المصاعب وتاج العلى علي هام المجدّ المجاهد — قال عليه السلام

(لا تأتونى بأنسابكم وائتونى بأعمالكم) وقال الشاعر

دعينى أنل ما لا ينال من العلى فسهل العلي فى الصعب والصعب في السهل
تريدين ادراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل

وقال آخر

ان كنت تطلب عزاً فادّرع تعباً أو فارض بالذل واختر راحة البدن

ثم ان الاقدام والتعب لا يصلحان للنجاح الا اذا رافقهما حكمة ودراية واستقامة وثبات وصبر وحسن أخلاق

فقلّ من جد فى أمر يحاوله واستصحب الصبر الا فاز بالظفر

فمن شمر عن ساق الجدّ وجد مفتاح الجدّ ومن عشق المعالى عانق العوالى ومن جلب درّ الكلام حلب درّ الكرام ومن ركب الأمل الواسع لم يستبعد المحل الشاسع

وقصارى القول أن ترقى الأمم بعلوّ الهمم

كل له غرض يسعى ليدركه والحرّ يجعل ادراك العلى غرضه

وقال آخر

ولم أر فى صفات الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

***

٨٨

﴿ مضار الحرب وفوائد السلم ﴾

الحرب الحرب وما أدراك ما الحرب هى باعث الهول والكرب والطعن والضرب أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى وهى خدعة يوم لك ويوم عليك

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب شرارها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت مكروهة للشم والتقبيل

كيف يفعل الانسان فعل الوحوش الضارية فيقتل النفوس البرية ويترك البلاد متخربة خالية قتل الانسان ما أكفره وما أشره وما أصلبه وما أكثر طمعه فى ملك غيره وحسده فقاتل الله الطمع المجلب للخراب المسفك للدماء المزهق لأرواح العباد المهدد لشوكة الامارة المدحض لنموّ الزراعة والصناعة والتجارة المضعف قوّة أسباب الارتقاء المفرّق الأبناء من الآباء والآباء من الأبناء

بخلاف السلم فان به تأمن العباد على الأموال والأولاد وترتقى البلاد وتمنح المجد والاسعاد وينتشر العمران وتوطد

دعائم الأمان وتنتظم سلوك الوفاق وتنفصم عرى الشقاق

وبالجملة فالحرب ميدان تسفك فيها الدماء — ميدان الكر والفر تمشى الجنود الى ميدان الحرب وهى تبكى وتودّع من الدنيا نادمين على ما قدّمته يداهم من الشر فرحين على ماجنوه من أعمال الخير يمشون ودمع العين ليس له انقطاع — قلوبهم راجفة أبصارهم خاشعة ولسان حالهم يقول أهذا يوم الحشر والميزان أهذا يوم الزحام أهذا يوم الوعيد أهذا اليوم الذى سنقف فيه بين يدى الله ويسأل كل منهم على ما قدّمته يداه لا حول ولا قوّة الا بالله انا لله وانا اليه راجعون — واذا تقابل الفريقان وانتشبت الحرب بينهما واشتبكت السيوف واضطرمت النيران واتقدت نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض وزلزلت الأقدام من ولولة الانجاد ورنين القسى وقراع الرماح وأقبلت الآجال تفترس الآمال أمطرت السماء رصاصا وأظلم الجوّ واكفهرّت السماء وصمتت الألسنة ونطقت الأسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب وأُقدمت الرماح على الخطط الصعاب وتلاصقت القنا والقنابل وتعانقت الصوارم والمناصل وبلغت القلوب الحناجر وأدركت

السيوف المناصر وضاق المجال وتحكمت الآجال فلاترى الا رءوساً تندر ودماء تهدر وأعضاء تتطاير وتتناثر وأجساماً تتزايل وتمايل حتى ثملت الرماح من الدماء فتعثرت فى النحور وتكسرت فى الصدور وكثر أنين القتلى وجرت أنهار من دمائهم تسبح الواحد الديان

ترى كثيراً من الجنود فى ساحة القتال ملقية على الأرض قتلى وجرحى يئنون من كثرة الألم ترى الواحد منهم رافعاً يده مشيراً بها على ما أصابه واضعاً الأخرى على قلبه متحسراً على ما ناله فهذا شاب كان يفتخر بشجاعته وصارت الوحوش تأكل لحمه

فما أرخص القتل فى ساحة القتال وأرخص الرجال الشبان وأكثر الشرك بالله فبئست الحرب فانها كلمة ترتجف عند سماعها قلوب الملوك وتشيب لرؤياها الخفود

بئست مصائبها ودواهيها العظمى فانها توقف أحوال التجارة وتعطل المعامل والشركات وتكثر المشاكل والمنازعات والحروب الداخلية والنهب والسلب والقتل

٨٩

﴿ فوائد المشورة ﴾

تأن وشاور فان الأمو ‌ ‌ ‌ ‌ ر منها جليّ ومستغمض
فرأيان أفضل من واحد ‌ ‌ ‌ ‌ ورأى الثلاثة لا ينقض

المشورة واجبة على كل ذى حزم متعينة على كل ذى لب وفهم وهى حصن من الندامة وأمان من الملامة وأحمد للرأي وأنجح للسعى فالمستشير على طرف النجاح والمستبد تلعب به الرياح والمشورة مع السداد والسخافة مع الاستبداد قال تعالى (وشاورهم فى الأمر) وقال عليه السلام (ماخاب من استخار ولا ندم من استشار) وقال عليّ رضى الله عنه (نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد) قال الشاعر

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ‌ ‌ ‌ ‌ برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاصة ‌ ‌ ‌ ‌ فان الخوافى قوّة للقوادم

فالمشاورة لقاح العقول ورائد الصواب ومن شاور عاقلا أخذ نصف عقلة — وهى عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه ومن أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذراً — وحينئذ لا عذر لأحد فى ترك المشورة وان كان من

أهل العقل والرشاد وذوى الرأى والسداد فان المشاور قد يكون له فى بعض الأمر هوى ولبعض الوجوه ميل فربما جنح الى هواه ومالَ الى ميله والمستشار انما يعطيه لباب عقله وصفو رأيه وخالص نظره — قال بعض الحكماء من استشار أهل العقول أدرك المأمول

شاور سواك اذا نابتك نائبة يوما وان كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها مادنا ونأى ولا ترى نفسها الا بمرآة

وبالجملة ان فى المشورة سعادة عظمى وحياة طيبة — قال تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) وقال لقمان لابنه وهو يعظه (يابنى اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة الى فعله فقال ابنه كيف أجعل عقل غيرى لى قال تشاوره فى أمرك) وقيل للأحنف بأى شيء يكثر صوابك ويقلّ خطؤك فيما تاتيه من الأمور وتباشره من الوقائع قال بالمشورة لذى التجارب ومخض زبدة الآراء

وقد قيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم

وقال الشاعر

الرأى كالليل مسودّ جوانبه * والليل لا ينجلى الا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى * مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه فى المشورة سبع خصال استنباط الجواب واكتساب الرأى والتحصن من السقطة وهى حرز من الملامة ونجاة من الندامة وألفة للقلوب واتباع للأثر ولكنما الانسان لا يشاور كل أحد بل من كان فيه ذلك غير آخذ رأى جاهل وعدوّ وحسود ومراء وجبان وبخيل وذى هوى

فالمرء اذا شاور اخوانه فى شؤونه أغناه ذلك عن كثرة التجارب ووفر عليه جزءاً كبيراً من أوقاته وأظهر له صديقه من عدوّه وما شرعت تلك الفضيلة فى الدين الا لحكمة عمرانية قد ظهرت جليا منذ ظهور الاسلام فان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأخذ آراء أصحابه فى الأمور المهمة — اذ من الثابت أنه استشار فى أسارى بدر فأشار أبو بكر بالفداء وأشار عمر بالقتل فعمل برأى أبى بكر وكذلك الصحابة كانوا يتشاورون

ولم نر المجالس الشورية الرسمية التى أصبحت الأمم تتغنى

بها الا من الاسلام ومن قاموا بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بتأسيس مجلس شورى بعد موته لينتخب من يكون أميراً وقد انتخب عثمان رضى الله عنه — ولم يقطع دابر الاستبداد ويضرب على أيدى المستبدين الطاغين الا الشورى التى قيدت كل مطلق — وها هى الأمم قد أصبحت تحكم نفسها بنفسها وتقترح على حكومتها ماشاءت أن تقترح موسطة فى ذلك المجالس الشورية ولو حافظ المسلمون على هذه الدعامة الكبرى والأساس المتين لما تقوّض مجدهم ولا سقطت دولهم

٩٠

﴿ الزراعة وفوائدها ﴾

الزراعة هى الأم المغذية والمادة المقوية لنوع الانسان وسائر أنواع الحيوان فهى مادة الحياة وروح المدنية وقوام الحضارة قال الله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء — وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله — ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك

لآية لقوم يتفكرون - وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها) وقال عليه السلام (ما من مؤمن غرس غرساً فأكل منه انسان أودابة الا كان له صدقة) وقال أيضاً (التمسوا الرزق من خبايا الأرض) وقال الشاعر

اذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط فى زمن البذر

ولرفعة شأنها وعظيم مزيتها اعتنى بها قدماء المصريين حتى أنهم لم يدعوا قدر شبر من أرض الا عمروه بالزراعة -- وذكر المؤرخون أنه قد كان من أصول دولة الفرس أن يبرز الملك بجلالته مع أعيان أهل دولته ويباشر حراثة الأرض بنفسه فى أول يوم من أيام السنة تنويهاً بشرف الزراعة وتنبيهاً على ما يقتضى لأهلها من التشويق والشجاعة

وقيل لعثمان بن عفان رضى الله عنه أتغرس بعد الكبر فقال لأن توافينى الساعة وأنا من المصلحين خير من أن توافينى وأنا من المفسدين -- وقيل لأبى الدرداء وهو يغرس جوزة أتغرس بعد الكبر وأنت شيخ وهى لا تطعم الا بعد عشرين سنة أو ثلاثين فقال وما علىّ الا أن يكون الأجر لى والهناء لغيرى

وقيل فلاح المعيشة فى الفلاحة

٩١

﴿ فوائد النباتات والأشجار ﴾

من النعم التى لا تحصى ولا تكاد تستقصى النباتات التى منها الأقوات والأدوية والفواكه والملابس والزينة والعلف والرعى والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وانشاء السفن وغير ذلك من الأعمال التى يطول تعدادها والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح وقد أودع الله فيها من البركات ما صير الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل وجعل الأشجار والثمار والأزهار مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فتجلى عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها — ففيها منافع مختلفة التأثير منها ما تقوى به القلوب ومنها أغذية تحفظ الحياة وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها

ومن حسنات الأرض علي بنى الانسان التى أبرزتها الزراعة تلك الأشجار التى شابهت الانسان فى أطواره ونشأته

حتى اذا انضجت واستوت علي سوقها وتفرّعت غصانها أمدّت الانسان بكثير من الفوائد وجزيل من المنافع يجنى الانسان منها الثمار التى يتفكه بها مما لذّ طعمه وطاب جناه (تسقى بماء واحد وتفضل بعضها علي بعض فى الأكل) وأزهاراً يانعة ذات عرف شذىّ ورائحة زكية يستخرج منها المياه العطرية ويستعمل بعضها فى الأدوية الطبية مما يكون شفاء للأمراض ومزيحاً للعلل ومنها تتكوّن الحدائق الغناء ترى الأشجار فيها وارفة الظلال قد تمايلت أغصانها واهتزت أفنانها وأينعت أزهارها ودنت قطوفها تضوّع المكان بطيب نشرها وتنعش النفس برونقها — فاذا هب النسيم وتناوحت الاغصان تعطرت الأرجاء وتمثلت الجنان فى الرياض وبها يستظل الانسان من الشمس فتقيه حر الهجير — وتغرس فى حافتى الطرق لهذه الفائدة فتكسبها رونقاً وزينة وتلطف هواءها وتنقى جوّها فما دامت قائمة علي ساقها تمدّ الانسان بالمنافع المختلفة والفوائد المتنوّعة حتى اذا انقضى أجلها قطعت منها أخشاب ذات فوائد عظيمة تستعمل فى الأبنية والمنازل والأدوات المختلفة التى لا يستغنى عنها مكان وتصنع منها السفن التى تمخر

فى البحر وتشق بحيزومها عباب المـاء وتكاد شراعها تصافح السحاب فتسير فى البحار وهى الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام تحمل فى جوفها الناس والبضائع وتنقل الأخبـار من مشارق الأرض لمغاربها كما يستعمل الخشب فى الوقود وغير ذلك من الفوائد التى تمتع بها الانسان وقضى منهامآربه

٩٢

﴿ البخار وفوائده ﴾

ان قوّة البخار شاملة أهم الصنائع والأشغال ونشاهد قدرته الباهرة — من ذلك سير البواخر البحرية وقطر السكك الحديدية والمطابع والعمل فى المناجم والغزل والنساجة وغير ذلك

فلاستخدام البخار فى السفن وحدها قيمة لا تعدلها قيمة اذ أغنتنا السفن البخارية الآن عن الرياح واختلاف الفصول فضلا عن اسعافها لنا على تقصير المسافات بسرعتها الفائقة

وللبخار أيضاً عمـل يذكر فى الأسفار البرّية فيحمل الانسان على جناحه براحة وسرعة يعجب منهما وقد أحيا مدنا وأمصاراً زاهرة وحاك للبشر المنسوجات ووفر البضائع فهبطت أثمانها ونقلها براً وبحراً بأجرة رخيصة ووصـل بعض البلاد

ببعضها صلة موثوقة العرا وأراح الناس من أتعاب لا حدّ لها ولا نهاية ووزع فى الوقت نفسه الأشغال والأعمال على جموع وجماهير تعدّ بالملايين

تلك قوّة لا يعتريها الكلال فتدأب فى العمل نهاراً وليلا اذا غذيت بالوقود وتقوم بواجباتها قياما دقيقاً وقد أمست الآلة البخارية مسعفة للانسان ومساعدة له فى جميع أحواله فلا بدع اذا قلنا ان البخار رقى بالعالم المتمدن الى ذروة المجد والفخر

وبالجملة ان البخار هو القوّة العظمى التى ظهرت منها العجائب وبدت الغرائب فتكاثرت بها أعمال الصناعة وأخصبت أرض الزراعة وراجت أسواق التجارة واتسعت طرق الثروة وكثرت أنواع النعمة — من ذلك الآلات البخارية التى تروى مقداراً عظيما من الأرض مع السهولة والراحة وبذلك تضاعفت ثمرتها — ومنها قطارات السكك الحديدية والسفن البحرية والطواحين وآلات البخار التى تدار بها معامل المصنوعات والمنسوجات والمطابع وغير ذلك من ثمرات البخار وقوّته التى تحار فى وصفها الأفهام وتعجز عن حصرها الأقلام

***

٩٣

﴿ التجارة وفوائدها ﴾

التجارة تاج الأمارة وينبوع البركات والأرباح توفيقات بها تزيد ثروة البلاد وتتوفر أسباب الرفاه للعباد — قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم) وقال تعالى (وأحلّ الله البيع وحرّم الربا) وقال عليه السلام (أطيب ما يأكل الرجل من كسبه والكسب فى القرآن التجارة) وقال عليه السلام (التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وقال عليه السلام (تسعة أعشار الرزق فى التجارة)

كن تاجراً حراً بأى مال ... ولا تكن مستخدماً بحال
وكن اذا تاجرت ذا اداره ... لتدرك الربح من الخساره
واجتنب الربا وصنع الغش ... فان مولاك شديد البطش
فان بالتجارة الأناما ... نالوا المنى وحصلوا المراما
فهى قوام الملك والعباد ... فى كل موطن وكل ناد
وهى لعمر الحق لولا الخطر ... أول ما به الفتى يفتخر
لاسيما مع العفاف والشرف ... وصون رأس المال من داعى التلف

والحق ان التجارة لجديرة بمزيد الاعتبار فان فيها غنى لأولى الأبصار ولذلك الأمم التى فى مقدمة التمدين حريصة على جميع ماينمى أسباب التجارة ويزيدها اتساعا وازدهارا ومهارة هذه دولة انكلترا ما نالت نفوذها فى كثير من الممالك الشرقية الا بتجولها فى البحار للتجارة ولأهميتها قد اعتنت الأمم الغربية بتلقينها لأبنائها فى مدارس خصوصية أنشئت لذلك

وبالجملة التجارة لها تأثير جلى وسبب قوى على التمدين والخيرات فى جميع الأوقات لأنها رسول التعارف ومنهل التآلف تزيد البلاد فى المال نموا ورفعة وعلوا وبعدما تكون فقيرة حقيرة تصبح غنية خطيرة ثم انه يلزم التاجر رأس مال كاف لعمله وأن يختبر أولا الأصناف التى يريد أن يتجر فيها ويخالط أهلها ويعرف مصدر ورودها ومقدار اللازم منها وما يلزم لها من العمال الأصدقاء ويخصص لها مكانا تروج فيه ويرتبها ترتيبا سهل التناول ويرصدها فى دفاتر سهلة المراجعة ولا يستدين أكثر مما يمكن أن يقوم بوفائه فى مواعيد سداده وألا يبيع بالدين الا لكل مؤتمن موثوق به فى حسن المعاملة .

سبل المعيشة فى الحياة كثيرة وعظيمها عند الرخاء تجارة

فهى الشهامة والكرامة فى الورى   والمرء فى دار الحياة كرامة
لا خير فى عيش اذا لم ترعه   عند التناول فى المقام سلامة
وبها يعيش المرء حرا سالما   لا يعتريه من السخيف ملامة

٩٤

﴿ الصناعة وفوائدها ﴾

المعارف تتنوّع حسب مواضيعها فمنها مايحسب مركزها الخصوصى النفس الانسانية الخالدة وهذه تسمى المعارف الدينية ومنها ما يعدّ مركزها الخصوصى العقل البشرى وهذه تسمى المعارف العلمية ومنها مايختص بالقوى الجسدية والحواس وهذه تدعى المعارف الصناعية وهى أفضل وأجلّ الوسائط لتقدّم البلاد ونفع العباد ودعامة الحضارة وارتقاء الأمارة وتوطيد مركز الادارة ومنبع الثروة والغنى وغاية التقدّم والمنى بل روح العمران وتاج السلطان وحمى الأوطان وراية الأمان فى كل زمان ومكان — وقد قيل صناعة فى اليد أمان من الفقر وحرفة المرء كنزه — وقال الامام عمر بن الخطاب انى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عينى

أفادتنى الصناعة كل عز   وهل عز أعز من الصناعة

وللصناعة الأسبقية (عددا) لكثرة فروعها ووفرة معداتها ونتائجها . والأسبقية (رتبة) بالنظر الى سعة علومها ويانع أثمارها ودقة أصولها وسموّ درجاتها ولها من طول الباع فى اسعاف ما سواها من المهن ما يعزز مقامها ويؤيد شرفها مدى الأيام وكل بلاد تروم التقدّم والارتقاء أدبيا وماديا تجد أن المفتاح لما ترومه الاعتناء بالصناعة

ان الصنائع والفنون كلاهما ... مما به الانسان قدرا يرفع
وهما الوسيلة للسعادة فاشتغل ... بهما فانك للبلاد ستنفع
واختر لنفسك ما يكون صنيعه ... حسناً فقيمتك التى قد تصنع
ودع التكاسل والبطالة انها ... سبب يعوق عن المعاش ويمنع

٩٥

﴿ تكوّن المطر ﴾

المطر هو قطرات الماء الحاصلة من البخار الذى يصعد الى الجوّ فيصير غيوماً وسحباً تسوقها الرياح بين القبة الزرقاء وسطح الأرض على أبعاد مختلفة — وعند ما تبلغ هذه الغيوم والسحب بعد ميل أو ميلين ارتفاعا تبردو تنخفض درجة حرارة الهواء فلا يستطيع حملها فتجتمع دقائق هذه السحب منضما

بعضها الى البعض الآخر فتتكوّن منها قطرات المطر فتسقط لكونها أثقل من الهواء الكروى — والغيوم فى الجوّ عند سيرها كثيراً ما تصادم رءوس الجبال وأحيانا تتغير جهة سيرها أو تصب ما فيها من البخار مطراً على رءوسها وجوانبها

وقد يحدث المطر أيضاً من مصادفة السحب مجارى رياح درجة حرارتها أوطى من درجة حرارة الغيم السائح — وكثيرا ما تجمد الأمطار عند انحدارها بسبب شدة البرد فتنزل برداً أو ثلجاً فسبحان الخالق العظيم

٩٦

﴿ الماء وفوائده ﴾

مما أنعم الله به على عباده الماء العذب الذى به حياة كل من علي وجه الأرض من حيوان ونبات . قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون) وقال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) وقال الشاعر

وعارض مبتسم قد استهل ... ومدّ أطناب الغمام وأظل
حتى اذا أثرى الثرى من وبله ... وأخصب الجدب تولى وارتحل
كم أنزل الله لنا من رحمة ... ومن حياة بحياه اذ نزل

فهو الذى أغاث الأنام وأروى الهضاب والآكام وأحيا النبات والسوام وجعله مزيلا للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب والمكان

وبالماء يبل التراب فيصلح للأعمال والبناء وبه يرطب كل يابس ويستعين به كل زارع وغارس وتطفأ به النيران ويرتوى به الظمآن والعطشان من انسان وحيوان فى كل زمان ومكان وتصلح به المطبوخات وغير ذلك من جميع الموجودات تلك حكمة الحكيم العليم فسبحانه وتعالى المتفضل العظيم

وبالجملة فالماء من أجل النعم الآلهية وأعظم المنن على كافة البرية التى لا تقدر أن تقوم بشكر المنعم عليها بعشر المعشار ولو أنفدنا فى ذلك الأقلام والبحار فقد جعله الله تعالى حياة كل شىء وجعل نفعه عاما لكل موجود ولم يجعله ملكا لأحد من الوجود ولذا امتنّ به علي عباده امتنانا فى الكتاب مسطورا فقال (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) فبه يزول ظمؤنا وبه يعود ما ينقص من كمية الماء فى الدم بسبب التبخير والتبول وباقى الافرازات

***

٩٧

﴿ اللغة العربية والتاريخ ﴾

اللغة هى الألفاظ التى بها يحصل التفهيم والتفاهم — والتحقيق أن المولى سبحانه خلق آدم متكلما بلغة نجهل تعيينها وأنها لم تزل واحدة حتى كثر عدد أولاده وضاقت بهم أرض شنعار[1] التى نزلوها بعد الطوفان فعزموا أن يبنوا هنالك مدينة عظيمة يرفعون بها برجا يناطح عنان السماء ثم يتفرّقوا — ولما كانت نيتهم بذلك غير حميدة أحبط الله مسعاهم وبدل لغتهم بلغات أخرى فلم يعد بعضهم يفهم كلام بعض فكفوا عن العمل قبل اتمامه وتبدّدوا فى مشارق الأرض ومغاربها ولما يحصلوا مأربهم وقصد كل فريق جهة فنزل نسل سام بآسيا ونسل حام بأفريقا ونسل يافث بأوروبا ولكن لم يستمرّ أهل كل جهة متحدين فى الرئاسة واللغة مجتمعين بمحل واحد بل انقسموا الى أقسام شتى وتوزّعوا فى جهات مختلفة وصار لكل شعب على مدى

(١) أرض شنعار هى الصحراء الكبيرة الممتدة شرقى دجلة بين بغداد والموصل وفارس حيث كانت مملكة بابل وأشور تنقسم اليوم أقساما كثيرة منها الكردستان وأذربيجان وهمدان

الأزمان لغة خاصــة به وعوائد تلائم طبائع اقليمه وأحوال
تشاكل أغذيته واحساسات تضاهى مؤثراته وشعور يوافق
مناظره الى غير ذلك مما توجبه مشتملات الأقطار ومواقع
القرى والأمصار — ولم تزل كل لغــة تترقى شيئاً فشيئاً مع
اتساع الاجتماع الانسانى يتناقلها قوم ويزيد فيها آخرون حسب
تجدد الأمور ومقتضــيات الأحوال حتى بلغ كل قوم من
لغتهم ما يحتاجون اليه

ثم ان اللغات تنقسم باعتبار الاستعمال وعدمه الى حيــة
وميتة فالثانية ما تكلم بها بعض الأقوام ثم أهملت ولم يبق لها
أثر الا فى الــكتب كاللاتينية والعبرانية والقبطية . والأولى
هى التى دام استعمالها وعددها ألفــان ونيف وأهمها العربية
والأفرنسـية والانجليزية والألمــانية والروسـية والايطالية
والصينية — والظاهر أن العربية والسريانية والعبرانيــة من
أصل واحد بدليل شدة المشابهة بينها فى كثير من الأمور
كالاشتقاق والتصريف وأنها سامية الأصل فان أول من تكلم
بها بنو سام الذين لم يختلطوا بغيرهم من أولاد عميهم منذ تفرقهم
ولم تمــكث العربية أن أخذت تنتشر بانتشار أهلها فى شبه

جزيرة العرب حتى أصبحت أكثر اللغات ألفاظاً وأوسعها
تراكيب وأعظمها اتقانا — غير أنه لما تألفت القبائل ومضى
عليهم دهر طويل لا كتابة عندهم ولا رابطة بينهم اختلفت
لغة كل قبيلة عن غيرها ونشأ عن ذلك تعدّدها — فمنها لغة
قريش ولغة تميم ولغة طىّ وهلم جرا غير أن ذلك الاختلاف
لم يكن الا قليلا فى بادئ الأمر لزيادة المشابهة بين أحوالهم
وقرب منازلهم فقد كان بابدال حركة بأخرى ككسر الكاف
فى نحو عليكم وبكم فى لغة ربيعة أو بابدال حرف بآخر كابدال
الحاء عيناً فى لغة هذيل وابدال كاف الخطاب سيناً مع المذكر
وشينا مع المؤنث فى لغة مضر وابدال لام أل ميما فى لغة حمير
أو بالحذف كاسقاط همزة التكلم وأحرف من أواخر بعض
الكلمات فى لغة بعضهم فيقولون أنا كرمك فى أنا أكرمك
واجتمعت القبى فى اجتمعت القبيلة أو تخفيف الهمزة فى لغة
تميم فيقولون فار وبير وشوم فى فأر وبئر وشؤم كالاختلاف
الواقع أيامنا فى جهات مصر فترى بعض سكانها يبدلون الباء
الساكنة ميما اذا تلاهانون فيقولون فى ابن وجبنة وتبن امن
وجمنة وتمن وبعضهم يبدلون الميم باء فيقولون اقعد بكانك أى

مكانك ومنهم من يبدل العين المتلوة بالطاء ميما فيقول فى أعطانى أنظانى ومنهم من يغير الخاء غينا فيقول غبر غير فى خبر خير ومنهم من يجعل الميم دالا فيقول دئت من الدبل فى جئت من الجبل ومنهم من يحذف أواخر الكلمات فيقول يا محمو لا تقف فى الطرى فى محمود وطريق ومنهم من يكسر التاء والياء والنون من أحرف المضارعة اقتداء بما كان عليه قبيلة بهراء وهو كثير فى الكلام المعتاد — وطال ذلك الاختلاف بين العرب حتى أفضت بهم الحال الى أن اختلطت على بعضهم لهجات بعض وصارت أغلب القبائل تستعمل فى تأدية المعنى كلمات غير متداولة فى القبائل الأخرى وأصبح التفاهم فيما بينهم بلغة واحدة أمراً بعيداً

ولما كانت العرب مجبولة على الغيرة وحب الافتخار بأنسابهم وأحسابهم وشجاعتهم ومهارتهم فى الفروسية وانتصاراتهم فى الحروب وغير ذلك من الأمور التى كانت ولم تزل من أسباب الفخر حملهم ذلك على القاء الخطب فى المحافل وانشاد القصائد يظهرون بذلك فضلهم وتقدمهم على غيرهم — ومن نبغ منهم يلقب بالخطيب وحصل شرفا عظيما بين

أبنـاء جلدته خصوصا اذا كان شاعراً فانهم يحلونه أرفع محل ويحسبونه فخراً لقبيلته وحماية لأعراضها وذوداً عن حقوقها به تخلد مآثرها ويعلو قدرها ويذيع صيتها فلذا كان له النفوذ التـام واليه ينتهي الحل والابرام — الحسن ما حسنه والقبيح ما قبحه يرفع الوضيع بمدحه ويخفض الرفيع بذمه . بكلامه يأخذون ويستشهدون واليه يرجعون وعليه يعتمدون . فنتج من ذلك بحكم الطبيعة تنافس شديد بين الشعراء والخطباء من كل قبيلة وأحب كل واحد أن يظهر على صاحبه ويختص دونه بالمفاخر ومن ثم أنشأوا محلات صغيرة يجتمعون فيها لانشاد الأشعار والقاء الخطب يقدمون من يحسن انشاده ويجيد مقاله ولم تزل هذه الجمعيات تتسع قليلا قليلا حتى اختاروا لها مواضع معينة شاسعة الأرجاء يسهل على كل أحد حضورها كعكاظ ومجنة وذي المجاز وكانت الرئاسة في هذه المحافل لأهل قريش دون غيرهم لـكون لغتهم أفصح لغات العرب وأخلصها من شوائب العجمة لبعدهم عن مخالطة الأجانب من جميع جهاتهم فـكان الرجل يقول الشعر في أنحاء بلاد العرب فلا يحفل به حتى يأتي احدى هذه المجامع في أوقاتها — وقد اجتمع رؤساء

القبائل وساداتها وعرفاؤها والجم الغفير من الفرسان وغيرهم ثم يقوم أمام الجميع وكل يرمقه ببصره حارصا على ما يلقيه مصغيا الى ما يبديه فينشد ما شاده وأحكم بنيانه فان استحسنه رؤساء المحافل أقروه وحينئذ يكتب بماء الذهب على المنسوجات الحريرية ثم يعلق بالكعبة كما فعل « بالمعلقات السبع » وغيرها ليخلد اسم صاحبه ويبقى على مدى الأيام رسمه ويستمر في الخلف بقايا من مآثره — وان لم يستحسنوه أهملوه ثم يرجع كل الى بلاده وقد استظهر ما وقع الاختيار عليه فيلقنه عشيرته ثم يتداولونه بينهم ويطنبون في مدح أصحابه — فكان ذلك داعيا الى المروءة وعلو الهمة والكرم والشجاعة والاقبال على عظائم الأمور والتخلق بالأخلاق الحسنة وممهداً طريقا لتوحيد لهجات القبائل وجعلها لغة واحدة مشتركة بين جميعهم لأن الشاعر اذا علم أن كلامه سيطلع عليه أهل المجمع مع اختلاف ألسنتهم وينتقده القضاة المحنكون وهم ما بين منصفين محبين ومجحفين حاسدين يبذل أقصى طاقته في اختيار ألفاظه وتراكيبه وجعلها مألوفة متعارفة للسواد الأعظم من شهود المجمع بقدر جهده — فتقدمت اللغة بواسطة تلك المنتديات تقدما حسنا

وبلغت من الجود مبلغا عظيما

ومن العرب المشهود لهم بالبلاغة أكثم بن صيفى وحاجب ابن زرارة التميمى والحارث بن عباد البكرى وعمر بن الشريد السلمى وخالد بن جعفر الكلابى وعلقمة العامرى وقيس الشيبانى وعمرو بن معديكرب الزبدى والحارث بن ظالم المرّى وامرئ القيس وطرفة بن العبد وزهير المزنى وغيرهم

***

ولما جاء الاسلام سنة ٦١٢ م (١) وانتشر فى بلاد العرب تغلبت لغة قريش على سائر لغات القبائل لفصاحتها ومجىء القرآن بها وأصبحت بعد الهجرة بنحو ثلاثين سنة هى اللغة المتداولة فى أكثر الجهات التى فتحها المسلمون فى شبه جزيرة العرب وخارجها ولكن لما اتسع الدين الاسلامى واختلط العرب بغيرهم من بقية الأمم فشا الفساد فى اللغة وخصوصا فى المخاطبات المعتادة بسبب الدخلاء والناشئين حتى خيف عليها أن تضمحل بعد القليل من الزمن ان لم تتدارك بوضع مؤلفات لحفظها وصيانتها من أيدى التلف والضياع فاستنبط

(١) وبعد مجيئه بعشر سنوات ابتداء التاريخ الهجرى

لها أربابهـا من أساليب العرب قوانين مطردة يقيسون عليها سائر أنواع الـكلام

وأول من وضع تلك الضوابط أبو الأسود الدؤلى بأمر الامام علىّ ثم تبعه الناس فزاد كل واحد على ما قبله وبذلك حفظت اللغة وأمن عليها من غوائل الافساد . الا أنها لم تتقدم فى صدر الاسلام لاشتغال أهلها بالجهاد واتجاه أفـكارهم الى توطيد أركان دينهم والقيام بشعائره حتى ان الشعر قلّ عدد قائليه وقصرت عنـه هممهم — ألا ترى أن لبيداً قائد حلبة شعراء الجاهلية حرّم على نفسه قول الشعر بعد اسلامه وأنه لما استنشده عمر بن الخطاب شيئاً من شعره أيام خلافته انطلق فـكتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتاه بها وهو يقول قد أبدلنى الله هذه فى الاسلام مكان الشعر فسرّ عمر بجوابه وأجزل له العطاء —وأن النابغة الجعدى وقد كانت له القدم الراسخة فى الشعر أيام الجـاهلية وهكذا كان شأن حسان بن ثابت رضى الله عنه وهـذه حال الـكثير من فحول المخضرمين ومن نشأ بعدهم فى صدر الاسلام

***

ثم لما آل الأمر لبنى أمية سنة ٦٦٢ م وجهوا همتهم الى مزاولة الجهاد ومدوا أيدى الفتوحات فوفروا العدد الحربية ودرّبوا الجنود على القتال فخدمتهم الأقدار وذلت أعناق الجبابرة لسيفهم البتار وعلت كلمتهم واتسع نطاق ملكهم وهابت شوكتهم سائر الأمم وخفقت لهم قلوب أعدائهم. ولم يزالوا يمدون أيديهم الى البلاد فيقتنصونها بلدة فبلدة الى أن كانوا يهددون جميع المعمورة ويمتلكون الدنيا براً وبحراً فكان لهم من ذلك كله شواغل تشغلهم عن طلب العلوم والمعارف حتى لم يكن للغة نصيب من الاعتناء الخاص بل تركت وشأنها لا تنمو الا نموّها الطبيعى تبعاً لحضارة البلاد — على أنها لم تحرم مع هذا الاهمال ظروفا وأحوالا أتيحت لها حفظها من الفساد فاستمرّت اللغة على بلاغتها — وممن كانوا فى هذا العصر عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان المقتول سنة ٧٥٠ م والفرزدق وجرير والأخطل فى عهد عبد الملك بن مروان والحجاج الثقفى

*
* *

ثم لما انطوى بساط الدولة الأموية وآلت الخلافة الى بنى العباس سنة ٧٥٠ م وانقشعت عن سماء السياسة سحب الثورات والمخاوف وبات كل من الراعى والرعية هادئا مطمئنا تحت جناح الأمن والسكينة مصروا الأمصار وشيدوا القصور وأحكموا القلاع وأسسوا الثغور حتى أصبحوا فى معاقلهم أمنع من عقاب الجو وأعز من جبهة الأسد يجنون شهد الراحة آمنين ويتمتعون بغنائم الفتوحات السالفة بعداء عن مزاحمة الطامعين فى بلادهم محصنين وراء خنادق الهيبة التى حفرها لهم أبطالهم فى قلوب أعدائهم — ولما كانوا على تلك الحال من نعيم الجسم وفراغ البال انتبهوا الى المعارف والفنون وأرادوا ممارستها فحولوا جياد عزمهم الى تحصيلها لعلمهم الفطرى أنها الأساس المتين التى تبنى عليه الممالك العظام والدروع السابغة التى لا يعمل فيها حد الحسام — بها تعز البلاد وبفقدها يستولى سلطان الذل على العباد فلا خوف على الدولة مادامت تستظل بأشجارها وتتغذى بأثمارها وانما الخوف كل الخوف من اهمال حراثتها وذهاب نضارتها — تموت باهمالها القلوب كما يموت النبات اذا لم ينعشه ماء مطر السماء — فلذا لم يوفروا نبلا فى

جعبة طاقتهم الا استعملوه ليظفروا بها ويقضوا غرضهم منها[١]
وحيث أنه لم يكن معهم حينئذ من أئمة فى العلوم الكونية ولا
كتب يستعينون بها على اكتسابها استحضروا العلماء من
كل جهة وأكرموهم ووسعوا مداخل رزقهم وأكثروا
من صلاتهم . فتعلموا منهم علوم بلادهم واستخدموهم فى
ترجمتها الى لغتهم فانتشرت روح المعارف بين الأمة وجدّ فى
تحصيلها الخاصة والعامة وضحوا أنفسهم فى سبيل المجد والمعالى
غير مبالين بشق النفس وعناء الدرس حتى لو تعلق علم ما بأكناف
السماء لنالوه بهمتهم الشماء — فما عتم أن قام منهم جهابذة أعلام
فأدجنت بينهم سماء العلوم وهطل مدرارها وجرت أنهارها

(١) اول من انتبه الى أحياء العلوم و المحافظة على آثارها هو هرون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين فقد اوصى جنوده بالمحافظة على كل ما تعثر عليه أيديهم من الكتب القديمة حتى انهم لما افتتحوا مدينة انقرة وجدوا فى خزائنها كثيرا من الكتب فاحضروها له ببغداد مسرورين فامر يوحنا بن ما سويه طبيبه ان يترجمها الي اللغة العربية ومع هذا لم يبلغ ذلك الخليفة المعظم ولا غيره درجة ابنه المامون فى بذل النفس والنفيس فى اكتساب العلوم ونشرها ورفع منارها واكرام رجالها فقد فاقهم جميعا

وزخرت بحارها وتفنن القوم فى ابداع المؤلفات حتى جاء ذلك خدمة نفيسة للعالم أجمع على حين أن الفرس واليونان والهنود وغيرهم من بنى الانسان كانت شمس علومهم قد آذنت بالغروب وأهل أوروبا أصبحوا غارقين فى الحروب منغمسين فى تيار الشهوات لاهين عن العلوم ساهين عن ايقاد نبراسها حتى أنهم لما أفاقوا من غفلتهم وهموا بالخروج من ظلمات الجهل وطلبوا النور الذى كان لأسلافهم ونبذوه هم وراء ظهورهم كادوا لا يجدون له أثرا فى غير الأديرة فالتجأوا الى العرب وتعلموا فى مدارسهم (١) واستضاءوا بنور أساتذتهم

(١) ظهرت المدارس عند العرب ايام هرون الرشيد فانه امر باقامة مدرسة بجانب كل مسجد ولكن طالما قرأ الطلبة العلوم فى خارج المدارس لأنها لم تنتظم دفعة واحدة كما هو الشان فى جميع المشروعات بل ترقت شيئا فشيئا تباعا لحضارة البلاد وانما زهت واينعت فى القرن الثامن وبلغت اوج التقدم فى الثانى عشر ثم اخذت فى التقهقر والاضمحلال حتى كاد لا يبقى لعلومهم ومدارسهم من رسم تذكر به ـ جاء فى التاريخ ان طلبة العلم من الفرنج من القرن الثامن الى الثانى عشر كانوا اذا ارادوا التبحر فى العلوم يقصدون بلاد العرب ويقرؤونها على اساتذتهم بل قيل انه لم ينبغ احد منهم فى الرياضيات فى القرون المذكورة الا بعد ان تلقاها بمدارس العرب فتأمل ....

وترجموا كتب علومهم الى لغاتهم فكان للشرق بذلك الفخر على الغربى ما بقى النيران

ولا يظن القارئ أن رجال ذلك العصر الراقى قصروا همتهم على علوم دون أخرى فانهم أطلقوا عنان جهدهم فى جميع معارف معاصريهم من الفلسفة وعلم الفلك والطب والطبيعيات والرياضيات وغيرها — ولكنهم وجهوا الحظ الأكبر من عنايتهم الى اللغة لما يعلمونه فيها من شدة التأثير فى بقية العلوم والقوة الفعالة على جمع الكلمة وربط قلوب الأمة ومنعها من الشتات. فألف فحول علمائهم جميع المؤلفات التى من شأنها حفظ اللغات وتقديمها — من قواميس جمعوا فيها المفردات — وكتب نحو ضبطوا فيها أحوال المفردات والمركبات — وبلاغة تعرف بها مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال — وعروض توزن به الأشعار الى غير ذلك من لطائف الآثار حتى كأنهم لم يتركوا من هذا الوجه منزعا فى قوس التأليف فضلا عن كونهم وسعوا دائرة مفرداتها بما عربوه عن غيرهم وتجدد بينهم من اصطلاحات العلوم والصنائع وعوائد أهل الحضارة وكمالياتهم

وممن كانوا فى هذا العصر محمد بن خلدون المغربى المؤرخ

المشهور وبديع الزمان الهمذانى وأبو بكر الخوارزمى وأبو العباس عبد الله بن المعتز وأبو القاسم الحريرى

٩٨

﴿ نهر النيل وفوائده فى مصر ﴾

نهر النيل من أعظم أنهار الدنيا طولا وأعذبها ماء وأعمها نفعاً وأرواها — يأتى الديار المصرية كل سنة من بلاد السودان والحبشة فيفيض عليها بدائع الخيرات وأجمل البركات بما يأتى معـه من الزبد وطين الطمى وهو مكوّن من أمطار غزيرة ولولاه لما عاش فى مصر انسان ولا حيوان يزيد عند الحاجة وينقص كالوجل المدبر فيأتى الى الأرض فى اشتداد الحر ويبس الهواء وجفافها فيسقيها ويرطب الهواء

كأن النيـل ذو عقل ولب　　لمـا يبدو لخير النـاس منه
فيـأتى حين حاجتهم اليـه　　ويمضى حين يستغنون عنه

فهو سلطان الأنهار وحياة هذه الديار وروح جسمانها وانسان عين احسانها اذ لولا وجوده لما كان لها وجود ولولا جوده لما اخضر لها عود

فرح الأنام بنيلهم　　اذ صار أحمر كالشقيق

وتبرّكوا بشروقه فكأنه وادى العقيق

وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا يطغى على البلاد بالفساد ويأتى من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما وتأثيرها على اصلاحه متواصلا وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل فأكسب أرض مصر الخصب والنماء وأهلها الراحة والهناء حتى صارت منبع الخيرات وأم الثمرات

٩٩

﴿ وصف يوم ذهبت أنواره فأظلم نهاره وكثرت أمطاره ﴾

بينما كان الجوّ صاحيا والهواء صافيا والغزالة مشرقة أنوارها مضيئة نهارها اذا اكفهرّ وجه الأفق واشتدّت العواصف فى الشوارع والطرق وتوارت الشمس بالحجاب وتلفعت السماء بأذيال السحاب والرعد يزجره ويسوقه بين يديه فاذا قصر صاح به وزمجر عليه والبرق يلمح ويلمع ويمنح ثم يمنع وقوس الغمام للجوّ نطاق لا بل تاج على مفارق الآفاق يزهو بلجينه وعسجده ويفخر بياقوته وزبرجده فلبس ذلك اليوم حلة السواد وتسربل بثوب الحداد عبوس قمطرير

كشر عن ناب الزمهرير أرضه مفروشة بالقوارير اللامعة وهواؤه كالزنابير اللاسعة تراكمت فيه السحائب والغيوم وأسبلت الستور على النجوم ووضع عليها أعظم غطاء من الصباح لغاية المساء وما نشعر الا وقد اغرورقت مقلة السماء فأرسلت الأمطار أمواجا والأمواج أفواجا فسالت به الأودية والصحاصح كما سالت بأعناق المطيّ الأباطح فبتنا بليل ماطر وأصبحنا بين ماء غامر فلازمنا المنازل ثلاثة أيام بلياليها حتى عادت المياه الى مجاريها

١٠٠

﴿ فوائد النار ومضارها ﴾

ان أعمال الانسان متوقفة كل التوقف على النيران التى لولاها لما نضجت أطبخة ولا تركبت أشربة ولا صيغ ذهب ولا فضة ولا نحاس ولا رصاص ولا قزدير ولا غير ذلك مما يتوقف عليه منافع العباد كالحلىّ والأوانى وآلات الحروب والطبع والغزل والحرث والحصاد والرى والتجارة والسفن البخارية والسكك الحديدية ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة والمعدن نقود ولا زينة ولا منفعة . قال تعالى

(أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم)

كيف لا والحياة للانسان بدونها غير ممكنة فى الأقطار الباردة كبلاد سيبريه ومعظم بلاد الروسيا وأميركا الشمالية فيدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستضاء بها فى غسق الليل ويهتدى بنورها — ولما علم المولى سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها فى العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى اذا احتيج اليها وجدت واستعملت — وينبغى الاحتراز دائما منها لأنه يحصل بسببها مصائب عظيمة وأخطار جسيمة (ومعظم النار من مستصغر الشرر)

١٠١

﴿ وصف حمام وفوائده ﴾

طرد الفكر سرح الكرى، عن ورد مقلتى حتى مطلع الفجر واعترانى من شدة البرد هزة كما انتفض العصفور بلله القطر فأشار علىّ من لا تسعنى مخالفته ويفترض علىّ فرض عين متابعته أن أسارع الى القيام وأسير معه الى الحمام فانسللت اليه انسلال الحسام فاذا هو صقيل الأجسام ونظام النظافة

ودافع آفة القشافة

بيت بنته حكماء الورى　　فهو الى الحكمة منسوب
مجاور النار ولكنه　　مجاور النار به الطيب
حرّ هو الروح لأجسامنا　　والحرّ للأجسام تعذيب

فيه ماء كقضبان اللجين أصفى من انسان العين يتكسر ذلك الماء الفضى على ألواح من المرمر الوضى ظاهره عذاب وعقاب وباطنه نظافة جسم وثياب

وحمام له حرّ الجحيم　　ولكن شابه برد النعيم
رأيت به ثوابا فى عقاب　　وزرت به نعيما فى جحيم

فيه المياه تتدفق والحيضان تترقرق أضوأ من جبين الشمس وأعذب من منى النفس فائق الصنع مستحكم الوضع قد صفت مرآته ولمعت صفحاته

وبيت كأحشاء المحب دخلته　　ومالي ثياب فيه غير اهابى
أرى محرما فيه وليس بكعبة　　فما ساغ الا فيه خلع ثيابى
بماء كدمع الصب فى حرّ قلبه　　اذا آذنت أحبابه بذهاب
توهمت فيه قطعة من جهنم　　ولكنها من غير مس عقاب
يثير ضبابا بالبخار محللا　　بدور زجاج فى سماء قباب

١٠٢

﴿ فوائد الحيوانات والرفق بها ﴾

خلق الله لنا الحيوانات لتساعدنا فى أحوالنا المعاشية وقد علم الله أن بالناس حاجة الى أعمالها وهم لا يطيقون إعمالها ولا يقدرون عليها — ولو كلف الله العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شىء من الصناعات والمهن التى يخصون بعملها — وقد سلب الحيوانات العقل والذهن لتذل للانسان — فمنها ما نركبه ونحمل عليه الأثقال ونستعمله فى جرّ العربات وحرث الأرض ودرس الحب . قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) ومنها ما نتخذ منه أقواتنا من اللحم واللبن وما نصنع منه ملابسنا وأغطيتنا وفرشنا بما يخرج منها من الأصواف والأوبار والأشعار وغير ذلك قال تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرّطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشرون — وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا)

واذا كان الأمر كما ذكر فالواجب شرعا أن نرفق بها ونشفق عليها ولا نحملها ما لا تطيق ونطعمها ونسقيها مكافأة

لها على ما تجود به علينا من الأعمال النافعة كل وقت قال ت
(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون و ا
فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم
بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف رح
(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعن
ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا وم
الى حين)

١٠٣

﴿ فوائد الوفاء بالوعد ومضار خلف العهد ﴾

ان الوفاء بالوعد من أفضل شمائل العبد وأوضح دلا
المجد وأقوى دواعي الاخلاص والود وأحق الأفعال بالش
والحمد وهو أصل المودة والصفاء وثمرة المحبة والأخاء ق
تعالى (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان ب
توكيدها — وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا — يا
الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولو
ما لا تفعلون) وقال عليه السلام (آية المنافق ثلاث اذا حدث
كذب واذا وعد أخلف واذا أوتمن خان) وقال بعض الحكم

من لقى الله بلسان صادق وعامل الناس بحسن الخلائق وألزم نفسه رعى العهود والمواثق فقد أرضى المخلوق والخالق وأدرك فى الفضل كل سابق

وما أصعب نكث العهود وأقبح تضييع الحدود وأكبر عصيان الخالق المعبود قال تعالى (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) وقال عليه السلام (لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) وقال الشاعر

فان جمع الآفات فالبخل شرها　　وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير فى وعد اذا كان كاذبا　　ولا خير فى قصد اذا لم يكن فعل

وعد كالوعيد بمطل شديد يشيب الوليد سحائب الصيف أثبت من قوله والخط فى صفحة الماء أقوى من عهده ومواعيد عرقوب أقرب الى الانجاز من وعده

اذا قيل فى الناس خليل فقل نعم　　خليل اسم شخص لا خليل وفاء
وان قيل فى الناس جواد فقل نعم　　جواد ركوب لا جواد عطاء

وقال بعض الحكماء من نكث عهده ومنع رفده وأظهر حقده فلا خير عنده — وبالجملة أجمعت الأمم واتفقت الشرائع علي أن لا نكث لعهد بعد ابرامه ولا نقض لعقد بعد احكامه

وهو أسّ مهدت عليه قواعد الايمان وبنيت عليه أركان الاحسان وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق وهو أمر قبله العقل وصدقه اللسان لو نبذه الناس لأصبحوا فوضى وعادت سماؤهم أرضا وأمسى عقد الحق محلولا وصارم الصدق مغلولا ودم التناصف مطلولا فمن حفظ عهده وحافظ عليه فقد أسرع الى الخير ووصل اليه

ثبتت على حفظ العهود قلوبنا ان الوفاء سجية الأحرار

١٠٥

﴿ مضار الرشوة ﴾

قد تقرّر فى عقول جهلة العوام أن الرشوة هى السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الأصول المتبعة أو يخل بالأمن والسكينة أو يهتك حرمات الحقوق اتكالا على ما يضمره فى نفسه من أن الرشوة كافية للنجاة من العقاب أو الحصول على غرضه بأى وجه كان — وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة لا يصح أن يقضى أمراً فى مصلحة لأحد الا بالرشوة ولذلك يرون أن من الواجب على من التمس انجاز أى عمل يتعلق

بمصلحة أن يقدّم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالب به واجبات المصلحة التى أنيطت بذمته ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التى لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحدمنهم بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصدودفع الغوائل

ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتال ولا يكتفى بذلك فى اقتضائها فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخليص حقه غنيمة باردة -- وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرّع اليه فى قبولها منه لظنه أنه لا نجاح بدونها وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين فى طباع أدنياء الهمم تقربا لذوى المناصب وتذللا خبيثاً لا يجوّزه الشرع ولا قانون البلاد وتنفر منه نفس كل ذى احساس انسانى مع أن حفظ الأموال من الضياع فى ما لا ينبغى وصرفها فى وجوهها الضرورية أليق بفعل العقلاء وأصون لمحرّمات القانون وأبعد فى طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة -- وأحسن طريقة لردع

أرباب الشره والخسة

١٠٦

﴿ فوائد الصبر ومضار القنوط والجزع ﴾

الصبر أصل تفرّعت منه فروع البرّ والاحسان وأس بنيت عليه قواعد الطاعة والايمان وهو حصن منيع المكان مشيد البنيان وجنة واقية وعزة باقية وقطب كرة الأمور وعليه جميع الأحوال تدور فليس شيء من الفضل الا والصبر سببه واليه منتسبه قال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا — انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال عليه السلام (الصبر كنز من كنوز الجنة) وقال الشاعر

وقلّ من جدّ فى أمر يؤمله　　واستصحب الصبر الا فاز بالظفر

وجميع خلال الخير وخصال البرّ وأحوال الطاعة وماجعل الله فى الانسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق وأسباب الديانة ودواعى الايمان انما هى كلها مرتبطة بالصبر كيف ما تأملتها وعلى أى حال تدبرتها فحينئذ جميع أحوال الدنيا كلها من السراء والضراء مفتقرة الى الصبر راجعة اليه كانت النفس راضية اليه أم كارهة له

وأما القنوط فهو خــلة ذميمة وخصلة سقيمة يوهن القوى الجسيمة ويميت القلب ويعظم الخطب ويضعف النفس ويورث اللبس ويدل على فساد الطبيعة ويبعث على مخـالفة الشريعة ولا يسكن الا القلوب المعتلة ولا يألف الا العقول المختلة فويل للهلوع الجزوع ما أتعس حياته وأكثر آفاته يقل صبره لما ينزل ويسوء ظنه بما يستقبل فلايزال أخافـكر ووجل عمره متصل بالنـكدوالخجل قال لقمان لابنه (واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) فان العبد اذاأطاع نفسه وأهملها وأسلمها ليد الجزع وأغفلها ولم يحملها على الصبر فيما دهمهما فقد بخسهماحقهاوأحرمها وهانت عليهوما أكرمها فسكنت الى الجزع وامتنعت من السلوان — وقالت الحكماء من قلّ صبره وعظم عليه أمره وضاق عن حمل ما نزل به صدره فقد تبين كفره

ضجر الفتى فى الحادثات مذمة والصبر أليق بالرجال وأوفق

١٠٧

﴿ فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة ﴾

لا تعجلن بأمر أنت طالبه فقلما يدرك المطلوب بالعجل

فذو التأنى مصيب فى مقاصده وذو التسرع لايخلو من الزلل

أن التأنى فى العمل دعامة النجاح ومصدر الفوز والفلاح ومحور الحزم وعضد العزم وحصن السلامة وصراط الاستقامة به تسود الممالك وتنجو من العطب والمهالك قال تعالى (يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وقال عليه الصلاة والسلام (من تأنى أصاب أو كاد — التأنى من الله) وقيل من تأنى نال ما تمنى وقيل يد التأنى تجنى ثمرة السلامة ويد العجلة تغرس شجر الندامة — وقال الشاعر

الرفق يمن والأناة سعادة فتأن فى أمر تلاق نجاحا

وما أتعس العجلة والاسراع فى الأمور فكم بذلك اندثرت مدن وقصور وما أشقى من ارتدى برداء الاستعجال ولم ينظر الى ما وراء ذلك فى الاستقبال من تقلبات الأحوال بالدمار والوبال وتنعكس لديه القضية وربما تحول من جزئية الى كلية وتكون الداهية الدهماء والمصيبة العمياء والطامة الكبرى والضربة القاضية ويضرب أخماساً فى أسداس من شر عجلة الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس فيستفحل عليه الداء ويعز وجود الدواء ويتجرع

كأس الذل والشقاء ويخبط خبط عشواء وتستثقله الأرض فيصير من أموات الأحياء كئيباً ذليلا قليل الرجاء وقد نهى المولى عن العجلة فقال (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال عليه السلام (العجلة من الشيطان ومن تعجل أخطأ أو كاد) وقال بعض الحكماء من استعجل فى أمر قبل أوانه عوقب بحرمانه — وقال الشاعر

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ومن تأمل بعين البصيرة فى حكمة خلق المولى تبارك وتعالى العالم فى ستة أيام مع كونه قادراً أن يخلقها فى أسرع من لمح البصر يرى مزايا التأنى الواجب شرعا اتباعه

١٠٨

﴿ الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك ﴾

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل الى غد ان يوم العاجزين غد

يعلم كل عاقل علم اليقين أن الوقت هو التبر الثمين وسيف قاطع وبرق لامع ومن الحزم انتهاز الفرصة وترك التوانى فيما يخاف فيه الفوت ومن أعظم المصائب فوات الوقت بلا فائدة واكتساب عائدة قال تعالى (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل

وهو أس مهدت عليه قواعد الايمان وبنيت عليه أركان الاحسان وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق وهو أمر قبله العقل وصدقه اللسان لو نبذه الناس لأصبحوا فوضى وعادت سماؤهم أرضا وأمسى عقد الحق محلولا وصارم الصدق مغلولا ودم التناصف مطلولا فمن حفظ عهده وحافظ عليه فقد أسرع الى الخير ووصل اليه

ثبتت على حفظ العهود قلوبنا ... ان الوفاء سجية الأحرار

١٠٥

﴿ مضار الرشوة ﴾

قد تقرر فى عقول جهلة العوام أن الرشوة هى السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الأصول المتبعة أو يخل بالأمن والسكينة أو يهتك حرمات الحقوق اتكالا على ما يضمره فى نفسه من أن الرشوة كافية للنجاة من العقاب أو الحصول على غرضه بأى وجه كان — وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة لا يصح أن يقضى أمراً فى مصلحة لأحد الا بالرشوة ولذلك يرون أن من الواجب على من التمس انجاز أى عمل يتعلق

قال حكيم «لا تؤخرنّ عملا عن وقته فان للوقت الذى تؤخره اليه عملا آخر ولست تطيق ازدحام الأعمال لأنها اذا ازدحمت دخلها الخلل

وبالجملة ان ضياع الوقت لا يوازيه شيء آخر سواه مهما كان نفيساً فاذا فرّطت فى متاع عزيز أو تحفة ثمينة أمكنك استردادها بضرب من ضروب الحيل أما اذا فرّطت بساعة من عمرك وأضعتها بدون أن تكتسب فيها خيراً أو محمدة لا يمكنك استرداد تلك الساعة لو بذلت فى سبيلها ملء الأرض ذهباً — فالوقت اذاً أثمن من الذهب وأعز منه

حياتك رأس المال والعلم ربحه وأخلاق أشراف بهن تصدر
وموسمك الايام فلتك حازما والافذو التفريط لاشك يخسر
ومن ضيع الأوقات ضاعت حياته وعاش فقيراً جاهلا ليس يشكر
ودع غائبا من فائت ومؤمل فوقتك سيف قاطع ليس يعذر

١٠٩

﴿ أى الشخصين يؤثر فى النفوس الوازع الدينى أو الوازع السياسى ﴾

أن راحة المجتمع الانسانى وتقدم العمران معقودان

بمحافظين أحدهما الوازع الباطن وهو (الدين) وثانيهما الوازع الظاهر وهو (الحكومة)

أما الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله واليه يستند كل ما نجده من الخير فى العبادات والمعاملات اذ هو المظهر الحق للناس المبين لهم الطرق المؤدية لخيرى الدنيا والآخرة فيميزون بين الحسن والقبيح ويفرّقون بين السقيم والصحيح ويستحضرون خالقهم فى السر والجهر فيديمون لبعضهم الائتلاف والاخاء والاخلاص والولاء ويسعون جميعاً فيما به طيب حياتهم وتشييد ملكهم لأن الجامعة الدينية أهم أسباب سعادة الأمم وتقدّمها — ولكن يا للأسف قد اعتل فى صدور من اذا عرضت لهم الشبهة ترددوا . وترحل عن صدور أدعياء العلم الذين لن يوجد أبعد منهم عن الصواب فى هذه المسئلة — وبالجملة قد ابتلينا بضعف سطوته وخذل قوّته ووهن شوكته فنحن اذاً فى زمن أحد الوازعين فيه عليل والآخر صحيح

وهذا الوازع الصحيح هو فى أصل طبيعته لا يبصر ما يبصر ذاك ولا يتوصل الى ما يتوصل الى معرفته من الحوادث السرية والوقائع الخفية وشتان ما بين الغائب والشاهد فكيف

به وقد صار ملتزماً أن يسد مسد أخيـه عند من لم يبق لهم والعياذ بالله وازع الباطن

١١٠

﴿ فوائد الـكرم ومضار البخل ﴾

أن الـكرم اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل ولفظ جامع لمعـانى السماحة والبذل فالجود فعل محمود وعز موجود ومن جاد فقد ساد قال تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال عليه السلام (السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية الى الأرض فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة ألا ان السخاء من الايمان والايمان فى الجنة) بخلاف البخل فانه أدنى خلة وأودى علة قال تعالى (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم) وقال عليه السلام (اللهم انى أعوذ بك من البخل) قال الشاعر

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى فليس الى ما تأمرين سبيل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلا له فى العالمين خليل

وقال بعض الحـكماء ثواب الجود ثلاثة خلف ومحبة ومكافأة وثواب البخل مثلها تلف ومذمة وحرمان وقال آخر لو كان

شيء يشبه الربوبية لقلت الجود — وقال عليه الصلاة والسلام (البخل جامع لمساوى القلوب وهو زمام يقاد به الى كل سوء) وعنه أيضاً أنه قال (السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والجاهل سخى أحب الى الله من عابد بخيل) وقيل ذللوا أخلاقكم للمطالب وعوّدوها على المحامد وعلموها المكارم وتحلوا بالجود يلبسكم ثوب المحبة فمن جاد ساد ومن ساد شاد وخير المال ما أفاد حمداً ونفى ذما وصان عرضاً وأدى فرضاً

وقصارى القول الجود وصف حميد لا يدرك شأو كماله ولا يبلغ المديح غاية حسنه وجماله

لنعم الجود ساتر كل عيب وبئس البخل كشاف العيوب

وكم مدحت به رجال وأحيا ذكرهم على مرّ الأيام والليال فمن هو حاتم وكعب بن مامة ومعن بن زائدة والفضل ويحي وغيرهم ممن دمرهم الدهر لولا أن الجود حفظ ذكرهم ونقش أثرهم علي صفحات الأيام وسير بهم الأمثال ولولا جودهم لنسخ ذكرهم من الألسنة وحادت عن سيرتهم نقلة الأخبار

والبخل كشاف المعائب فضاح المثالب يجعل صاحبه مضغة فى أفواه الذام وسبة فى ألسنة الخواص والعوام

١١١

﴿ رضاء جميع الناس غاية لا تدرك ﴾

ولقد طلبت رضى البرية جاهداً فاذا رضاهم غاية لا تدرك

ان من الناس من يتقلد أسنى المراتب وأسمى المناصب فيحاول المطالب ويزاول المآرب ويحكم السياسة ويرأم الرئاسة ويراعى فيهما ارضاء الخالق والمخلوق ولا يلهيه نعيم الصفاء وصفاء النعيم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم وعن اسداء المبرات الى ذوى الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى المهضوم حيث يعلم أن أحب الناس الى الله أنفعهم لعباده وأكيس الكيسى من عمل لمعاده وأن من ولى الأمور وجب عليه اسعاف الجمهور بدون تفرقة بين الخامل منهم والمشهور فمثله مثل الربان الذى يدخر الزاد فى سفينته ويحكم السكان ولا يبحر الا على أمان ولا يرسو الا وهو ذو اطمئنان

أجل — ان أحوال الانسان فى معاشه تشبه السفر فى البحار اذ هى محفوفة بالأخطار والأكدار فبينما يكون فيها

رخي البال مغبوط الحال ذا أعوان ومال اذن بالزمان قد أخنى عليه فالتفت به كوارثه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب عنه مزاياه وتشين سجاياه فيخيل للناس أن تلك الرئاسة التى نالها والمعالى التى طالها انما كانت عرضاً واتفاقا وانها كانت عارية عنده لا خلاقا وان فى وسع كل انسان أن يدركها مثله اذا ساعده الزمان — اذاً فلا غرابة فى أنه لا يتأتى لأحد ولّى الرئاسة وان انتهت اليه الآداب والكياسة أن يرضى جميع الناس ويستخلص مودّتهم له من دون التباس فان أغراض الناس متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة وأهواؤهم كهبوب الرياح لا تستقر على اصطلاح

اذا رضيت عنى كرام عشيرتى   فلا زال غضبانا علىّ لئامها

ومنهم من يتقلد المناصب عفواً وهو غير مترشح لها فتجمح به الى حيث تلتوى عليه الأمور وتتجاذبه جواذب المحذور من المقدور فيخبط خبط عشواء وتطوحه الأهواء كيفما يهوى ويشاء

١١٢

﴿ الصحة أم الثروة ﴾

الصحة أجل النعم التى أنعم الله تعالى بها علي الانسان

وأرفعها مقاما اذ بها يطيب العيش ويهنأ البال قال عليه الصلاة والسلام (اذا أصبحت معافاً فى جسمك آمناً فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء) فالصحة لا يوازيها مال ولا يقوم مقامها عز ولا جاه لأنها الأصل الذى تتفرّع عنه الأعمال والأساس الذى تبنى عليه الخيرات قال عليه الصلاة والسلام لرجل كان يستمرّ فى الصوم (ان لبدنك عليك حقا) وقال بعض الحكماء الزم الصحة يلزمك العمل وماذا تجدى الثروة اذا أصبح الانسان فى آلام وماذا يفيد المال اذا وهنت الأجسام

لا أستلذ العيش لا أدأب له سعياو كدافى الهواجر والغلس
وأرى حراما أن يؤاتينى الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتمس

فالصحة هى عين الغنى التام وظلال الأمان والسلام قال عليه الصلاة والسلام (ما رأيت أهنأ من العافية) وقد قال بعض الحكماء ان من أهم شروط النجاح فى دار الدنيا أن يكون الانسان قوىّ البنية ومن أهم شروط عزة الأمة أن تكون أفرادها أقوياء لأن النجاح فى الصنائع للقوىّ من الصناع وقد أجمع العقلاء على أن القوّة العاقلة بدون الصحة

معطلة لا يمكنها الوصول الى الغاية المقصودة منها الا بها ولذا كان الاعتناء بالتربية الجسدية ومراعاة جميع الوسائل الصحية أمراً لازما حتى تتسنى تربية القوى المفكرة

والجسم للروح مثل الربع تسكنه وما تقيم اذا ما خرّب الجسد

وبالجملة فالصحة أثمن من الثروة فان الرجل يجود بثروته ليملك صحته لأنه قد يستغنى بالصحة عن الثروة بخلاف الثروة فانها لا تغنى عن الصحة شيئاً — فالحياة بدون صحة عبء ثقيل ومطالب الصحة انتظام العادات والرياضة اليومية والنظافة والاعتدال فى الأكل والشرب فمن حافظ على هذه المطالب حفظ فى الغالب صحته من الاعتلال وجسمه من الأسقام والصحة خير قنية ويتلوها الجمال ثم الغنى المكتسب بالطرق المحللة ثم الشباب

١١٣

﴿ فوائد السكك الحديدية ﴾

ان الانسان بواسطة هذه السكك صار يستغنى فى سفره عن عدّة أشهر ببعض أيام وعن عدّة أيام بيوم أو بعض يوم فضلا عما توفر عليه من ماله الذى كان يصرفه فى سفره وما

ا كتسبه من الراحة مما كان يكابده من المشاق والمصاعب والعوائق فلا تروج صناعة ولا تتقدم تجارة ولا زراعة الا بها لأنها هى التى تنقل المصنوعات من بلد الى بلد ومن مملكة الى أخرى فيحسن حالها وتنقل حاصلات الزراعة من الثمار وغيرها فيزيد نفعها وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعتنائهم بها

وقصارى القول أن هذه السكك قد سهلت من السفر كل خطر شديد وجعلت البلد البعيد أقرب من حبل الوريد وسهلت المواصلات وقربت المسافات فعمت التجارة وعظمت الأمارة وتلألأ العمران فى سائر البلدان وتيسر للعلماء وأصحاب الصنائع السفر الى البلاد البعيدة والاطلاع على أمور كثيرة وبذلك تتسع العلوم وتكثر الفنون وغير ذلك من منافعها التى لا تحصى ولا تكاد تستقصى . والفضل فى ذلك للمهندس الشهير (جورج ستيفنسن) فى القرن التاسع

١١٤

﴿ فوائد الثناء والشكر ومضار جحود النعم والكفر ﴾

الشكر ترجمان النية ولسان الطوية وشاهد الاخلاص وعنوان الاختصاص ومصدر السعادة وقيد النعمة ومفتاح

الزيادة وهو أمر محبوب ومرغوب فيه ومطلوب فلو كان
يجلّ عنه ماجد لعلوّ شأنه أو ملك لرفعة سلطانه لما أمر الله
عباده بشكره والتحدّث بنعمته وبرّه

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد لعزّة نفس أو علوّ مكان
لما أمر الله العباد بشكره فقال اشكرونى أيها الثقلان

فشكر المنعم واجب والثناء علي المحسن ضربة لازب ونعمة
الشاكر من النقص والنقض فى أمان ومن السموّ والنموّ فى
ضمان وهو تميمة لتمام النعمة — والسعيد من اذا أظلته النعمة لم
يشتغل بسكرها عن شكرها فاذا أونست النعمة بالشكر ربعت
فتربعت واذا أوحشت بالكفر نفرت وظعنت قال الله تعالى
(لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد)
وقال عليه السلام (الشكر نصف الأيمان) وقال بعض الحكماء
الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وكفران النعم وعنوان النقم
قال سيدنا عمر رضى الله عنه (النعمة داء ليس لها شفاء
الا الشكر)

الشكر أعظم ما حاولت ملتمساً به الزيادة عند الله والناس

***

١١٥

﴿ وصف حديقة الحيوانات بالجيزة ﴾

حدثنى بعض الاخوان أن الجيزة بها بستان جمع أصناف الحيوان فتقت الى رؤية ذلك المكان وحدا بى من الشوق اليه حادى الركبان فسرت الى هذا الميدان والقرطاس بيدى والقلم بالبنان فاول ما رأيته ملك الحيوانات وأشباله فى غابة من الغابات وهو ملك مهاب حديد الظفر والناب (أسد) ضرغام وبطل مقدام ثم رأيت رعيته علي اليمين والشمال مرتبة على هذا المنوال (فالفيل) له خرطوم طويل يشبه الصولجان ويحكى فى تلويه الأفعوان وأذنان كالترسين تحتهما نابان كالرمحين شديد الغيرة حقود يرتاح الى الطرب (والزرافه) التى حازت أنواع اللطافة عالية الصدر منحطة الأواخر جميلة الأوصاف والمفاخر و (النمر) شرس الأخلاق دم الفريسة بين يديه يراق وثباته لا تنكر وثباته أشهر من أن يذكر و (الفهد) خصره رقيق واضح الجبين يتبختر ذات الشمال وذات اليمين و (الدبّ) مشغوف باللهو واللعب كثير الشهوة والطرب يقبل التعليم والتأديب ويأتى من بحر فطنته بكل

عجيب و (الذئب) الذى له الغدر شيمة والغنم لديه غنيمة يألف الوحدة والانفراد ويسطو بأنياب حداد و (الثعلب) رائغ وعن جادة الطريق زائغ وافر المكر والحيل يضرب بخديعته المثل و (الضبع) حضاجر كنيتها أم عامر موصوفة بالعرج تفترس من دبّ ودرج و (النمس) صائل صائد ظهره عظم واحد له يدان قصيران لا ينجو منهما طير ولا ثعبان و (السنجاب) أبلق بطنه أبيض وظهره أزرق يأوى الأشجار العالية ويسكن الأماكن الخالية و (الظبي) كحيل الطرف ذكيّ العرف جميل الصفات حسن الالتفات و(القرد النسناس) فى خلقه ما يشبه الناس معروف بالفهم والذكاء صبور على السرّاء والضرّاء و (الببغاء) جميل الصفات قوىّ على حكاية الأصوات فهمه صحيح ولسانه فصيح و(الهدهد) وافر الهداية نافر عن الضلالة والغواية يميد فى حلله الفاخرة ويميس كأنما ألبسه سليمان تاج بلقيس فياله من بستان أنبت السرور وحوى أصنافا جمة من الثمار والزهور وفى وسطه تلك الحيوانات التى لا أجمع بين أشخاصها وأسمائها ولا أتحقق من أحوالها وأنبائها فتلوت اذ أدهشنى جمعها وخلقها (وما من دابة فى الأرض الا

على الله رزقها) ثم رجعت من حيث أتيت مثبتاً فى (أسلوب الحكيم) مارأيت

١١٦

﴿ فوائد التواضع ومضار الكبر والترافع ﴾

أن التواضع للناس من موجبات الألفة والائتناس وهو عبارة عن لين الجانب وخفض الجناح وهو خلق أهل العلم والصلاح قال تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال عليه الصلاة والسلام أفضل العبادة التواضع وقال الشاعر

تواضع اذا ما نلت فى الناس رفعة فان رفيع القوم من يتواضع

فالتواضع سلم الشرف وموجب للترقى الى أعلى الغرف وهو أجل مزية وأفضل سجية وتاج الوقار وشعار الأطهار وشبكة الشرف وأشرف الشرف

والكبر وصف فى الأنام مذموم وصاحبه من الخيرات محروم ممقوت من الله تعالى ومن العباد مسلوق طول حياته بألسنة حداد بل جدير بالخزى فى حياته ومماته بل هو قتيل شهواته ولذاته — قال حكيم « ألسنا أخوة هكذا يجب أن يكون الانسان أخا للانسان غير أن خزفا يختلف عن خزف

فى القيمة ولو كان من طينة واحـدة » وقال آخر « الأحمق كالرمل المنهار كلما قوّمت منه جانبا انهار عليك جانب آخر» ومثله كالثوب الخلق ان رفأته من موضع تخرّق من موضع آخر — فالـكبر عنوان الحماقة

وليس الفقر من اقلال مال ولـكن أحمق القوم الفقير

ليت شعرى أهل نسى المتكبر أصل وجوده ومنهل وروده واغترّ بنفس عالية وحياة فانية وتكبر على معاشريه وترفع عن معاصريه أما يعلم أنه من نطفة مذرة وسيكون جيفة قذرة وما بين ذلك حامل العذرة

أرى أبنـاء آدم أبطرتهم معيشتهم من الدنيـا الدنية

فـلم بطروا وأولهـم منىّ أو افتخروا وآخرهم منية

فالمتكبر مشئوم والمتعاظم مذموم — والتكبر من أخطر الخطوب وأكبر القبائح والذنوب قال تعالى (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين — ولا تمش فى الأرض مرحا — ان الله لايحب كل مختال فخور) وقال عليه السلام « لا يدخـل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » قال الشاعر

وأحسن أخلاق الفتى وأجلها تواضعه للناس وهو رفيع

وأقبح شيء أن يرى المرء نفسه رفيعاً وعند العالمين وضيع

وهو سبب محذور حامله ممقوت عند الله محقور يضعه الله كلما ارتفع ويخفضه كلما طلع وهو أخبث سرائر القلوب وأعظم كبائر الذنوب فلا يرى صاحبه أبداً الا غليظاً فظا لا يرى لأحد سواه فى الفضل حظا وقد قيل « من ترك الكبر استوجب الشكر » فالتكبر على الملوك سخافة وعلى الأكفاء جهالة وعلى الأسقاط خساسة

والتواضع سهولة الأخلاق مع الناس فى مخاطباتهم ولين الجانب فى معاملاتهم وتجنب العظمة والكبرياء والتباعد عن الاعجاب والخيلاء وهو حلية يتحلى بها الانسان وان كان عاطلا ويرفع ذكره وان كان خاملا به يسمو فى الدنيا قدره ويعظم فيها خطره يتملك صاحبه مودّة القلوب وينال كل مرغوب ومحبوب به يجتلب المجد ويكتسب الحمد وضده الكبر وهو أقبح وصف يسلب من الانسان الفضائل ويكسبه النقائص والرذائل

وبالجملة ان أقبح ما يرى عليه الانسان أن يكون متكبرا لأنه بذلك ينسب لنفسه ما لا يصح أن ينسب اليه ويدعى

ما ليس فى الامكان أن يناله وهذا ضرب من الخلل ودليل
واضح على الجنون وبرهان ساطع على الغرور ومن غرّه
السراب تقطعت به الأسباب — قال عليه الصلاة والسلام
«لا يتواضع الا كل رفيع ولا يتكبر الا كل وضيع»

١١٧

﴿ فوائد طاعة أولياء الأمور ﴾

الطاعة هى الحرم الأوفى والعروة الوثقى والكهف الأحمى
والملاذ الأسمى من تمسك بحبلها سلم ومن لجأ اليها غنم وهى
أس الدين وأصل اليقين ومنهاج السيادة وطريق السعادة
وأساس النظام الذى عليه مدار حسن الأعمال والسبب القوىّ
لاصلاح الأمور وتحسين الأحوال بها تسعد البلاد والأوطان
ويعم بها النفع وتتسع دائرة العمران فحق على كل فرد أن يمتثل
لولى أمره ويحفظ له الحق فى احترامه وتعظيم قدره وأن يقوم
بما عهد اليه من الأعمال بالكمال وأن يهتم بتأديته علي أتم نظام
وأحسن حال فان المرء اذا اتخذ الطاعة شعارا والامتثال دثارا
يرى رؤساؤه تقديمه على غيره ويفضلونه على أمثاله من أبناء
عصره فينال منهم حسن الرضا وقت الغضب ويفوز منهم

بجميل النعم اذا طلب فال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فقد قرن وجوب طاعة الرؤساء وولاة الأمور بطاعة الله ورسوله لأنها عبارة عنها ونيابة منها اذا سلك الرئيس الطريقة الجادّة ولم يتعدّ الحدود المحدودة — وقال عليه الصلاة والسلام (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمّر عليكم عبد حبشي) وقال الشاعر

ان شئت تحظى بالسعادة والمنى * فأطع ولاة الأمر في حسن امتثال

١١٨

﴿ فوائد التربية ﴾

التربية طريق النجاح وسبيل الهدى والفلاح بها يرتفع الانسان من حضيض الهمجية الى ذروة المدنية وبها تستنير الأفهام ويعلم الحلال من الحرام بها يعرف الانسان ما ينفع وما يضر ويحزن ويسر بها يعلم المرء ما عليه وما له وهي التي تصلح شأنه وتحسن حاله بها يعلم الخير فيقتنصه ويحرزه والشر فيجتنبه ويتجاوزه وهي زينة الشباب وحلية المشيب بها يزدان المرء في جميع أدوار عمره ويتحلي بها في صغره وبعد كبره فكلما وجد في الأمة دعاة نصبوا أنفسهم لنشر الفضائل بين

بنيها وخصصوا ثمين أوقاتهم لغرس بذور التربيـة فى مروج أذهانهم وعرجوا بهم عن مناهج أضدادالـكمالات الانسانية من حيث هى مبادئ آلية كلما ركزت فيهم الملـكات الفاضلة وانطبعت فيهم الغرائز الـكريمة ومالوا عن الشرور الى الخيرات. وكلما تقوّى هذا المبدأ الشريف بين أفراد الشعب كلما أخذوا فى الارتقـاء الى معارج الفلاح وتدرّجوا الى أعلا مراتب النجاح قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) فما أطيب ثمار التربية والتعليم وما أحسن غرس بذور العلم فى نفوس الناشئين والناشئات. أما اذا انفصمت عرى هذا المبدأ وتداعت قوائمه وتناسى القائمون بالدعوة شأنها وأهملوا أمرها فأغفلوا النداء لأمهات الأخلاق السامية وغضوا النواظر عن تقويم الأفـكار وتثقيف العقول وتهذيب النفوس بالتربية والآداب أسرع الفساد الى أفراد الأمة وتمـكنت من نفوسهم الرزيلة وتغلبت عليهم الشهوات السافلة فتجنح أميالهم دائما الى الشرور وتحل النقيصة منهم مكان الفضيلة وتنحل جامعتهم فيكونوا قلوبا شتى لا رابطة تربطهم ولا جامعة تجمعهم وهنا تنحط الأمة الى أسفل السافلين

فسعادة الأمم والمجتمع الانسانى انما يكون بالتربية الفاضلة وتهذيب النفوس ودعوتها الى الخير ودربتها على الكمالات الانسانية حتى تصير لها ملكات وغرائز — وأنه يستحيل أن تتوجه أمة من الأمم الى الوجهة المثلى وجهة الفلاح الا بطريق التربية التى هى تثقيف عقل الأبناء بالمبادئ الفاضلة « من العلوم والمعارف » وترويض روحهم بالأخلاق الطاهرة وتعويد نفسهم على العادات النافعة وتهذب أفكارهم بالآداب السامية « آداب الشريعة والدين ودستور البلاد » ذلك هو منهاج الفلاح ومعراج النجاح هذا هو سر استواء هذه الأمم على عروش السعادات هذا هو الينبوع الذى سوّغ للغربى أن ينتحل لنفسه حق الرئاسة على الشرقى

وبالجملة تربية الانسان على نوعين نفسية وجسمية فتربية النفس تكون بقلع الرذائل منها وغرس الفضائل فيها وهى من الأسرار التى عليها مرقاة السعادة الدنيوية والأخروية وانما تفيد ببث روح العقائد الدينية فى قلوب الناشئين وعدم اكراههم على تحمل الأذى حتى يشبّ المرء على حسن الخلق وصفات الكمال كالمروءة . والشجاعة . والصدق . والكرم

ويكون بعيدا عن المنكر والشرور لا يكدّر وجه الآداب ويصبح مألوفا محبوبا يهدي الى الهدى ويصد عن الهوى

وعوامل التربية كثيرة منها الأم والأب والمؤدب والمكاتب والمدارس وهى أهمها — ولذا تجد التربية تتفاوت الا أنها أعظم من التعليم — اذ بصلاح التربية تصلح الأمم وبفسادها يفسد الكون فويل لأمة لم تعتن بها فوالله ما امتلأت السجون ويتمت الأطفال واستحكمت حلقات الجهل وعمّ الضلال الا بترك التربية — وأن الشخص الذى يهمل ليكون أشد من الوحوش الضارية وأحط من البهائم — ومن تربى تربية صحيحة خليق به أن يقود الأمم ويرفعها الى أوج السماكين ويكون من الداعين الي اعلاء كلمة الحق ورفع منار الاسلام ببيان أسراره وأوامره ونواهيه وزواجره التى هى أس كل عدل وناموس كل عصر ونظام كل ملة

والتربية أنجع ما تكون فى الصبا الذى بفواته يفوت المرء ما يؤمله من طلب السعادة ولذا كانت فيه من أهم المطالب فان المرء فى ابانه كالغصن فى أوانه يقبل التقويم والتعديل ولذا قال محي الدين بن العربى

لا تسه عن أدب الصغيـــــر وان شكا ألم التعب
وذر الكبـير فانه كبر الكبير عن الأدب

لأنه متى أخذ فى مبدئه بالتهذيب والتطبع بالأخلاق الفاضلة والمقاصد الشريفة انقاد الى ما يوحى الى فطرته الأولية ونشأ على ما تعوّده وجبل وسهل عليه فيما بعد صنيعة الخير بقدر بعده عن الشرور والرذائل — وجلىّ أن التربية النفسية أفضل من التربية الجسمية اذ أن الأولى راجعة الى الروح والثانية الى الجسم

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
انهض الى النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم انسان

ومع هذا لا تنكر مزيتها فهى ماسة لا بد منها والاعتناء بها مما ينمى الأعضاء ويقوى الجسم من أنواع الرياضات البدنية والعقلية والألعاب والسباحة فى البحر والجوّ — ونعم ذلك فان النفس متصلة بالجسم وبدون صحته لا يستقيم الشعور وتفقد ثمرة الحواس التى هى أسباب المنافع والمعارف وهى تابعة له فى القوّة والضعف ولذا قال بعض المربين « العقل السليم فى الجسم السليم » من ذلك ترى المريض تتغير صفاته ويختلف مزاجه وهذا ميل سببه انحراف الجسم وكذا ما يشاهد من

حال الشخص الهرم الذى وهنت قواه كيف يدرك التميـيز والادراك وان من صح جسمه فاز بالحياة وأضحى فى بحبوحة من العيش الرغد وبمكان من صفاء الخاطر والسرور وأمكنه التصرف فى عنـاصر الطبيعة ومزاحمـة الغير فى طلب الرقى والمكاسب لأن الأعمال مرتبطة بالأجسام والجسم خادم المرء وهو كالأشباح للأرواح فاذا صح حلت الحياة واذا ضعف أنهكته مرارتها وان من يريد أن ينال من هذا المجتمع نصيباً لا ينبغى له أن يهمل جسمه ولا يكلفك ذلك غـير نظرة لمن ضعفت أجسامهم فلا تلبث أن تراهم لا يلتذون بالوجود ولا يستطيعون أى عمل من الأعمال الضرورية فضلا عن الحاجية والكمالية حتى أصبحوا عالة على الناس وشاركوهم فى الحياة

١١٩

﴿ لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب ﴾

من دلائل الحكمة وأفضل الفضائل المهمة الصمت وقلة الكلام احترازا عن الوقوع فى الآثام لأن من كثر لغطه كثر سقطه ومن تكرر مقاله سئم ومن كثر سؤاله حرم فكلام الانسان بيان فضله وترجمان عقله وكلّ يعرف بقوله

ويوصف بفعله ورب قول أنفذ من صول وطعن اللسان أنفذ من طعن السنان وجرح الكلام أوجع من جرح الحسام فالأولى بالانسان صوْن اللسان وهو صغير الجرم كبير الجرم

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فالكلام دواء ان قلّ نفع وان زاد وكثر صدع

ان القليل من الكلام بأهله حسن وان كثيره ممقوت
مازل ذو صمت ومامن مكثر الا يزل وما يعاب صموت
ان كان ينطق ناطق من فضله فالصمت درّ زانه ياقوت

الخطأ بالصمت يختم والخطل بالكلام لا يكتم قال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »

الصمت يكسب أهله صدق المودة والمحبه
والقول يستدعى لصا حبه الذمة والمسبة

وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعدّ فى نفسك فاضلا وفى جهلك عاقلا وفى قدرتك حليما وفى عجزك حكيما واياك وفضول الكلام فانها تظهر من عيوبك ما بطن وتحرّك من عدوّك ما سكن — وقال آخر اعقل لسانك الا عن حق توضحه

أو باطل تدحضه أو كلمة تفسرها أو حكمة تنشرها

الصمت زين والسكوت سلامة   فاذا نطقت فلا تكن مكثارا
فلئن ندمت على سكوتك مرة   فلتندمن على الكلام مرارا

١٢٠

﴿ اذا أراد الانسان السفر براً ولم يكن فيه سكك حديدية فما الذى يستخدمه من الحيوانات الجمل أم الحصان ﴾

ان المولى سبحانه وتعالى كرّم بنى آدم حيث جعل له السلطة العامة على جميع الحيوانات وسخرها له كيفما أراد فسخر الخيل للركوب ولحمل الأسلحة عليها فى الحروب تسبق السيل فى السير معقود بنواصيها الخير وراكب ظهورها فارس وهى أجل حافظ وحارس وزينة وعز وكنز وحرز قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وسخر لنا أيضاً الجمال لحمل الأحمال الثقال وقطع المراحل الطوال مع مكابدة الكلال والصبر على مرّ النكال ولا يعتريها من ذلك ملال تسير فى الفيافى والصحراوات وتكابد الآلام والمشقات زهداً وفقرا وجلداً وصبرا على العطش والجوع حتى تحل فى الربوع

وحينئذ الجمال أفيد فى المواصلات كما أشار المولى الى

ذلك فى الآيات (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس) فهى مطية الصحراء ومركب البيداء يتمكن راكبها من النوم عليها وتنقاد لمن بين يديها بخلاف الخيل فانها وان كانت تقتحم الطريق اقتحام السيل وتحوز قصبات السبق فى ميدان السباق الا أنها ليس لها طاقة على المشاق والصبر على الجوع والعطش بضع ساعات كما تصبر الجمال جملة أيام معدودات

١٢١

﴿ فوائد العتاب ومضاره ﴾

ان العتاب حديقة المتحابين وروضة المتصافين وهو جلاء للمودّة وصيقل للأخوة ونعم الدواء اذا عرض فى الودّ داء ومن لم يعاتب على الزلة فليس هو بحافظ للخلة

اذا ذهب العتاب فليس ودّا ويبقى الودّ ما بقى العتاب

فالعتاب محمود بين الأصحاب بطريق الآداب مع المحافظة على الصحبة والأخوة وغض النظر عن الغلطة والهفوة

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقلة العتاب تحفظ الأحباب ومن عاتب على القليل والكثير

والحقير والخطير لا يجد له صديقا ولا خلاّ رفيقا

اذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

وكثرة العتاب داعية الاجتناب تورث الضغينة وتولد البغضاء وتجلب الشقاء

ان بعض العتاب يدعو الى الحقـــد ويؤذى به المحب الحبيبا

قال بعض البلغاء مثل العتاب مثل الدواء ينفى به عارض الصدور ويشفى بمكانه مرض الصدور فاذا استعمل لغير علة عارضة وتنوقل بلا حاجة ظاهرة تحوّل دواء المحبة داء عضالا لا دواء له

وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء

١٢٢

﴿ الطب والأطباء فى الهيئة الاجتماعية ﴾

الطب علم تحفظ به صحة الأبدان وهو كنز ثمين لما فيه من الفوائد الكثيرة والمنافع العديدة التى تعود على الهيئة الاجتماعية بالخيرات والبركات المفيدة وواسطة لقطع دابر الأمراض الوبائية واستئصال جرثومة الأوبئة الرديه التى تكاد أحيانا تفتك بالنفوس فتكا سريعاً وتزهق بأرواح العباد زهقاً مريعا وحينئذ صناعة الطب تهمّ كل طبقات النـاس

والطبيب هو مطمح أبصار كل انسان رفيعاً كان أو وضيعاً والانسان من حيث أنه يميل بالطبع الى البقاء ويخشى الفناء كان مدفوعا بالطبع أيضاً الى الحرص على الصحة التى هى دعامة الحياة وقوامها — والحرص على الصحة يتوقف على الأطباء الذين هم ركن عظيم فى انتظام حال البشر — كيف لا وبعلومهم ينال المرء الهناء فى عيشه والتمتع بصحته والصحة من أكبر النعم على الانسان بعد الوجود والأيمان

وقصارى القول أن الطب مهنة سامية وحرفة شريفه عالية وأن الطبيب رجل الشعب تتوقف عليه أرواح العباد ولا يستغنى عنه فرد من الأفراد فله المقام الأسمى والدرجه الرفيعة فى المجتمع الانسانى ما دام متصفاً بمكارم الأخلاق وأمهات الفضائل مبتعداً عن قبائح الصفات والرذائل

بالطب صحت جسوم الناس من سقم وبالاطباء أضحى الكون معمورا

١٢٣

﴿ أيهما أفضل وأنفع للآباء المال أم الأبناء ﴾

المال روح تحيى به أجسام الممالك وسراج يضىء به ظلام الخطوب الحالك وسلطان قوى الشوكة والبطش شديد العزيمة

والبأس عليه قوام الصنائع وابراز مكنونات العلوم ونجاح الاختراعات والمشروعات وقضاء الحاجات فى جميع المهمات فأى شخص رزق مالا لحظته السعادة وامتدت عليه غصون السيادة فللمال الأفضلية والأولوية فى المنفعة على البنين

وبديهى أن الحامل للمرء على جمع الأموال والسعى وراء اكتسابها انما هو الحصول على ما يقوّم به أود حياته من مأكل ومشرب وملبس وكل ذلك مقدّم على أمر التناسل وحب الأبناء

وكيف يكون للبنين فضل علي المال وأنهم بدونه لا يصلح لهم حال ولا يستقيم لهم شأن وبال — قال بعض الحكماء العاقل يتخذ المال قبل العيال والجاهل يتخذ العيال قبل المال وقيل انى أعجب ممن له عيال وليس له مال — وقيل العيال سوس المال — وقال الشاعر

شيئان لا تحسن الدنيا بغيرهما المال تصلح منه الحال والولد
زين الحياة هما لو كان غيرهما كان الكتاب به من ربنا يرد

يعنى قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)

وقصارى القول أن الطبيعة البشرية لا ترى أفضل من

المال ولا أعز منه لا يماثله شيء فى الوجود فمقام صاحب المال ليس كمقام صاحب الأبناء

١٢٠

﴿ من عرف نفسه فقد عرف ربه ﴾

ان أول ما يجب على الانسان معرفة نفسه فمن عرفها حق معرفتها وأجلها فوق مرتبته وأحلها محلها وبحث فى أمرها وبعث فكره الى سرها فعرف ما هى ومن أى هى ولأى كانت وبأىّ تكون ولأى خلقت ومن أى صدرت والى أى تعود فقد قدّرها حق قدرها — قال عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه)

هى النفس ما الانسان الا بها — يعلو بها أو يهوى فى المأثمه
بالشر أو فى البرّ أو بالتقى — أمارة لوامة ملهمه
اذا اطمأنت فالرضاء وصفها — وأصبحت مرضية محكمه
هذى مراتبها وفى خلقها — سبحان رب الناس ما أحكمه

ومن وقف على دواعيها ودواهيها وعوائدها وروائدها ودسائسها ووساوسها وما تنبعث اليه من شواغلها وعواملها وما ترتاح اليه من شهواتها ولهواتها فردعها عن هواها وردّها الى أوامر من

سوّاها سلم من فجورها وشرورها وفاز بتقواها وبلغ من السيادة أقصاها ومن السعادة منتهاها

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

١٢٥

﴿ فوائد اللسان ومضاره ﴾

اللسان أداة يظهر بها البيان ومخبر يخبر عن مكنون الجنان وحاكم يحكم بفصل الخطاب وناطق ينطق بالصواب وهو أعظم واصف تعرف بوصفه الأشياء وأكبر واعظ يأمر بالعرف وينهى عن الفحشاء وأصدق شاهد يستدل به على الغائب وأعز شافع تدرك به المطالب وأحسن سمير يسر به الخاطر وألطف مؤانس لمحاسن الأخبار ذاكر وأرق نديم يرتاح اليه الخليل وأجل مادح يشكر فعل الجميل وهو زارع ينبت الوداد وحاصد يذهب الضغائن والأحقاد به تنكشف الحقائق وتتبين الدقائق به يعرف مقدار العقل وتتضح نتيجة المرء فى الفضل فاللسان للانسان كمرشد أمين وترجمان للكلام اذ به يفصح عما فى ضميره ويحفظ الروابط والعلائق مع غيره

ويلفيه شرفا أن ليس من الأعضاء شيء ينطق بذكر الله غيره فانسان بدونه كبهيمة سائمة أو صورة ممثلة - قال بعضهم ما الانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة أوضالة مهملة أو بهيمة مرسلة — قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

ومضار اللسان لا تحتاج الى برهان فمن لم يسجنه أوقعه فى الذل والهوان — فأعقل الناس من كف فكه وفك كفه وشر الناس من كف كفه وفك فكه -- وقد قيل (مقتل الرجل بين فكيه) وقال بعض البلغاء اللسان أجرح جوارح الانسان — قال الشاعر

يصاب الفتى من عثرة بلسانه * وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته فى القول تذهب رأسه * وعثرته بالرجل تبرا على مهل

١٢٦

﴿ عز من قنع وذل من طمع ﴾

القناعة من أوثق أركان العبادة وأقوى أصول الديانة المؤدية الى السعادة وهى ذخيرة لا تبلى مدى الأيام وكنز لا تفنيه مر الدهور والأعوام بل هى جنة عالية قطوفها دانية

فمن طلب العز طلبه بالطاعة ومن طلب الغنى طلبه بالقناعة قال عليه الصلاة والسلام (القناعة شرف المؤمن فى الدنيا ومنزلته فى الآخرة) وقال بعض الحكماء متى قنع بماله استراح وراح وقال الشاعر

أفادتنى القناعة كل عز وهل عز أعز من القناعة

والطمع رق مؤبد ووثاق ذل موطد ومن يكن هذا شعاره يكن الجشع دثاره قال عليه السلام (خيار المؤمنين القانع وشرارهم الطامع) وقال الشاعر

طمع الفتى ذل وعزة نفسه عز وكم شره يجر الى شرك

وقصارى القول أن القناعة نعمت البضاعة رأس الصلاح وأس الفلاح ومصدر الفوز والنجاح والطمع من أقبح الخلائق وأذم العلائق يدل على الأخلاق البهيمية والغرائز الرديئة الدنية لا يزال صاحبه أبداً مذموما وبأقبح الصفات موسوما قد تملك الجشع طباعه فلا تعرض له القناعة ولو كانت الدنيا بأسرها متاعه بل شأنه أكل الدنيا خضما وقضما ولو استطاع ما استوجب فيها أحد سهما فلا تراه أبدا الا فقيرا لا يؤثر ومقلا لا يكثر ومنهوماً لا يشبع وجامعا لا يقنع وناهضا فى

السرف لا يرجع ومقيما على الطمع لا يقلع

١٢٧

﴿ فوائد دار الآثار العربية ﴾

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

ان أفضل ما استدلّ عليه الخلف على أعمال السلف الآثار العربية التى هى من أهم الآثار فائدة وأعمها نفعاً من جهة العلوم والفنون فانها ترشد الى الوقوف على فن التاريخ وتهدى الى قديم عهد الأمة العربية وما لها من الذخائر التى انتفع بها من بعدها وما وضعته من الأساس الذى انبنى عليه التقدم لمن تأخر عنها فقد كان لها اليد الطولى على أهل القرون الأولى يشهد بذلك ما بقى بعدها من الآثار وما نقل عنها فى كتب الأخبار من الأبنية الجليلة والصنائع الجميلة فان ذلك يعرب عن مزيد قدرتها وشدّة مهارتها وعلوّ أفكارها — هذه الاهرام من الآثار الجليلة التى جعلها المصريون محلا لمعارفهم وأثراً يستدل به من أتى بعدهم من الأمم على ما كان لهم من الابهة والفخار والعظمة والاعتبار فهو أثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا اليه من العلوم الهندسية وعلم جرّ الأثقال.

وفنون أنواع العمارة ويدل بوضعه الذى هو عليه وتوجيه زواياه على أنه أثر فلكى تعين به الجهات وتعرف الفصول والانتقالات فالمصريون كانوا بالغين النهاية فى الفنون الهندسية وكل من دخل أرض مصر وتأمل ما بقى فيها من الآثار التى هى من أغرب العجائب يقف متحيراً ويطرق متفكراً فلذا اعتنت الحكومة المصرية بشان تلك الآثار والحرص عليها وحفظها من أن تتولاها يد التلف والضياع أو يعتريها التغيير والتبديل

وقصارى القول ان بقاء الانسان بالآثار ان خيرا فخير وان شرا فشر.

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار

١٢٨

﴿ مضار الغيبة وقبائحها ﴾

أن الغيبة أذم الأفعال مقصداً وأخبث الأقوال معتقدا وأسوأ الأخلاق مذهبا وأصعب الأحوال مركبا بل هى الداء العضال الوبائى الفاشى — قال تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) وقال عليه الصلاة والسلام (الغيبة أشد من الزنا ومن شرب

الخمر) وقال بعض الحكماء (من عاب وضيعاً فقد رفعه ومن عاب رفيعاً فقد وضع نفسه) فالغيبة « وهى ذكر انسان آخر بما يكره » شيمة الأوغاد وهى مجلبة للخراب والفساد وجهد العاجزين وسمار الفاسقين — وليت شعرى كيف يأكل الانسان لحم أخيه بحية فيه فان كان من وصفه فيه ما ذكره فقد اغتابه ودحره وأظهر قبيحاً كان مستورا وهتك سترا كان مسدولا وفضح سرا مكتما وأحل أمراً محرّما وما رعى ذمة ولا حفظ حرمة وان كان بريئاً مما أبان فافك وبهتان وكلاهما تمزيق أعراض وآثام وأمراض وهذا اذا كان الموصوف تقيا لا فاسقا جهنميا والا حلت غيبته واسقطت درجته وهيبته لتهتكه بالمحرمات وجهره بالمنهيات والمعصيات

ما أقبح الشيم المخلة بالفتى وأشد منها شيمة الكذاب
وأشد من هذا وهذا أن يرى لهج اللسان بغيبة الغياب

١٢٩

﴿ مضار الحسد وأسبابه ﴾

أن الحسد أصل كل عداوة ورأس كل بلية ورأس كل خطية وسبب كل ملامة وجالب كل ندامة بل هو داء دوىّ

وعرض خبيث دنى يدل على فساد الدين وقلة اليقين ومازال صاحبه كدر النفس نكد العيش قليل الأنس قدفارق القناعة وخزل الطاعة فهو حليف هموم وغموم ظالم فى زى مظلوم قال تعالى (ومن شرّ حاسد اذا حسد) وقال عليه الصلاة والسلام « ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »

وقال الشاعر

كل العداوة قد ترجى ازالتها　　الا عداوة من عاداك بالحسد

فالحسد (وهو تمنى زوال نعمة المولى عن أحد خلقه) وصف مذموم وصاحبه من الخيرات محروم كيف لا وهو كبيرة من الكبائر وجرثومة الفساد ومجلبة السوء بين العباد يجمع خصالا مذمومة ويقتضى أحوالا منكرة وأسبابا مشئومة منها بغض المحسود لغير سبب والحقد عليه دون ذنب وجب ومنها انكار الحق وان ظهر واظهار الباطل وان استتر ومنها الاعتراض للفضيحة والتجافى عن النصيحة والتصدى لكل قبيحة ومنها الامتناع عن جميع ما عند المحسود من الخير وان كان مفتقراً اليه — قال بعض الحكماء حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها ولا يشفيه الا انتقالها — وقال بعضهم الحاسد لا ينال

من المجالس الا مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة الا لعنة وبغضا ولا ينال من الخلق الا جزعا وغما ولا ينال عند الشرع الاشدة وهولا ولا ينال عند الموقف الا فضيحة وهوانا ونكالا

وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً لمن بات فى نعمائه يتقلب

١٣٠

﴿ العاقل يعوّل علي أدبه والجاهل يعتمد على نسبه ﴾

أيها الفاخر جهلا بالحسب انما الناس لأم ولأب
انما الفخر بعقل راجح وبأخلاق حسان وأدب

الأدب وما أدراك ما الأدب — الأدب كلمة جامعة لمحاسن الأفعال وأحاسن الأقوال وهو أكرم الخصال وارفع الأحساب به يحصل المرء على الرغائب الجليلة ويتوصل الى نجاح المقاصد الجميلة يرفع العبد المملوك ويجلسه فى مجالس الملوك وهو زيادة فى الفضل ودليل على العقل وصاحب فى الغربة وأنيس فى الوحدة وجمال المحافل وزينة الأفاضل ومن لم يكتسب بالأدب مالا اكتسب به جمالا ومن قعد به نسبه نهض به أدبه والمرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ومن حيث يوجد لا من حيث يولد وبآدابه لا بثيابه

وبفضيلته لا بفصيلته وبعقله لا بعقائله وبأنبائه لا بآبائه وبكماله لا بجماله

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنذا * ليس الفتى من يقول كان أبي

قال بعض الحكماء لا يكون الشرف بالنسب ألا ترى ان أخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرف من الآخر ولو كان ذلك من جهة النسب لما كان لأحد منهما فضل على الآخر لأن نسبهما واحد ولكن ذلك من قبل الأفعال لأن الشرف انما هو بالفضل لا بالنسب

أبوك أبي والجد لا شك واحد ولكننا عودان آس وخروع

وقصارى القول أن من الناس من يتكل علي حسب آبائه فيفتخر به لدى جلسائه وأخلائه في صباحه ومسائه ولا ينهض لمأثره ولا يصبوا الى مفخره بل شانه أن يقول في كل مجال ان أبي كان ذا فضل وجاه وجود واحسان حتى سارت بحمده الركبان وشدا بمديحه كل قاص ودان وهكذا يبنى أوهامه ويضيع لياليه وأيامه — ومن الناس من يقرّ بخسة أصل أجداده ولكنه يفتخر بجده واجتهاده حتى يحاول أن

يستر بفضله ما بدا من عيب أصله فاذا ذكر لأحد حسب قال لا حسب الا الأدب ولا فخر للمرء الا بنفسه لا بأصله وجنسه وهذا القول فى نفس الأمر صواب وهو الذى يعتمد عليه كثير من ذوى الآداب وهو رأس مال الذين لا حسب لهم وعليه يجعلون معولهم الا أنه لا ينكر أن للأصول تأثيراً فى الفروع عظيما فلا تكاد ترى ذا أصل زكى الا وتتوسم فيه خلقاً وسيما وشأنا كريماً فاذا اجتمع الأصل والفعل واقترنا كان ذلك غاية المنى والا فان هذا الثانى خير من الأول وأكرم منه وأفضل

وبالجملة ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس دون طائفة ولا بأهل حرفة دون حرفة بل الفضل صفة تكون بالانسان علي قدر ما يحوز من العلم والأدب فكما تكون فى المهندسين والحكماء وكما تكون فى التجار وأهل الصنائع تكون فى آحاد الخلق من الفلاحين والصناع فليس الانسان بأصله وحسبه بل بكمال عقله وحسن أدبه — فكم من امرئ مقطوع النسب وصل بأدبه الى أعلى المناصب والرتب وكم من ذى نسب وأصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حقير أزال بكمال

عقله دناسة أهله وأصله

لكل شيء زينة فى الورى وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بآدابه فينا وان كان وضيع الحسب

فالأدب باب الأرب ومفتاح الطلب ومصباح النجاح وراح الأرواح ومشكاة الفلاح وظرف اللسان ولطف الجنان ورقة البيان

الناس أجدر أن لا يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثار احسان

١٣١

﴿ أيهما أفضل فى بلادنا المصرية الصيف أم الشتاء ﴾

الصيف خفيف المؤونة جليل المعونة كثير النفع قليل الضر راحة الفقراء والمساكين ناشر زهور الرياحين ونبات البساتين

مصيف له ظل ظليل على الورى ومن حلا طعما وحلل أخلاطا
يعالج أنواع الفواكه مبديا لصحتها حفظا بعجز بقراطا

فالصيف فصل الخيرات والبركات وموسم ضم المحصولات التى هى أرزاق المخلوقات وأوان تكاثر المعاملات

والشتاء كاس الهناء فيه تبرد المياه التى هى مادة الحياة ويتميز الفقير وصاحب الجاه وينقطع الذباب والبعوض والهوام

ويؤمن على الطعام والشراب والأجسام — طول لياليه فرصة الكتاب والأدباء وثمار الأصحاب والأحباء وغالباً يتمالك الانسان صحته فى فصل الشتاء

ليت الشتاء يعود لى بنعيمه ان الشتاء غنيمة الكتاب
قصر النهار وطال ليل ممتع فيه يلذ بقينة وشراب

وحيث أن بلادنا المصرية فى أعظم نقطة متوسطة فى القارة الافريقية معتدلة الهواء فى فصل الشتاء تقصدها السياح من جميع الانحاء ويحلو للكل فيها كأس الصفاء لا يكاد أحد ينكر فوائد الشتاء فى هذه البلاد ولا يجهل فردمضار الصيف الذى تكثر فيه الامراض الوبائية لجميع العباد وينتشر فيه البلاء المصور والهواء الأصفر الذى أورث الحكماء الحيرة المسمى عندهم بالكوليره — قال بعض الحكماء لا مرحبا بالصيف من ضيف فهو عون على الحيات والعقارب وناشر للذباب والخنافس والمصائب وطائر البق الذى هو آفة الخلق

١٣٢

﴿ صغار الأمور يولد كبارها ﴾

ترق الى صغير الأمر حتى يرقيك الصغير الى الكبير

لايخفى أن الجزئيات أساس المركبات والأمور الصغيرة مصدر الكبيرة وبقدر الاعتناء بالشيء تكون الثمرة فالمعتنى بصغائر الامور يجنى من كبارها الفرح والسرور والمهمل لصغائر الاعمال يلعق كأس الذل والوبال لأن المبنى على الصحيح صحيح والمبنى على الفاسد فاسد

لاتحقرن صغيرا فى مخاصمة ... ان البعوضة تدمى مقلة الأسد
وفى الشرارة ضعف وهى مؤلمة ... وربما أضرمت نارا على بلد

فيلزم العاقل الاعتناء بالاشياء الصغيرة قبل استفحال الأمور الكبيرة الخطيرة ولا يسوّل له الشيطان أنها أمور حقيرة فكم آفات طامة كبرى ومصائب مدلهمة عظمى نشأت من عدم الاكتراث بصغائر الأمور فأمطرت عليهم الخطوب مدرار الشرور

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر

وأعظم شاهد وبرهان العيان الذى لا يختلف فيه اثنان فكم شاهدنا حروبا خطيرة كانت لأسباب صغيرة وكلمة بسيطة جرت دمارا وخربت ديارا وشرارة ضعيفة أضرمت نارا

ولا غرو أن الاستهانة تجلب الندامة ولا ينفع الندم حيث زلت القدم وان الاعتناء حصن منيع وحرز رفيع يتقى به العاقل صدمات الشرور ويحفظ نفسه من مخالب الدهور

وبالجملة ان الحياة مؤلفة من أمور صغيرة شأن كل عظيم فى الدنيا ولا نجاح فى مطلب من المطالب الا باعتبار دقائقه الصغيرة ولو لم يكن لها قيمة فى نفسها والذين يقصرون نظرهم على كبار الأمور ويهملون صغارها لا يسلمون من الفشل

أى أمر أقل اعتباراً فى عين السياسى المحنك والفيلسوف النقريس من تنظيف البيت وما فيه ولكن نظافته تجيد صحة ساكنيه وتدمث أخلاقهم — وأى نفع أعظم من هذا من كل ما ألفه البشر فى السياسة والفلسفة . واهتمام الناس بصغار الأمور يدل على اهتمامهم بكبارها — قال حكيم محك الرجال صغائر الأعمال — وقال الشاعر

جنيت على نفسى لأن تأخرى أنى لى باهمالى صغائر أعمالى

١٣٣

﴿ النميمة ومضارها ﴾

النميمة من أكره الخلال الذميمة تدل على نفس سقيمة

وطبيعة لئيمة مشغوفة بهتك الأستار وافشاء الأسرار وربما أدت الى سفك الدماء وانتهاك المحارم وهى جامعة بين النم والغيبة فكل نمام مغتاب وليس كل مغتاب نماما -- قال تعالى (ولا تطع كل حلاّف مهين هماز مشاء بنميم) وقال عليه الصلاة والسلام (شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث) وقال بعض الحكماء نمش ماش شر من واش - وقال الشاعر

تنح عن النميمة واجتنبها فان النمّ يحبط كل أجر
يثير أخو النميمة كل شر ويكشف للخلائق كل سر
ويقتل نفسه وسواه ظلما وليس النم من أفعال حر

فمن أوجب الأشياء على العاقل الحازم أن يحترس من النمام جهده ويجتنب مخاطبته ويعاف مجالسته ويزهد فى صحبته ويرغب عن ممازجته ولا يثق به فى حال من أحواله ولا يأتمنه فى شىء من أقواله وأفعاله فان صحبته غرر ومخاطبته خطر

وقصارى القول أن النميمة (نقل كلام الناس بعضهم الى بعض على وجه الافساد بينهم) من أعظم الذنوب عند الله تعالى كيف لا تكون النميمة من أعظم الذنوب وأقبح العيوب

وهى المفرّقة للقلوب والباعثة للخطوب والمنزلة للكروب
قتل النمام ماأكفره وخذله وخيب أمله انه شريك الشيطان
وعدوّ الانسان

١٣٤

﴿ فوائد البريد «البوسته» والاسلاك البرقية «التلغراف» ﴾

المخترعات فى الدنيا كثيرة وقد صارت سهلة بعد أن
كانت خطيرة وأحسن عظيم اخترع وأفيد شكل غريب
ابتدع «البريد» فقد قرّب البعيد وجمع شمل الأحباب
وحفظ روابط الألفة بين الأصحاب وبه وقف التجار على
حقيقة تجارتهم مما راج وكسد ومما هبط وصعد لاسيما ما أنجمه
السلك البرقى من سهولة تعاطى الأخبار وايصال نتائج الأفكار
الى جميع القرى والأمصار على تنائى البلاد والديار وبعد المزار
فأصبحت به البلاد المتنائية وأقطار الأرض الشاسعة والأماكن
القاصية متصلة ببعضها حتى تيسر للانسان أن يخاطب صاحبه
فى كل جهات الأرض ويخابره ويحادثه مواجهة مشافهة وقربت
الصلاة التجارية والسياسية ويسر على التجار معرفة الأسعار
فى جميع الأقطار أقرب من لمح الأبصار

وبالجملة فبواسطة البريد والاشارة الكهربائية فى البر والبحر صارت جميع بقاع الأرض متصلة ببعضها والأخبار واردة من جميع جهاتها فى الأربع والعشرين ساعة تعم الأخبار جميع جهات المعمورة — فما أعظم مخترعات هذا العصر وما أجمل فوائدها

١٣٥

﴿ فوائد السباحة فى الماء ﴾

ان مما يفيد الشبان صحة فى الجسم ونشاطا وقوة فى الأعضاء والعضلات السباحة اذ هى كافلة بالاستحمام وتقوية الأعصاب والأجهزة البدنية فان حركة الزراعين توسع الصدر وتقوى الرئتين لذى الشهيق والذفير وقد اعتنى بها الأمم القديمة والحديثة بتعليمها للابناء فكان الرومانيون يجعلون السباحة من جملة العلوم التى تأخذ بها الأبناء وبلغ شغفهم بها الى أنهم كانوا يضربون المثل للجاهل الذى لا يعرف شيئاً بقولهم هو لا يعرف القراءة ولا السباحة — وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الأمصار بتعليم الأبناء العوم والفروسية وترى أغلب سكان أوروبا يأمرون الأبناء بتعلمها فسكان

السواحل يقيمون على البحار حمامات مخصوصة للسباحة وأما سكان المدن التى لم تكن على البحار فيقيمون ضمن حماماتهم محلا متسعا أشبه بميضأة عميقة ومستطيلة لتعليم السباحة أمام معلمين ومعلمات — وقد قال أحد فلاسفة اليونان الصلاة للأديان والنجوم للأزمان والسباحة للأبدان

١٣٦

﴿ فوائد الأعضاء الجسمية من الرياضة البدنية ﴾

قد ألف جل شأنه بين الجسم والنفس فكل يشارك الآخر فى أحواله من السرور والحزن والقوّة والضعف فلا تكاد ترى من ضعفاء الجسم قوّة النفس وخفة الروح ومضاء العقل ودوام العمل ومن انصاع الى الدعة والسكون وأجاب داعى الكسل والخمول عاش ولا ريب كثير الأمراض لا يفرح بالوجود ولا يلذ بالحياة

والحركة البدنية داعية الى صحة الجسم والى نشاطه حيث تبعث فيه قوة على تحمل التأثيرات الجوية ليكون بعيدا عن الأمراض وتكسبه رشاقة القد وحسن القوام وجمال الأعضاء وتحفظ من ارادة الانسان وتضبط من تخيله وتوليه نفوذاً

وسلطانا على الجسم وميلا الي العمل والدوام عليه وسرورا بقبول الآثار الظاهرية وارتياحا الى مصادمتها — وقد قررت الأطباء أن عمل العضلات يدعو الى دوران الدم وسيره فى سائر الاعضاء فتتخلص الرئة والاجهزة الباطنية ومركز مجموع الاعصاب من كثرة الدم وان عدم الانتظام فى سير الدم يوقع الجسم فى الأمراض ويضعف أعضاء التحليل وبذلك يجد الانسان من نفسه ميلا الى الضعف والكسل وعدم ارادة الحركة ويؤدى ذلك الى عدم القدرة عليها فيما بعد وتستولى عليه السوداء ويصير قليل الصبر قلق الخاطر كثير الهواجس ويلحظ الدنيا بعين ملؤها سخط وكراهية الى غير ذلك من الامراض الجسمية والعقلية التى تكدر صفو المعيشة وتجعل الحياة مرة

وكانت الرياضة البدنية لدى الأمم القديمة ولم تزل الآن فى أمم أوروبا أهم موضوع لتربية الأبناء فكانت هى والموسيقى الأساس الوحيد للتربية لدى اليونان فالموسيقى لتهذيب نفوسهم وترويحها وتربية ذوقهم الأدبى — والرياضة البدنية لتقويم الجسم حتى تكون صورته مشخصة للنفس المهذبة فى جسم صاحى الحواس نشيط الأعضاء

وكانت العرب كثيرى الرياضـة والألعاب دعاهم الى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والزود عن الشرف والميل الى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وحب النشاط وسرعة اجابة المستغيث — ثم ان للرياضة البدنية أنواعا كثيرة كالعدو (أى الجرى السريع) وتسنم الجبال وحمل الأثقال والرمى الى الهدف ولعب الـكرة وركوب الخيل والسباحة والتجذيف وأعمال الفلاحة والصناعة وحركة الجمباز وغير ذلك

١٣٧

﴿ من أقوى أسباب النجاح الهجرة والسفر ﴾

ليس ارتحالك تزداد الغنى سفراً   بل المقام على خسف هو السفر

ان ميزان الأخلاق ومنهل الأرزاق ومحيي الأموات فى جميع الأوقات هو السفر الى بعيد الأماكن ومفارقة المساكن

بلاد الله واسـعة الفضـاء   ورزق الله فى الدنيا فسيح

فقل للقاعدين على هوان   اذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

اذ أول مزاياه فى دار الحياه معرفة المرء طوائف الرجال واكتساب حميد الخصال فيقارن المرء أخلاقه بأخلاقهم وعاداته بعاداتهم فما باين أخلاقهم الفاضلة هجره وما شذّ عن عاداتهم

الكاملة كفره فتنسج أخلاقه على منوال الفلاح وتوزن بميزان النجاح وتحلى بزينة الفضائل وتتخلى عن وصمة الرذائل

سافر اذا حاولت قدراً سار الهلال فصار بدرا

وثانى مزاياه أن يعرف أسالب الأرزاق ميسورة الوفاق قريبة المنال كثيرة النوال بعيدة الموانع جليلة المنافع فالسفر أحد أسباب العيش التى بها قوامه وعليها نظامه فبالاسفار ترى العجائب وتجلب المكاسب تزيدك علما بقدرة الله وحكمته وتدعوك الى شكر نعمته

وان نبت بك أوطان نشأت بها فارحل فكل بلاد الله أوطان

وثالث مزاياه أن يرى الاقرار بفضائله وحسن شمائله لأنه فى بلده مهجور وفى غيرها مشهور كما هى سنة الانسان فى كل مكان وزمان وفى محله لا تعزى اليه فضيلة ولا تنسب اليه جميلة فمتى جاوز الانسان بلاده نال ما أراده ونشرت سيرته وحمدت سريرته وصار للحياة أهلا وللكمال أصلا

وما بعض الاقامة فى ديار يهان بها الفتى الا بلاء
وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء
ولم أر كامرئ يدنو لخسف له فى الأرض سير وانتواء

فالماء العذب ان ركد خاب وان جري طاب

الماء ينتن ان أقام وانجرى خلصت جواهره من الأقذار

والسيف فى غمده على صداء وفى غيره الى جلاء والسبع ان ترك غابته قنص فريسته والبدر عند غيابه يترقب نوره ويرجى سروره والتبر فى أرضه رماد خفى وفى سواها نقد وحلى

لولا التغرب ما ارتقت درر البحور الى النحور

١٣٨

(ورق النصيب ومضاره)

أمر النصيب معروف عند العامة فضلا عن الخاصة وهو بالحق فكرة ابليسية يقصد بها ابتذار الأموال باغراء واغواء فمن الناس الذين لا عقل ولا دين لهم يطلبون السعادة من يد البخت لا من يد الكد ولا يلتفتون لقول الشاعر العربى

ليس الحياة بأنفاس نرددها ان الحياة حياة الفكر والعمل

ويعتقدون أن القدر أضمر لهم حظوظهم فيفحصون عن هذه الحظوظ ان سعادة أو شقاء فى أوراق النصيب وغيرها

ومعلوم أن العيش لا ينال الا بعرق الجبين لأنه يستحيل أن يحصل كل انسان رزقه من أرباح النصيب والا فمن يقوم

بالأشغال الأخرى التى عليها مدار البقاء وبها حركة المجتمع الانسانى — وبالجملة فتحريم (ورق النصيب) كتحريم (الميسر) واتخاذها وسيلة لجمع الصدقات عمل غير مأجور ولا مبرور ولا مقبول عند الله تعالى والذنب فيه على المتصدق مضاعف لأنه يتصدق بحرام ويطعم المتصدق عليهم حراما وهم لا يعلمون

١٣٩

(الاستقامة من أقوى أسباب النجاح)

الاستقامة هى الاعتدال فى جميع الأمور من الاقوال والافعال والمحافظة على جميع الاحوال التى تكون بها النفس على أفضل حالة وأكملها فلا يظهر منها قبيح ولا يتوجه اليها ذم ولا لوم وذلك انما يكون بالمحافظة على الشرع الشريف والتمسك بالدين والوقوف عند حدوده والتخلق بالاخلاق الفاضلة والصفات الكاملة كاجتناب المحارم والتعفف عن المآثم ولين الجانب والصدق وانجاز الوعد وبذل النصيحة والشفقة علي مخلوقات الله وأداء الأمانة لمن ائتمنه منهم وكف اليد واللسان عن أذيتهم وبذل الشفاعة والعفة والورع وغير ذلك — قال تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة

ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فهى من أفضل الخصال وأجمل الخلال فيها كمال المروءة وتمام الايمان وبها تكسب الفضائل وتسلب الرزائل وتحمد السير وتحسن السريرة — قال تعالى (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) فما أحسن الاستقامة وأجلبها للخير وأدرّها للرزق قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال الشاعر

حيثما تستقم يقدّر لك اللـــــه نجاحا فى غابر الأزمان

فالاستقامة قاعدة نظام الأعمال فاذا انتقضت اختلّ ذلك النظام وعلى مبدئها الصحيح تروج تجارات التجار وتجرى أعمال جميع العمال وأصحاب الأعمال فى سبلها — ومهما كان المرء شريراً وكان مستقيما فى معاملته دار دولاب عمله

وبالجملة ان آمن طريق يسير فيها من يرمى الى العلا هى طريق الاستقامة والقيام بالواجبات طريق الهدى والابتعاد عن اللهو واللعب -- هى الطريق التى سار فيها الذين سادوا بحق — هى الطريق التى نزلت بها الشريعة الغرّاء

***

١٤٠

﴿ منافع الفحم ومضاره ﴾

الفحم جسم صلب هش سهل السحق أسود اللون ويكون اما بتقطير الخشب أو احراقه فى الهواء المطلق احراقا غير تام كما هى عادة تحضيره واما بتكليس أى احراق العظم فى اناء مغطى ويكون الفحم ثقيلا متى كان متحصلا من الخشب الصلب الكثيف وخفيفاً متى حصل من الخشب الأبيض الخفيف ويختلف احتراق الفحم باختلاف خفته وكثافته فكلما كان خفيفاً سهل احتراقه والتهابه وبضد ذلك اذا كان كثيفاً ولذا يستحسن استعمال الفحم الخفيف لعمل البارود

وأما المضار التى تتسبب عن احتراق الفحم ويجب التحرز منها فهى اذا أحرق الفحم فى حفر النار أو فى المناقد تولد عن ذلك غاز يسمى أوكسيد الكربون وذلك ان كان مقدار الفحم المتقد زائداً أو تولد عنه غاز حمض الكربونيك ان كان مقداره قليلا أو تولدا معاً وكلاهما سم قتال فان بهما أو بأحدهما تحدث آلام فى الرأس وثقل ودخان وابتداء اسفكسيا (أى اختناق) وذلك كله ان كان ايقاد الفحم فى محل محبوس الهواء وليس

الهواء متجدداً فيه وانا نرى كثيراً من أرباب البيوت يستعملون الفحم وقوداً فى بيوتهم للتدفئة فى زمن الشتاء خصوصا فى المحال المحبوسة الهواء كالخزائن الصغيرة والمناظر والحمامات فالذى ينبغى لهم فى هذه الحالة أن لا يدخلوا الفحم المتقد فى موضع من المواضع المذكورة الا بعد أن يلتهب جميعه فى الهواء المطلق ويصفو بحيث ينقطع دخانه وبذلك يكون الانسان آمناً على نفسه من مضراته الهائلة وغازاته القاتلة

وأما منافع الفحم فعديدة منها استعماله وقوداً فى البيوت وفى الصنائع ومنها دخوله فى تركيب أنواع البارود ومنها امتصاصه المواد الملونة والغازات (خصوصاً الفحم النباتى) بواسطة مسامه أى أخليته الكائنة بين جزئياته وهذه الخاصية صيرته نافعا فى الصنائع لازالة المادة الملونة من بعض المحاليل كما فى صناعة السكر وكما فى الأعمال الكيماوية ولازالة العفونة من السوائل والأطعمة فاذا وجد الماء منتنا وأريد زوال عفونته واستعماله للشرب أو خلافه يرشح على طبقة من الفحم . واذا أنتن الطعام وجعل الفحم فى خرقة نظيفة وأغلى مع الطعام أزال عفونته وصيره صالحا للأكل وكذلك ينفع الفحم لحفظ الماء

من التعفن ولذا تجد البراميل المعدة لحمل الماء فى السفر يطلي باطنها بالفحم خفيفا لتحفظ الماء من التغير زمنا طويلا . ومن منافعه أيضا حفظ المواد العضوية من التعفن . وله استعمالات طبية باطنية وظاهرية وغير ذلك والله أعلم

١٤١

﴿ الهواء وفوائده ﴾

بديهى أن الانسان لا يمكنه أن يعيش بدون الحصول على مقدار معلوم من الهواء فهو غذاء ضرورى به تنتعش القوى وتتنبه الحواس وضرورته كضرورة الطعام والشراب بل أهم لأن الانسان يمكنه المكث من غير أكل أياما ولا يمكنه الاستغناء عن استنشاق الهواء لحظة — قال بعض الحكماء كيفما يكن الهواء يكن الدم وكيفما يكن الدم تكن الصحة وقال بعضهم ان زهرة الانسان أحوج الأزهار الى الهواء والشمس — ألا ترى أن سكان الأرياف مع عدم جودة غذائهم أصح من سكان المدن أبدانا وأقوى أعضاء وماذاك الا لجودة الهواء الذى يعيشون فيه

وبالجملة الهواء من أجل النعم التى أنعم الله بها على جميع

المخلوقات لشدة لزومه للحيوانات والنباتات اذ مدار حياتهما عليه بحيث لو انقطع عنهما ولو مدة وجيزة لمات الجنسان بلا توان — ومعلوم أن الانسان قد يعيش أكثر من شهر بلا تناول طعام وبضعة أيام بلا شرب ماء ولكنه لا يعيش أزيد من خمس دقائق تقريبا اذا انقطع عنه الهواء — ولما كان من الضروريات الشديدة اللزوم لحياة كل ما أوجده الله تعالى من حيوان ونبات جعله عاما منتشرا فى جميع المحال فلا يخلو منه موضع حتى ما نظنه فارغا مثل الاناء الذى ليس فيه ماء ولا غيره فانه فى الحقيقة ليس فارغا بل مملوءا بالهواء — ومن كرمه سبحانه وتعالى أن جعل وجوده سهلا لا ندفع له عوضا ولا نبذل له ثمناً

١٤٣

﴿ فوائد التمثيل ﴾

التمثيل مرآة ترينا أطوار الأقدمين فى أشباح المتأخرين وتاريخ يطلع فيه الخلفاء على عوائد السلفاء بل حلم فى يقظة نرى فيه أحوال الأجيال الغابرة فى الآونة الحاضرة وعظة بأغرب العبر لقياس ما يأتى على ما عبر بل هو صورة تظهر فيها العواطف والاخلاق مرسومة بمداد الملامح والأحداق — ففى المشهد

يتجسد ملاك الحب وتتآنس آلهة الجمال متسربلة بحلل الكمال وفى المشهد تتجسم الفضيلة والرذيلة وتتناظران ويشخص الوفاء والاخلاص والعفاف وكل سجايا الانسان — فما التمثيل الا معرض تستعرض فيه العواطف والفضائل والرذائل والعوائد والأخلاق فكما يبتهج النظر باستعراض المناظر الجميلة هكذا تبتهج النفس باستعراض العواطف الواضحة فى صور الملامح البدنية — ولا يخفى أن العواطف تتفاهم بلغة الملامح فبقدر ما يجيد الممثلون فى اظهار احساساتهم وانفعالاتهم المقتضية أدوارهم يتأثر المشاهدون وتتحرك عواطفهم تبعا لملامح الممثلين فالتأثر من التمثيل غير متناه لأن الاجادة فيه غير متناهية أيضا ولهذا لا نعجب اذا رأينا الحاضرين فى الملعب يذرفون الدمع مدرارا اشفاقا على الممثل اذ يمثل دورا محزنا أو يطرقون فرحا مع الممثل اذا كان فرحا مسرورا لان العواطف تحاكى نظراءها — ألا ترى أنك تبكى مع الباكين وان لم يكن الداعى الى البكاء ما يعنيك وترثى للتعساء وان كنت سعيداً

وتفرح مع الفارحين وان كنت لست من ذوى الفرح

وبالجملة التمثيل من أعظم البواعث على تأديب النفس

وحسن تهذيبها وبذلك كبرت فوائده وعظمت مزاياه التى لا تحصى ولا تستقصى

١٠٣

﴿ فوائد الثبات فى الأعمال والمثابرة عليها ﴾

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ... فان فساد الرأى أن تترددا

الثبات فى الأعمال يكون بالمثابرة عليها ومقابلة الأهوال والمشقات والصعوبات التى تعرض له فى أثناء سعيه وراء النتيجة المقصودة له من تلك الأعمال بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى يحصل عليها وينال أمنيته منها فاذا عرض له مايظن معه صعوبة الوصول الى النتيجة المطلوبة له فلا يكون ذلك حائلا دون الاستمرار فى العمل فانه لا صعب مع الاجتهاد وتوجه النفس والرغبة فى ذلك الشىء المطلوب كل ذلك مع تدقيق النظر والفكر والتؤدة فى العمل وتخير الوقت المناسب فى الحالة المناسبة وعدم الميل الى جانب الافراط فانه ممل ومتعب ولا الى جانب التفريط لعدم نجاح العمل معه فمن لازم الثبات بهذه الكيفية وجعله أساساً فى سائر أعماله كانت السعادة احدى خطياته والنجاح أسير خطواته والفلاح قرينه والعز بيتاً هو

تطينه ومن استفزته الأهواء وطوّحت به الحوادث فاشتغل كل يوم بعمل وكدّ غير حكيم واجتهد غير عليم فلا شك أنه لا يجنى غير الشقاء والتعاسة والعناء بدون ثمرة تعود عليه أو فائدة ترجع اليه

فالثبات هو الاستمرار فى العمل بلا انقطاع عنه الى البطالة — وفى الأقوال المأثورة (الثبات عنوان النجاح) ولا شك فى أن الذين نجحوا هم الذين ثبتوا فى أعمالهم ولم يضيعوا أوقات العمل فى اللهو والبطالة

وبالجملة فالدنيا ميدان تتسابق فيه الهمم وتتبارى عليه الأمم فمن سبق فاز بالحسنى وكانت يده فى هذا الوجود هى العليا ومن قصر ونى كانت يده هى الدنيا وعاش عيشة الأذل الأدنى وانما ينال السبق بالثبات والصبر وعدم التقلب والضجر وليس فى الوجود عمل الا ويحتاج الى الثبات بنسبة مافيه من المشاق ولا يحول دونه من العوائق التى لا يزيلها الا المثابرة عليه والثبات له -- وفى الحقيقة فان ما أفاض نور العقل على نفس الانسان من هدى وما حرّك الآمال فدفع بالرجال الى جلائل الأعمال فتناولوا أسرار الطبيعة من كبد السماء واستخرجوا

كنوز الغنى والثروة من بطون الأرض وما عمر الأرض وأحياها وشيد دعائم المدنية وبناها وما مكن فى النفوس رغائب الحياة فتنافست بمحاسن الأعمال واستمسكت بعروة الجد فبلغت منتهى الكمال الا بالثبات الذى هو قوّة فى النفس تحتاج الى سبق الارادة وصدق العزيمة مع التصميم الذى لا يشوبه التردد فى الرأى

وما قام لوجود البشر وجود وقرّب طريق السعادة للانسان كالثبات — وفى المثل من ثبت نبت ومن صبر ظفر

والمتصفح صفحات التاريخ يجد أن الثبات من أهم دواعى سيادة الأمة الاسلامية على الأمم وترقيها فى معارج المجد

وهكذا الحال أيضا فى كل أمة كان الثبات رائدها وقوّة العزيمة سندها وهل ظهر أفراد الرجال الا بالثبات وهل خدمت المدنية قوّة كالاختراع والتفنن بالابتداع وانما هى قوّة لا تصدر عن غير أهل الثبات لما يلاقونه فى سبيل العمل من المصاعب والمتاعب التى لو خالطها شىء من الملل والتردد لما نجح أربابها ولخاب عمل أصحابها — ولكن بالثبات بلغوا أقصى الغايات

ولقد بلغ الثبات عند الأمم الغربية مبلغا عظيما به خدموا

بلادهم وأخرجوها من ظلمات الجهالة الى نور المدنية وتحملوا لأجله المكاره والمشاق وأنواع العذاب وسوقهم الى السجون واذاقتهم كأس المنون

١٤٤

﴿ مضار القمار ﴾

القمار مصيبة عظمى وطامة كبرى وداهية دهماء ونكبة عمياء وهو داء عضال سرت سمومه فى عروق كثير من الرجال فأضاعت نعمتهم وسلبت ثروتهم فاضمحل أمرهم وسقطوا عن مراتب الجاه الى أسفل درجات الذل والهوان وأصبحوا على قوارع الطرق يتسوّلون — قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقال الشاعر

أخسر خلق الله منا صفقة ... من يطلب اليسر بلعب الميسر

يجنى حراما ان جنى وقلما ... يبلغ الا حسرات المعسر

فغنمه جرم وأما غرمه ... ففقد ميسور وفقر موسر

فالميسر مهلكة للأمم ومضيعة للدين فكم خرّب من قصور وكم التهم من أموال — كيف لا وأن المقامرة تقود الى كثير من الرذائل لأن الرابح يستفزه الربح الى امتطاء متون الشهوات فيخوض عباب اللهو والبطالة ويندفع الى حمأة الرزائل فيخسر صيته وصحته وصلاح أخلاقه واسراف أمواله

فالمقامر سواء ربح أو خسر لابد له من الانفاق من ماله الحرام ومال الحرام أثقل من الزيبق اذا وضع فى الجيوب فلا يلبث أن يفتقها وينتثر منها — وهكذا مال المقامرين تراه يجول بين جيوبهم ففى الصباح ترى أكياسهم ملأى بالأصفر الرنان حتى اذا تتبعتهم فى بحر النهار وآناء الليل تراهم يحسبون دنانيرهم واذا هى فى الأكياس كالثمالة فى الكاس فتأخذك الدهشة ويستوقفك العجب ويجول فى ضميرك سؤال (أين ذهب الذهب) وقصارى القول أن القمار بشير الخراب الذى لا يحب ولا يستطاب فهو رسول الفاقة الذى ينزع البركة ويعطل الحركة بل هو الموت الأحمر والعار الأكبر ولاعبه فى الهيئة الاجتماعية لا يذكر لانه عار من الآداب والفضائل ملبس بالجرائم والرزائل ساقط المروءة والهمة عديم الشرف والذمة

لـكل نقيصة فى الناس عار　　وشر معـائب المرء القمار
هو الداء الذى لا برء منه　　وليس لذنب صاحبه اغتفار

وبالجملة ان لـكل داء دواء الا المقامرة فانها أعيت من يداويها — وذلك لان الانسان يميل بالطبع الى اللهو على شغفه بتحصيل المال والثروة عفواً — فاذا لاح له بارق الأمل من خلال البخت والنصيب وكان فى يده ما يسعفه على اجابة سؤال النفس الامارة بالسوء ارتطم فى هذه الورطة — وسواء ربح أوخسر فهو لا يزال مواظبا على اللعب آملا تعويض الخسارة أو زيادة الربح حتى تصير المقامرة فيه ملـكة راسخة متمكنة لا تقوى عليها نصائح الناصحين ونواهى الشرائع والدين فهى كالداء العضال لا ينجع فيه دواء حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا

وجنون المقامرين فنون وقصصهم عجائب غرائب وهم منتشرون فى كل مكان معروفون فى كل زمان مقذوفون بكل لسان محكوم عليهم فى كل الشرائع والأديان وهم مع ذلك لا يرعوون فان القمار كان منتشراً كثيراً بين الرومان

فالمقامرة تخلب العقول فلا يبصر المقـامر الهاوية تحت أقدامه لان بريق الذهب يبهر نظره فهو كالظمآن فى الفلاة

يرى السراب فيظنه ماء فيجدّ السير اليه ولا يزداد الا ظمأ وكلما قرب منه ابتعد عنه حتى يعتريه الكلال فيهلك — وعلي هذا النحو يجد الذى يحضر اللعب من نفسه دافعاً يحمله على اقتفاء أثر غيره والتحدى بأصحابه وهو يرى من خلال الأمل بريق الثروة والسعادة — فكم من رجال حضروا مجالس المقامرة لمجرد رؤيتها فعادوا من أكبر المقامرين — ومن لعب مرة اضطرمت فيه محبة اللعب حتى لا يعود يقوى علي دفعها ولذلك قيل « المقامرة لجة يغرق الغائص فيها لا محالة لانها لا قرار ولا ساحل لها — ومما نقش على باب أحد بيوت القمار « لهذا الكهف بابان باب الأمل وباب الاثم والهلاك يدخل اليه من الأول ويخرج من الثانى » فالمقامرة لا سبيل الى اجتناب ضررها الا بالابتعاد عنها — وأفضل طرق الوقاية منها مجانبة الكسل والبطالة والبعد عن بيوت المقامرة ومصاحبة المقامرين — وهذه ذكرى للغافلين وتبصرة للعاقلين

١٤٥

﴿ فوائد الاجتهاد ومضار الكسل ﴾

يعقب الجد نجاح وغنى   ورداء الفقر من نسج الكسل

الاجتهاد حياة البلاد وأس نجاح الاعمال والوسيلة الى ارتقاء درج الكمال فكم وضيع باجتهاده صار رفيعا وكم أمير بكسله أصبح وضيعا فمن اتخذ الاجتهاد شعاراً وواظب عليه وتعوّده دثارا توّج بتاج السعادة ورزقه المولى الحسنى وزياده

واذا هممت بأى أمر فاجتهد   فيه فان لكل مجتهد نصيب

والكسل والترفه والتعوّد على كثرة القعود وترك العمل مضر بالجسم ووظائف أعضائه ومؤدّ الى ضعف العصب واسترخاء العضل لانه موجب لضعف الحركة العضوية وانحطاط القوة الحيوية فيكون سبباً لبلادة الذهن وخمود وظائف البدن وهو عنوان النحوس ولبوس ذوى البوس وشيمة العجزة الجهلة

ظهر ان لا يبلغان المرء ان ركبا * باب السعادة ظهر العجز والكسل

فالكسل سبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيبة للامل

ليس البطالة والكسل   بالجالبين لك العسل

فاعمل فان الله قد   حث المطيع على العمل

ومنشأ الكسل عدم تربية الأبناء بتحسين أحوالهم وتهذيب أخلاقهم وتعويدهم من الصغر على الاشغال والتجلد على المشاق وتدريبهم على اكتساب فضائل الرجال وهمة الابطال وتنوير

عقولهم وارشادهم لما فيه صحة أبدانهم وحفظ أمور دينهم خصوصاً بترك محبة شهوة البطن ولا يتمتع صاحبها بالعيش الهنىء وتكون سببا لضعف الهمة وقلة المروءة اذ لا يخفى أن العدد الاكثر من الكسالى انما جاءهم الكسل من الافراط فى المأكل والمشرب ولذا قال عليه السلام (لاتميتوا القلوب بكثرة الأكل والشرب فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء)

فنحن كسالى فى أعمالنا وفى أقوالنا وفى أفكارنا وفى رياضتنا نحن كسالى فى جميع أطوار الحياة ومظاهرها — نحن كسالى فى الجد وكسالى فى الهزل وكسالى أمام المصائب وأمام الافراح وتلقاء النافع وأزاء الضار — نحن كسالى فى الصباح وفى المساء — نقوم من النوم كسالى ونذهب الى النوم كسالى ونعيش بين هذين الوقتين كسالى — أنظر فى تاريخ حياة كل فرد منا تجده مملوءاً بالاكل والشرب والنوم والاقوال الفارغة وقد لا تجد فى صحيفة واحدة من صحف أحدنا عملا يذكر

وليس المقصود أن نعمل مافوق الطاقة أوأن نأتى بالعجائب والغرائب بل أننا نعمل الاعمال العادية التى بدونها لا يمكن الحفاظ علي سلامة الجسم وصحة العقل — فعيبنا الكبير الذى

يشاهد بوجه التقريب عاما بيننا ويكاد لا يخلو منه أحد وأن كان يختلف قلة وكثرة هو الكسل

وقصارى القول أن الاجتهاد استفراغ الطاقة فى تحصيل أمر مستلزم للكلفة والمشقة - والعمل والاجتهاد فى كفتى ميزان اذا خف الاجتهاد هبط العمل ومتى أصيب المرء بداء الكسل ضعفت همته ووهنت عزيمته وأصبح لا يستطيع العمل الحقير بعد اذ كان يتقاعد عن العمل الخطير فقط وأصبح آخر القوم فى سبيل الحياة وعاش مرذولا

شمر وجدّ لأمر أنت طالبه ‏ ‏ ‏ ‏ اذلا تنال المعالى قط بالكسل

١٤٦

﴿ الخزان وفوائده ﴾

أن أرض مصر من أهم الأراضى الزراعية فلذا منحها المولى تبارك وتعالى ماء عذبا (ماء النيل السعيد) وحفظا لهذه المياه من ذهابها سدى فى البحر الأبيض المتوسط شيد خزان عظيم فى أصوان ليعم الرى جميع أراضى القطر المصرى وحينئذ سهل زرع الأراضى العالية مرتين بعد أن كانت تزرع مرة واحدة فى كل سنة — ولتحفظ البلاد من الشرق والغرق

وتكثر الفائدة وتمو الخيرات وتنشر البركات وتزيد المحصولات وتتقدم التجارات ويرتقى الشعب ويمحق اسم السلب والنهب ويعيش كل فرد سعيداً يودع عيدا ويستقبل عيداً

وبالجملة لما كان النيل الذى هو قوام الحياة فى هذه البلدان عليه مدار الخصب والعمران اعتنت به ولاة الأمور وسجنته بقناطر هائلة تنزله بقدر مقدور فى أوقات مخصوصة بانتظام كفلت الراحة للخاص والعام

أخزان مصر أنت أم هرما مصر أجل وأسمى فى المكانة والقدر
وهيهات ما اهرام مصر وان سمت بأرفع رأساً من حضيضك لو تدر
وما أنت خزان المياه وطميها وأبليزها بل خازن الدرّ والتبر
تدفقت بالخيرات من كل جانب وجمعت أقطار المنافع فى قطر

وحينئذ تسنى للحكومة بذلك أن توزع مياه النيل الذى هو روح حياة مصر وسبب سعادتها توزيعاً عادلا وأن تحفظ ما زاد من حاجاتها فى وقت الفيضان الى أيام انخفاض مياهه وقصوره عن رى ما ارتفع من واديه وبذلك أمكن المصريون أن يزرعوا أراضيهم عدة مرات فى السنة الواحدة وأن ينتفعوا بثمرات جهات ما كانوا ينتفعون بها من قبل فازدادت ثروتهم

واتسعت تجارتهم وغنيت حكومتهم — ولعمر الحق أن واحداً من تلك الخزانات التى تتدفق مياهها بالخيرات عند أولى الألباب لخير من ألف هرم فشتان ما بين آكام ضيع فيها نفيس الزمن وقوى الرجال وقناطير الأموال وبين كنوز الذهب وعيون النشب ومواحق الجدب وطلائع بشائر الخصب

١٤٧

﴿ المطابع وفوائدها ﴾

الانسان يفتقر الى ثلاثة أغذية — غذاء النفس وهو العمل الصالح وتقوى المولى تبارك وتعالى — وغذاء الجسد وهو ما طاب وحلّ من نبات وحيوان — وغذاء العقل وهو العلم والمعرفة — وهذا الغذاء الاخير مفضل على الغذاءين السابقين اذ به يمهد السبيل اليهما ويقتدر المرء على اتقانهما فضلا عما يستفيده من رفعة الشأن وحسن الحال فى المبدأ والمآل

ولم يتيسر العلم للانسان ولا عمت منافعه حتى تمكن من اثبات خواطره على القرطاس ونقل ما يكنه صدره الى ما بين أيدى الناس وكان لأول عهده فى الكتابة يقاسي المشاق فى حفظ ما يكتب وادّخار ما يقتبس من شوارد المعارف وشتات

العلوم — وكان القدماء اذا أرادوا أخذ علم من العلوم طووا البيدوالقفار وتجشموا الأخطار تقربا ممن أحرز العلم وامتاز به ولم يكن من سبب يدفعهم الى مقاساة عناء الأسفار الاقلة الوسائط التي تساعد على نشر العلم وبثه في جميع أنحاء المعمورة ليستفيد منه كل قاص ودان واستمرت الحال على هذا المنوال الى أن حنت دواليب المطابع حنين الناقة علي الفصيل وأخذت تدر للانسان ألبان العلوم والمعارف

ان المعارف للرقى وسائل ... لا تبصر الأشيا بلا أعيان
واذا المعارف أشرقت فى أمة ... نالت أمانيها بغير توان
ان المطابع للعلوم وسيلة ... والشمس لاتحتج الى برهان

وقصارى القول أن للمطبعة أيادى تذكر فتشكر وللخط مساوى لا تغفر اذ الخط يعتريه التحريف لغير جناس والطبع ينتج الصحة بدون قياس والناسخ أسير النقل وذو الطبع ينسج على منوال الفضل والمطبعة تعمل فى بضع أيام مالا يعمله الكاتب فى أعوام ولعاب القلم يمحوه اللسان وأثر الطبع لايغيره الزمان فذاك كالنقش على التراب وهذا أثبت من الوحى فى الصم الصلاب وثمرة الخط تجنى بيد المال الكثير وزهرة الطبع

يشمها الغنى والفقير والخط لو كان أنفا لكان أجدعا والطبع لو كان شكلا لكان مربعا والخط لو كان جمادا لكان حجراً صلدا والطبع لو كان جوهراً لكان جوهراً فردا

١٤٨

﴿ الحديد أنفع أم الذهب ﴾

الحديد وما أدراك ما الحديد الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس على اختلاف الأجناس منه تصنع السكك الحديدية والأسلحة والآلات الحربية والأدوات الزراعية والسفن البخارية بل متوقفة عليه كافة المنافع العمومية كيف لا وهو الحافظ للارواح البشرية والقاهر للاعداء والحاكم بين الملوك والامراء — قال تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وحينئذ هو أنفع من الذهب الذى يستعمل فى الحلى للزينة ويستعمل نقودا للمعاملة ويمكن أن يستغنى عن ذلك بخلاف الحديد فلا يمكن لأحد ما الاستغناء عنه بحال من الاحوال . اذ منه الكبارى والجسور وآلات الحرث والرى والزرع والحصد والطحن وهلم جرا من كل مما تتوقف عليه مصالح العباد فى كل زمان ومكان

١٤٩

﴿ فوائد الحلم ومضار السفه ﴾

الحلم من أكرم الخلال وأتم الخصال وأفضل شمائل الرجال وأعلى مراتب الكمال وهو أصل من أصول الدين وحصن من حصون الايمان حصين وركن من أركان الشرع متين من استند اليه وتمسك به واعتمد عليه استنارت له الظلم وأمن عثار القدم وعصم من مواقع الندم وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعد الهمم والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم يسمو بصاحبه فى الدارين الى أرفع الرتب ويطفىء من الانسان جمرة الغضب — قال تعالى (ان ابراهيم لحليم أوّاه منيب) وقال عليه الصلاة والسلام (تعلموا الحلم قبل العلم فما جمع شيء لشيء أحسن من علم الى حلم) وقال الشاعر

ألا ان حلم المرء أكرم نسبة　　يسمى بها عند الفخار حليم
فيارب هب لى منك حلما فانني　　أرى الحلم لم يندم عليه كريم

والسفه من الشيم المبغوضة والخلال الرديئة المرفوضة الدالة على خسيس الطباع وشمائل الأوضاع وصاحب السفاهة لا يثبت على حال ولا يقف على حقيقة من الأقوال والأفعال

قال تعالى (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه)
وقال بعض الأدباء من غرس الغضب فى أرض السفاهة شجرا
وأرسل عليها العجلة مطرا اجتنى منها الندامة ثمرا ولم يعدم فى
عواقبها ضررا — وقال الشاعر

اذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من اجابته السكوت
حلمت على السفيه فظن أنى عييت عن الجواب وما عييت

وبالجملة فالحلم (وهو سكون النفس عند دواعى الغضب مع
ترك الانتقام) من أشرف الأخلاق وأكرمها وأعلى مراتب
الكمال وأعظمها يبلغ صاحبها ذروة المجد ويكسبه جميل الحمد
به يصون الانسان عرضه ولا ينال منه السفيه غرضه ولا
يكون الانسان حليما الا اذا كان عالما عاقلا صبورا جامعا بين
عظم القدر وسعة الصدر مترفعا عن السباب فان ذلك يدل على
شرف النفس وعلو الهمة ويدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف
واحتمال السفيه خير من مشابهته والاغضاء عن الجاهل خير
من مناضلته به تكثر الأنصار وتدفع الأشرار فمن غرس
شجرة الحلم اجتنى ثمر السلم — قال الاحنف بن قيس ما آذانى
أحد الا أخذت فى أمره بأحدى ثلاث . ان كان فوقى عرفت

له فضله . وان كان مثلي تفضلت عليه . وان كان دونى أكرمت نفسى عنه

١٥٠

﴿ هل اللين أنفع أو الشدة ﴾

لكل انسان غرائز شتي مختلفة كالحلم . والجود . والبخل والسرور . والحزن . والغضب . والرضا . واللين . والشدة وهلم جرا — والمتصرف فى تلك القوى والحاكم بينها بالقسط واضعا كلاً موضعه «العقل» فبه تدرك مواضع « اللين والشدة »

فاللين سهولة الأخلاق علي الاطلاق فى جميع المعاملات والشدة قسوة القول والفعل فى كافة الصفات ومن بنى جميع أعماله على احداهما ألقى بنفسه الى الهلاك والضلال وباء بالخسران والدمار والوبال ومن قرأ التاريخ يرى العجب العجاب ويقف علي أسباب التغير الناتج من احداهما والانقلاب . هذا الحاكم بأمر الله الفاطمى اتخذ الشدة عادته فى جميع أعماله وسائر أحواله فوقع فى أوحاله

وهذا المستنصر بن الظاهر الفاطمى اتخذ اللين ديدنه والسهولة شيمته ولذا كان لا يبالى بما يقع فى الدولة من الأخطار

الجسيمة فانتشر الفشل فى الرعية ووقع النزاع بين جيشه وقامت الحروب فى البلاد واشتد القحط وأكل الناس بعضهم بعضاً حتى ابتاعوا الكلاب والقطط بعشرات الدنانير وقلما كانت توجد

وهذا اسكندر ذو القرنين وضع الشدة فى موضعها واللين فى موضعه فبشدته غلبت فئة اسكندر القليلة فئة (دارا) الكثيرة وملك البلاد وقهر الأجناد وبلينه ملك القلوب واستقام له الملك

فما أحسن من وضع كلاً فى موضعه وأنزل كلا فى درجة وموقعه وذلك بالعقل الحكيم

أرى اللين ضعفا والتشجع هيبة ومن لا يهب يحمل على مركب وعر
وما كل حين ينفع الحلم أهله ولا كل حين يدفع الجهل بالصبر

ومن قصرت بصيرته وذاغت عقيدته فلم يهتد للصواب ولا يعرف من أين يطرق الباب ولم يميز بين من يقومه الحسام وبين من يصلحه الكلام فالأولى به سلوك طريق اللين فقط اتقاء من شدة الأخطار والوقوع فى المصائب والمضار ولذا نرى كثيرين اتبعوا خطة اللين لأنه أقوى تأثيراً فى النفوس ولأنه خير الأمرين وأقوم الطريقين وأعدل الحكمين — قال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه

ولىّ حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) وقيل الماء مع رقته فتت الحجر مع شدته — وقال الشاعر

ولي فرس للشر بالشر ملجم ولى فرس للخير بالخير مسرج
فمن رام تقويمى فانى مقوّم ومن رام تعويجى فانى معوّج
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتى الى الحلم أحوج

١٥١

﴿ ما هو الغرض من قدوم السياح الى بلادنا المصرية ﴾
(وما هى الفوائد العائدة الينا منهم)

بلادنا المصرية أحسن البقاع تربة وهواء وأصفاها سماء وماء وأوسعها مرتعاً وفناء وأقدمها فخراً وآثاراً وأشهرها معارف وأفكاراً وأكبرها رجالا وأفضلها أبطالا تركوا بعدهم الآثار التي تدهش الأبصار

تلك آثارهم تدل عليهم فانظروا بعدهم الى الآثار

ان خيراً فخير وان شراً فشر — ولذا تقدم السياح الى بلادنا أفواجا ترويحاً للنفس واستنشاقا للهواء الجيد وفراراً من البرد القارص فى بلادهم الذى يكاد يقضى على حياة كثير منهم واستكشافا لكنوز السلف من الشرقيين التى نبذها الخلف

ظهريا حتى أصبح الغربى ينتحل لنفسه اسم المخترعات والمصنوعات التى هى فى الأصل من أفكار الشرق وأعظم شاهد على ذلك التاريخ

العلم يبقى زمانا فى دفاتره   وجامع العلم قدما كان قد دفنا

ومن نظر الى الاهرام التى مضت عليها القرون الطوال وهى شباب يندهش لبه ويتحير عقله فى كيفية بنائها وقطع أحجارها ورفعها الى ذروتها ويشهد لهؤلاء ببراعتهم فى الهندسة وقوة اختراع الآلات المتينة الصنعة كما أنهم شادوا المعابد العجيبة الوضع والأسبلة العميمة النفع — كل ذلك حرصا على البقاء المعنوى الأثرى

لسنا وان أحسابنا كرمت   يوما على الآباء نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا   تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقد جدت واجتهدت الغربيون وتحملت المشقات وقطعت الفيافى والصحراوت وساحت جميع الكرة الأرضية وبالأخص كافة البلاد الشرقية وسلبوا آداب الأمة العربية وسلخوا عنها ميراث آبائهم السالفين وزفوها عروسا الى أوطانهم فائزين وأصبح كل حزب منهم فرحا بما لديه ومبتهجا بما عنده . وما

زالوا ولن يزالوا يوالون البحث والتنقيب فى الوقوف على أعمالهم النفيسة والتحفظ عليها من أيدى الضياع ولذا شيدوا لها الدور الواسعة اعتناء بها — والفوائد التى تعود على بلادنا من قدومهم رواج التجارات ونشر الصناعات بل اتساع دائرة المعاملات وربح الفنادق « اللوكاندات »

وبالجملة قد يستغرب المرء أن يكون من هذا الأثر الصامت كل هذه الفوائد والمزايا ولكن من ينظر الى معنى الآثار بعين الامعان يطلع على خفايا ثمينة تنجلى للباحث المستقرى الذى لا يعبأ بزخارف الأمور ولا يقف عند حدّ النظر السطحى

ولم تنشأ المتاحف الأجنبية ولم يبذل الأوروبيون النفس والنفيس فى جمع الآثار القديمة لمجرد وضعها فى البيت أو المتحف زينة أو أثراً جليلا بل هم يتوخون من وراء ذلك فوائد جمة

وقد يتوهم كثير أن متاحف أوروبا خاصة بآثار أجدادهم المتقدمين أو ملوكهم السابقين وما هى الا مشحونة بآثار المصريين والشرقين فهم يفاخرون بما يهون لدينا

يقصد الأجنبى مصر من بلاده السحيقة لينظر آثارها النائية ويحمل من كنوزها ما يظفر به فيعود الى بلاده فرحا

مسروراً يحدّث بما لاقاه وما شاهده وما اشتراها فيسخر مواطنوه من جهلنا واهمالنا وعدم اكترائنا بالصنائع والفنون

ولقد جبلنا معشر الشرقيين على عدم الاهتمام بالمفيد فلا نعبأ بالدرّ داخل الصدف لأن فى فتح الصدفة لاستخراج الدرّة مشقة وعناء

والآثار اما بناء كالمعابد . والمساجد . والمدارس والجوامع . والاهرامات . والرباطات . والزوايا . والبيوت والابراج . والقلاع . والقناطر . والأسبلة . وماشا كل ذلك أو نقوداً كالدنانير والدراهم ونحوها — أو نقوشا كالتى فى جدران المعابد وما أشبه — أو صناعات كتطعيم أوانى النحاس من الذهب والفضة . وكتطعيم الخشب بالعاج والأبنوس والصدف وخلافه — أو صباغة كدهان السقوف والجدران وغيرها — أو كتبا ككتب الطب والصناعة والتاريخ والمصاحف الشريفة الى غير ذلك من العلوم والفنون

١٥٢

﴿ فوائد تعلم اللغات الأجنبية ﴾

بقدر لغات المرء يكثر نفعه   وتلك له عند الشدائد أعوان

فبادر الى حفظ اللغات مسارعا　　فكل لسان فى الحقيقة انسان.

أن تعلم اللغات حفظ للذات من جميع الآفات فمن تعلم لغة قوم أمن من مكرهم ووقف على خيرهم وشرهم وعرف أخلاق ذويها وسيرتهم وما هم عليه من الآداب والمحاسن الانسانية فيأخذ منها ما يكون صالحا لأمره نافعا لقومه مفيدا لوطنه ويصير بمنزلة كثيرين من الأفراد وان كان واحداً فى نفسه — كيف لا وأنه يكون جامعا أوجه الانتفاع ماديا وأدبيا لبنى جنسه

وبالجملة ان الالمام باللغات الأجنبية يعرف الانسان مالهم من طول الباع فى المخترعات واتقان الصناعات ومن أين تجلب التجارات وكيفية الطواف حول الأرض فى السياحات ويدرك بماذا تقدمت هذه الأمة وتمكنت الحضارة والمدنية فى نفوس أفرادها وبم تأخرت تلك الأمة وأضاعت بلادها وخسرت رجالها وفقدت شريعتها واتحادها وفخرها ومجدها وبذلك يتمكن حب الوطنية فى قلبه ويذب عن حوضها بسلاح شرفه

حفظ اللغات علينا　　فرض كفرض الصلاة

فليس يحفظ دين　　الا بحفظ اللغات

١٥٣

﴿ هل الرزق بالسعى والجد أو بالحظ والسعد ﴾

السعى حركة الانسان فى ظروفه الزمانية والمكانية لاصابة الرزق والراحة والجاه — فاذاً لا مرية فى أن بقاء الانسان وارتقاءه يتوقفان على سعيه أولا وعلى عمله ثانيا لأن العمل خاتمة السعى الذى هو ناموس للبقاء والارتقاء ~ وما من أحد الا وهو فازع الى سعادة يطلبها بجهد ومن طلب شيئا وجدّ وجد ومن قرع الباب ولجّ ولج — قال تعالى (وأن ليس للانسان الا ما سعى) ومن سعى رعى ومن جال نال — قال تعالى (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وجاء فى الحديث النبوى عن الأعرابى الذى أراد دخول مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وناقته بيده فقال يا رسول الله أأرسل ناقتى توكلا علي الله عز وجل أم أعقلها فقال النبى صلى الله عليه وسلم (أعقلها وتوكل) وقال الشاعر

ألم تر أن الله قال لمريم * وهزى اليك الجزع يساقط الرطب
ولوشاء أدنى الجزع من غير هزها * جنته ولكن كل شىء له سبب

وقال تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقال عليه السلام (ما أكل رجل طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده) وقال الشاعر

بقدر الكدّ تكتسب المعالى ومن طلب العلا سهر الليالى

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وأن الله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض)

وفى التوراة (ابن آدم خلقت من الحركة وأنا معك ابن آدم أمدد يدك الى باب من العمل أفتح لك باباً من الرزق)

وفى بعض الحكم هل يجوز فى وهم أو يتمثل فى عقل أو يصح فى قياس أن يحصد زرع بغير بذر أو تجنى ثمرة بغير غرس أو يورى زند بغير قدح أو يثمر مال بغير طلب وقد جعل الله طلب الرزق مقصوراً على الخلق كلهم من الانس والجن والطير والهوام منهم بتعليم ومنهم بالهام فأهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال ثم اذا نظر المتامل

الى الحالة الأولى من الهمجية وما صارت اليه الحالة الحاضرة من التقدم والعمران بواسطة الجد والاجتهاد وماوصلت أميركا الى الاكتشافات والاختراعات بل وجميع الغربيين ماارتقوا الى هذا الارتقاء الا بالجد والكد

وما طلب المعيشة بالتمنى ولكن ألق دلوك فى الدلاء
ولا تقعد علي كسل التمنى تحيل علي المقادر والقضاء
فان مقادر الرحمن تجرى بأرزاق الرجال من السماء
مقدرة بقبض أو ببسط وعجز المرء أسباب البلاء

ومن الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم يعتقدون أن الأعمال والمساعى كلها عبث والرزق فى الدنيا بالقسمة الأزلية ويستدلون بقوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا — والله خلقكم وما تعملون) وبقوله عليه السلام (الرزق عين ساهرة لعين نائمة) وبقول الشاعر

ليس مايحوى الفتى من عزمه لا ولا مافات يوما بالكسل

ويتعللون بألفاظ لا يفهمون تخريجها ولا تأويلها — فاذاً ما يسمونه بختاً وحظا وسعداً ونحساً ليس الا أوهاما فى أحلام

كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة وابتغاء فى الأمل

والمرء يغلط فى تصرف حاله فلربما اختار القعود على العمل

١٥٤

﴿ هل السكنى فى المدن أفضل أو السكنى فى القرى ﴾

المدن مركز العلوم والمعارف ومعدن الظرائف واللطائف ومنبع التمدين والآداب وحصن الأمن والاستتاب فيها أسباب الراحة والرفاهية التامة والحرية لجميع الأفراد عامة فيها ما تشتهيه النفس وتقرّ به العين وتنشرح به الصدور فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من أنواع الطرب والسرور — بخلاف القرى فانها بعكس ذلك على خط مستقيم اذ الفرق بينهما ظاهر جلى لأنه من البديهى أن القرى مأوى اللصوص ومجمع العصابات والدليل على ذلك القضايا الجنائية فان أغلبها بل كلها مقام على أهل القرى والسبب فى ذلك تسلط الجهل عليهم وسوء تربيتهم وعدم تدينهم وغلظ طباعهم وفظاظة أخلاقهم — فلذا يروى عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال لبعض أصحابه (لا تسكن القرى فيضيع علمك) وربّ قائل يقول ان القري هى المورد الوحيد الذى تستمدّ منه المدن جميع لوازمها الضرورية وانها جنة الله فى أرضه اذ فيها الماء والخضرة والهواء ولذة العيش

والصحة وبساطة الضمير — فنقول أجل نحن لا ننكر ذلك ولكننا نقول ان ذلك حاصل فى المدن أيضا زيادة على مافيها من المزايا الكثيرة وانجودة الهواءليست مختصة بكل القرى كما أنها ليست ممتنعة عن كل المدن فكم قرية أردأ هواءمن مدينة وبالعكس — كيف لا وقد قال عليه السلام (لا جمعة ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحى الا فى مصر جامع أو مدينة عظيمة) ثم لم ينقل عن الصحابة رضى اللهعنهمأنهم حين افتتحوا البلاد اشتغلوا بنصب المنابر والجمع الا فى الأمصار فهى الأفضل والسلام

١٥٥

﴿ ماهو الأفضل القلم أم السيف ﴾

القلم منبع العلم والحلم والحكمة وهو الرسول بينالملوك والأمراء والصادق الأمين بين الأحبة والأصدقاء وقرة أعين الأدباء والظرفاء وجليس العلماء والحكماء فهو اليد والساعد والعضد المساعد يترجم عما فى الجنان بأفصح بيان ويفهم الحاضر والغائب وتأثيره أشد من تأثير الكتائب

قوم اذا خافوا عداوة أمرئ سفكوا الدما بأسنة الأقلام

ولضربة من كاتب ببنـانه   أمضى وأنفذمن رقيق حسام

وحق من علم بالقلم أن فضله أشهر من نار على علم وكفاه فخرا أن الله أقسم به فى محكم كتابه فقال (ن والقلم وما يسطرون) وقال الشاعر

اذا افتخر الابطال يوما بسيفهم   وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب فخرا ورفعة   مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

بالقلم علم الانسان مالم يعلم وبه أدركنا أحوال من سبقنا من الأمم وبه كتبت كتب الله المقدسة وبه خرج الانسان من دائرة الهمجية الى عالم الترقى والحضارة والمدنية به سطرت جميع العلوم والفنون وهو للملوك عين العيون ومنار الدين والدنيا ونظام الشرف والعليا

قلم يفلّ الجيش وهو عرمرم   والبيض ماسلت من الاغماد

وهبت له الآجام حين نشابها   كرم السيول وصولة الآساد

قال بعض الأدباء (القلم هو أحد اللسانين وهو المخاطب للغيوب بسرائر القلوب على لغـات مختلفة من معان معقولة بحروف معلولة متبـاينات الصور مختلفات الجهات لقاحهـا التفكر ونتاجها التدبير)

ولى قلم فى أنملى ان هززته فما ضرنى ألا أهز المهندا
اذا صال فوق الطرس وقع صريره فان صليل المشرفى له صدا

والسيف آلة قاطعة مفرقة للأجزاء به تفتح البلدان وتنشر الأديان وسلاح القوّة الحاكمة ومنعتها وشرفها لولاه ما انتظم العمران ولا نشرت راية الراحة والأمان ولا استتب الأمن والاطمئنان فى جميع الأمصار والبلدان

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

ولكن لا يخفى على المتأمل أن حرب الأقلام أشدّ تأثيرا فى النفوس من حرب الحسام — والتاريخ أعدل شاهد كما حصل فى واقعة الملك « دارا » ملك الفرس مع مملكة «التتار» حيث تغلبت هذه الأخيرة على مملكة الفرس وهزمت جيشها بالحيلة بدون أن تشهر عليها سلاحا — وهذه دولة انكلترا فى الشرق وكثيراً من الممالك والشرائع قد فتحت وتأسست بغير السيف الذى لا يحمل الا على الشمال ويجر على الأرض بخلاف القلم الذى يحمل على الرأس ويجلس على اليمين فلا مرية فى أنه جليل القدر وهو أحق بأن يقول أنا سيد السيف ولا فخر

١٥٦

﴿ السكر ومضاره ﴾

واهجر الخمرة ان كنت فتى   كيف يسعى فى جنون من عقل

الانسان أكمل من سائر المخلوقات وأحسن صورة من جميع الحيوانات الا أنه ليس أسعد من غيره من الموجودات لأنه عرضة للتأثر بالمؤثرات الجوية وتقلبات الزمان فهو مشترك معها فى اعدامه الحياة وليست سلطنته ولا تدبيره لها فى الحقيقة ونفس الأمر الا لما خصه الله به من الصفات المعنوية التى هى أسرار الناطقية — وأفضل ما فى الانسان عقله وصحة جسمه فهو كما أنه باعتبار خاصيته الحيوانية مجبور طبعاً بتغذية جسمه كذلك باعتبار خاصيته الانسانية يجب عليه تغذية عقله بالمعارف وتحليه بالآداب ولكن لسوء الحظ لم يقتصر على هذه الأسباب النافعة بل تجاوزها واتخذ أسباباً تعاكسها ليست من ضروريات طبيعة الانسان بل هى من مضعفات الجسد والعقل — ومن أقوى هذه الأسباب تعاطى المسكرات التى هى متلفة للبدن مفسدة للعقل مذهبة للأموال جامعة لجميع العيوب والذنوب مفتاح كل شر طريق كل ضر منبع كل خصلة شنيعة ورزيلة

فظيعة تورث الجنون لبعض الناس وتحدث مرض السل الرئوى واحتقان الكبد — قال بعض الحكماء من السموم الخفية المشروبات الروحية — وقال آخر السكر رأس المعاصى

وبالجملة فالسكر آفة الاستقامة وعدوّ الشرف والأمانة ومجلبة الذل والاهانة يدعو صاحبه الى ارتكاب الموبقات والاقدام على جميع المحرمات

١٥٧

﴿ فوائد ومضار الورق المستعمل بدل النقود ﴾

أن للأمم اصطلاحات غريبة فى المواد المستعملة نقودا فالصينيون كانوا يستعملون مكعبات صغيرة من الشاى المضغوط عليه — وبعض قبائل أفريقيا يستعملون الأصداف البحرية وغيرهم المواشى — وغيرهم ملح الطعام — أما الأمم المتمدينة لهذا العهد فيستعملون الذهب والفضة لسهولة حمله وقسمته وحفظه بدون نقص فى قيمته

وكثيراً ما تستعمل فى العملة قطع من الورق عليها وعد بالدفع بدل النقود ويستحسن ذلك فى حالة ما اذا كان المبلغ جسيما لأن الورق سهل الحفظ خفيف الحمل — فورقة البنك

المرقوم عليها خمسة جنيهات تعهد من البنك الذى وضعها بدفع هذا المبلغ لمن يحملها — ولذا يقال أن الورق قابل للتحويل فيما لو أمكن مالكها استبدالها بالنقود فى أى وقت يريده ففى هذه الحالة تكون بمثابة النقود بل أفضل وغاية ما يخشى منه أن البنك الذى وضعها يعجز عن ابدالها بالنقود فى بعض الأحيان وكثيراً ما يحدث ذلك للبنوكات فتتوقف عن الدفع ولا تفى بما تعهدت به

ومع ذلك فقد تقوم الأوراق مقام النقود ولو تعسر وجود عملة أخرى وحينئذ يقال لهذه الأوراق أنها غير قابلة للتحويل أو أنها عملة فيقبلها كل انسان لعلمه أن غيره لا يقدر على رفضها لو عرضت عليه

١٥٨

﴿ حالة الأمة اذا فقدت لغتها ﴾

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

أن فقد اللغة فقد للشعور وتضييع للدين وانحلال لعرى الفخر والمجد المتين وموت للاحساس والشرف والحرية واستئصال لما يجول فى عروق الشعب من الحضارة والمدنية

قال ابن خلدون (اللغة ملكة صناعية متقررة فى العضو الفاعل لها)وقال عبد الله النديم « اضاعة اللغة تسليم للذات » وقال غيره « استقلال الأمة موقوف على حفظ لغتها » وقال آخر « اللغة هى عنوان الأمة »

فاللغة آلة مادية تقوم بها مبادلة الأفكار بالمعانى بين أفراد الانسان عموما وخصوصا -- فاذا أهملت اللغة سادت الفوضى والاخلال بالنظام وعم الفساد بين كافة الأنام -- فالويل ثم الويل لأمة أضاعت لغتها والثبور ثم الثبور لأمة أضاعت منعتها وعزتها والشقاء ثم الشقاء من اضمحلالها وتقهقرها وانحطاطها وتأخرها وتصير فى عذاب أليم وتستمر طول الأبد فى شقاء جسيم — هذه أمة اليهود مشتتة فى كل واد ومرتقى للاسترقاق والاستعباد وهدفا لسهام التعصب والاضطهاد وما ذلك الا لفقدها لغتها العبرانية ففقدت الشعور والاحساسات الانسانية وأصبحت أمة فوضى لا تألفهم سماء ولا أرض .. وهكذا اذا أنعم الانسان نظره فى كثير من الأمم الذين نبذوا لغتهم ظهريا يجدهم فى اضمحلال

***

١٥٩

(من عفا عمن يستحق العقوبة كان كمن حرم من يستحق المثوبة)

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما　　　فليقس يوما بالذى لا يرحم

من تأمل فى تاريخ العالم رأى أن أعمال بنى آدم أقرب الى الشر من الخير وان كان الخالق سبحانه وتعالى أودع فيهم بصيرة ترشدهم الى الخير وتنهاهم عن الشر الا أن الشهوات والأغراض تستدعى مخالفة أمر البصيرة — وجهلهم بالحقائق هو منشأ آخر للمصائب والخطايا والذنوب — وهذه الذنوب على أنواع شتى وضروب مختلفة فمنها ما يحسن الصفح عنها والعفو عن عقاب من وقع فيها

من ذا الذى ما ساء قط　　　ومن له الحسنى فقط

وذلك لأن لكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة

وأغفر عوراء الكريم ادخاره　　　وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

ومنها ما لا يحسن اهمال الضرب على أيدى مرتكبيها بل ينبغى زجر مقترفيها — ومنها ما يجب عقاب آتيها والا انتشر الفساد فى جميع البلاد وازهاق أرواح العباد

لعمرك ماتلك الحياة رخيصة فصنها فما بعد الحيـاة حياة

وقال تعالى (ولـكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) اذ المراد أن الانسان اذا عـلم أنه متى قتل قتل امتنع عن القتل ويلزمه حياته وحياة غيره

قتلنا لأجل النفس نفساً بفعلها وقد قادنا للقتل اذ ذاك قرآن
عدمنا اذاً نفسين حفظاً لأنفس وهذا لعمر الحق عدل واحسان

وبالجملة فلا بد من عقاب من يستحق العقوبة حفظاً لـكرامة الهيئة الاجتماعية كما أنه لا بد من اثابة من أحسن صنعا مكافأة له وتنشيطا على عمـل ما هو أنفع منه فيرغب غيره لمباراته ومنافسته فتتم المنافع بخلاف التهاون فى المـكافأة فينشأ عنه فتور الهمم والتقاعس عن الأعمال المفيدة فيجلب الـكسل والفساد لا يقـل عنه الفساد الناشئ عن اهمـال من انغمست يده فى الجرائم حتى طغى وبغى وانتهك المحارم

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى
اذا أنت أكرمت الـكريم ملـكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

فحقيق وجدير بالحكام الضرب على أيدى هؤلاء الأشرار اللئام

لا تلطفنّ بذى لؤم فتطغيه واغلظ له يأت مطواعا ومعوانا
إن الحديد تلين النار قسوته ولو صببت عليه البحر مالانا

١٦٠

﴿ فوائد التصوير الشمسى ﴾

أن هذه الصناعة من ألزم الأمور لتقدم العلوم والفنون ولاتقان فن الحرب ولتشخيص بعض الأمراض ومعرفة شكل النجوم وحجم الميكروبات ولأمور أخرى كثيرة ملازمة للتمدين مرافقة لأشكال العمران — من ذلك أن تصوير الأفلاك والنجوم والشمس والقمر (بالفوتوغراف) صار اليوم أكبر آيات التقدم فى معرفة الأجرام السماوية وشكلها واستنتاج النتائج عما فيها من الجبال والأنهار وغير ذلك مما يمكن معرفته بتكبير الصور — ومن فوائده تصوير المجرمين ونشر صورهم بين الناس وبين رجال الضبط حتى يتعسر عليهم الهرب والفرار — وتصوير الخدمة وغيرهم والفضل فى ذلك لرجل فرنسى من مدينة شالون يدعي «نيبس» اكتشف بعد امتحانات عديدة بعض خواص الحجرة المظلمة وهى كناية عن خزانة أو صندوق صغير مغلق اغلاقا محكما لا ينفذ اليه

النور الا من نافذة صغيرة تدخل منها الأشعة الشمسية فتنعكس صور المرئيات الخارجة على لوح موضوع لهذه الغـاية عند أسفل الخزانة ثم أخذت فى التقدم شيئا فشيئا الى أن وصلت الى ما هى عليه فى عصرنا الحاضر

١٦١

﴿ أيهما أنفع للانسان العزلة أو الاجتماع ﴾

ان الناس مدنيون بالطبع أى لا بد لهـم من الاجتماع والمخالطة لأن الفرد الواحد لا يمكنه أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة الى الاجتماع والمبادلة فلا مرية فى أن بقاء الانسان لم يكن الا بالاجتماع الانسانى والا فما الفرق بينه وبين الوحوش الضارية

والناس للناس من بدو وحاضرة * بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

فطرة الله التى فطر الانسان عليها أليفا أنيسا ميالا للمحادثة والمحاضرة مضطراً للانضمام الى اخوانه لتبادل المساعدة والمنفعة وقد قيل المرء قليل بنفسه كثير باخوانه — فلا بد للناس من الاجتماع الأدبى الذى عليه مدار الحياة والصفاء والسعد والهناء فيعود عليهم وعلى بلادهم بالتقدم والارتقاء بخلاف العزلة فانها

وأين الحق زلة بل هى مكسبة للهم والعلة وأفكار صاحبها مختلة ولو كان فيها نفع للانسانية لترك المولى آدم وحيداً فى الجنة — وقد قيل الشيطان مع الواحد وهو عن الاثنين أبعد ويد الله مع الجماعة — ويقال اياكم والعزلة فان فى لقاء الناس معتبراً نافعا ومتعظا واسعا ومجالسة أفاضل الرجال تجلو البصر وتطرد الفكر

اذا لزم الناس البيوت رأيتهم عماة عن الأخبار خرق المكاسب

فحينئذ الاجتماع الأدبى أفضل من الوحدة والعزلة وأما اذا كان الاجتماع لأكل لحم الناس وسب عرض الأحرار وانتهاك المحرمات ولثم الراحات بالراحات وارتكاب المنهيات والمعصيات فلا ريب فى أن العزلة أفيد والانفراد أولى وأسلم

وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من جلوس المرء وحده

فالعزلة والانفراد خير من مجالسة السوء لأن المعاشرة الرديئة تفسد الأخلاق الحميدة

لقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهزيان من قيل وقال
فاقلل من لقاء الناس الا لأخذ العلم أو اصلاح حال

وبالجملة فقد ذكر حجة الاسلام الامام الغزالى للعزلة فوائد وثمرات وحصرها فى ست مسائل

الأولى أن العزلة أدعى الى استجماع القوى فى طلب العلم والفكر واستنتاج النتائج والحقائق المجهولة من الأمور المعلومة ولذلك قيل لبعض الحكماء ما الذى أرادوا من الخلوة واختيار العزلة فقال يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم فى قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة وقال بعض الحكماء انما يستوحش الانسان من نفسه لخلوّ ذاته من الفضيلة فيكثر حينئذ من ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالسكون معهم فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة

الثانية التخلص بالعزلة من المعاصى التى يتعرض الانسان لها غالبا بالمخالطة ويسلم منها فى الخلوة وهى الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخطيئة

الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس من الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد

عن نقصان وفتن وخصومات — فالعزلة عنهم سلامة منها

الرابعة الخلاص من شر الناس فانهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعييه الوفاء بها وتارة بالنميمة والكذب فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر

الخامسة أن يقلّ طمع الناس فيك ويقلّ طمعك فيهم

السادسة الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمق فان رؤية الثقيل هى العمى الأصغر — قيل للأعمش مم عمشت عيناك فقال من النظر الى الثقلاء

وقال ابن سيرين سمعت رجلا يقول نظرت الى ثقيل مرة فغشى عليّ — وقال جالينوس لكل شيء حمى وحمى الروح النظر الى الثقلاء — وقال الشافعي ماجالست ثقيلا الا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل عليّ من الجانب الآخر

هـذا ملخص ما ذكره فى فوائد العزلة — ثم ذكر ثمرات المخالطة وهى سبع التعليم والتعلم . النفع والانتفاع . التأدب والتأديب . الاستئناس والايناس . نيل الثواب وانالته . تعلم

التواضع بالمخالطة — لأن العزلة قد تكون عن كبر ثم التجارب وهى الخصلة السابعة فربما كان القلب مشحونا بنقائص ومعايب لا تظهر للانسان الا بالمخالطة — هذه فوائد العزلة وفوائد المخالطة — والحكم العدل فى ذلك قياس المنافع بالمضار ثم قال بعد كلام ما نصه « اذا عرضت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها بالتفضيل مطلقا نفياً واثباتا خطأ بل ينبغى أن ينظر الى الشخص وحاله والى الخليط وحاله والى الباعث على مخالطته والى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل » وكلام الشافعى رحمه الله فصل الخطاب اذ قال « يا يونس الانقباض عن الناس مكسبة العداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة ويختلف ذلك بالأحوال

وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل

١٦٢

لو أننى خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق

أن ينبوع السعادة ومصدر السؤدد والسيادة وأنفس

الأعراق حسن الأخلاق فبه يشرف الانسان ويتميز عن سائر أفراد الحيوان في كل زمان ومكان وما زال صاحبه يستميل بحسن شيمته النفوس ويجذب بمكارم أخلاقه الأفئدة والقلوب وينال من عدوّه قبل صاحبه كل مرغوب ومطلوب

أحب مكارم الأخلاق جهدى　　وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما　　وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه　　ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة — قال عليه الصلاة والسلام (أحبكم الىّ أحسنكم أخلاقا)

لا تقعدن عن اكتساب فضيلة　　أبداً وان أدّت الى الاعدام

وفى الانجيل (سعة الأخلاق كنوز الأرزاق) وقال بعضهم الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى أمن وسلامة والسيء الخلق من نفسه فى تعب والناس منه فى عناء وجهد وبلاء

اذا لم تتسع أخلاق قوم　　تضيق بهم فسيحات البلاد

قال سقراط حسن الخلق يمنع من ارتكاب القبائح فانه لا يشا كلها — ومن كلامه أيضا حسن الأخلاق يورث المحبة ويؤكد المودة ويقود الى الفعل الحسن - وقال أرسطاطاليس

حسن الخلق حلية النفوس كما أن حسن الخلقة حلية الجسد

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم   اذا كانت الأخلاق غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى   فما كل مصقول الحديد يمانى

وبالجملة حسن الخلق أعظم حلية يتحلى بها الانسان ويعيش عيشا رغدا بين مواطنيه لان (من ساء خلقه ضاق رزقه) وفى الحقيقة والواقع أن أخس صفة فى الشخص الخلق الدنىء واللسان البذىء — ولا يخفى أن من واجبات الدين حسن الخلق والسخاء فالحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى سلامة وتراه قد كثرت مصافوه وقلت معادوه وتسهل عليه الأمور الصعاب وتلين له القلوب الغضاب وأما السيء الخلق فتراه يا للعجب ويالضيعة الأدب قد جهل قدر نفسه ولم يفرق بين يومه وأمسه وهو من نفسه فى عناء ويعيش العمر فى شقاء وترى الناس منه فى بلاء

ومن أراد أن يجعل ذكره مدوّنا فى صحيفة حسن الأخلاق فعليه أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة لا يستفزه تقلب الأحوال وجريان الأقدار ولا يغره غناه فيسوقه الى ارتكاب الاثم

واذا كان متوليـاً أمراً فلا يجزع ولا يستبدل حسن الخلق
والصبر بالهلع والبذاء لأى سبب عرض أولأى أمر طرأ

١٦٣

﴿ وصف حريق هائل ﴾

بينما كانت السماء روضة مزهرة بالكواكب والنجوم المسفرة أروّض فى رياضها جواد فكرى وأسرح فى درر الدوارى نظرى بكل فرح وانشراح وسرور وارتيـاح اذ سمعت ولولة وبكاء وصراخا وغوغاء فنظرت نظرة فى النجوم ويا لها من نظرة أوجبت الحسرة والهموم من دخان قد ملأ الجوّ والفضاء وحجب كواكب القبة الزرقاء فتغيرت الافراح بالأتراح وتبدل كأس الهناء بالشقاء وذهب الصـفاء ضحية العناء ورأيت الناس فوق الديار يقولون النار النار فأسرعت الى الخروج من المنزل لأستكشف هذه الأخبار فوجدت لكل انسان شأنا يعنيه يوم يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه وزوجته وبنيه وأصحابه وأهليه والنـاس فى هرج ومرج ولا دخول ولا خروج وفى شدة وضجة ورعدة ورجة سكارى وما هم بسكارى بل من شدة النيران حيارى ولما وصلت محل

الحريق رأيته منظراً يفتت الاكباد ويقطع شامخ الأطواد رأيت الدور الشاهقة قد أمست قبوراً والمنازل العامرة قد باتت قفورا ومع ذلك كله فالنار زادت وتأججت كأن الجحيم قد سعرت وامتدت ألسنتها وطالت وتطال لهبها وصالت فاشتد بين جميع الناس الخطب واستغاثوا بجنود المطافئ فحضروا وضربوا عليها الحصار وصاروا يخلصون المنكوبين من مخالب النار ثم أتوا بالمضخات وشنوا الاغارة عليها بالطلمبات ورموها بالخراطيم والميازيب وقذفوا عليها المياه من فوهات الانابيب وما تزيد الا عتوّا وفسادا وتلتهم الانسان والحيوان قسوة وعنادا فاستمرت الحرب بينهما مدة من الزمان وهى تكافحهم بأقوى جنان وأحدّ سنان حتى فرّقت أيدى سبا كل من حضر وبدّدت الأموال والامتعة شذر مذر فعزّزت الحكومة الجنود بأورطة من جيش كأنهم أسود فشنوا عليها الغارة بكل شجاعة وجسارة وقاوموها مقاومة الأبطال وأخمدوا لهيبها فى الحال

***

١٦٤

﴿ وصف يوم شم النسيم ﴾

شم النسيم عيد قديم تخرج فيه الناس وحداناوزرافات وقد سالت بهم الطرقات واكتظت أحشاء الفلوات ونزحوا الى الحدائق والمتنزهات وغادروا المعاقل الى حيث الربى والخمائل كأنهم مطر درّته الغمائم أوجراد زفته الرياح السمائم أومجتمعوا أسواق لا بروج فيها الاالفسوق تجتمع فيه الغوانى والرفاق والساق على الساق والفم قريب من الفم يتلاقون الى جانب اليمّ يتبادلون التحيات بالحواجب ويشفقون على القلوب فيضعون الأيدى فوق الترائب يختلسون النظرات وتحتها سهام صائبات والغوانى بين تلك الشعاب يتهادين تهادى الحباب ويتراسلن بالعيون ويتحدثن والحديث شجون وتفنن القوم فى اللباس تفننهم فى الأرجاس فمن عمامة بيضاء فوق هامة سوداء

ما كل من لبس العمامة سيد ما كل من لبس القباء أمير
ما كل ذى لب يدير مصالحا حتى يهذب بيته ويدير
ما كل ذى حسب شريف انما شرف الرجال يسوقه التدبير

ما كل أفراد البرايا واحـد ولـكل فرد فى الحياة نظير

ومن طربوش أحمر على شعر أصفر ومن حلة خضراء على قامة سمراء واشرأبت البرانيط على قوم شماميط ثم دارت رحا الأفراح بين العقول والراح وتحكمت الكؤوس فى الرءوس ودبت الصهباء فى الأعضاء ويلثمون الراح بالراح ويأكلون ويشربون ويضحكون ويلعبون بين نغمة بالحديث الرخيم ونشوة المدام النديم ونغمات الأوتار تدعو الى اغتنام الأوطار تهدى الارتياح الى الأرواح وتبدل الأفراح من الأتراح

١٦٥

﴿ لا ينجح الأمل الا بالعمل ﴾

ان الطبيعة البشرية قد أودعت فى نفس كل امرئ أملا فطرته عليه فهو مجبول علي حب الرفعة والعلاء يحدث نفسه دوماً بالارتقاء الى أسمى المناصب وأعلى المراتب ومدفوع لاقتحام الأهوال والأخذ بناصية الأعمال حبا فى الوصول الى المرغوب والحصول على المطلوب وهـذه الرغائب تختلف باختلاف الهيئات والمنازع التى يتطبع الانسان عليها ويترعرع

فى مهد الميل اليها فقد تكون «مالا» يفرغ كنانة الجهد فى تحصيله أو «علما» يحث مطايا الجدّ فى احرازه أو «سؤدداً» يشحذ غرار الكدّ فى نيله — وقد تكون تلك الرغائب بعيدة عنه حين شروعه فى معاطاة أسباب تحصيلها فما الذى يقصر مسافاتها المترامية ويسهل صوب مسالكها المتنائية ويطوى بينها وبينه مشقة البين ويجعلها منه معقد الازار وأقرب من الحاجب للعين بل أدنى من قاب قوسين ويصير حصولها متحققا كمضى أمس أو كطلوع الشمس هو الأمل تلك العاطفة التى أثارها الحق جل جلاله نفس الانسان وجعلها له فى وادى الاتعاب خير عزاء وأعظم سلوان — فالأمل مدعاة الاقدام ومجلب البأس ومزيل القنوط ومبدد اليأس والحافظ بناء الأعمال من السقوط ومساعى الرجال من الحبوط والقاشع من الأفكار ظلمات القنوط — فبه تنتعش القلوب وتحيا النفوس فى حالتى الغم والبؤس ويشد العزائم ويقوّى الهمم

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ولكن هل ينال الغنى بالمنى أو يجنى الثمر من غير زرع الشجر وهل تأتى الأرض بالأثمار بدون حرث أو بذار أو تنسج

الثياب بدون يد أو دولاب حاشا فلا ينجح الأمل الا بالعمل والا كيف يتأتى للمؤمل من الدهر الارتقاء الى المناصب العلياء أن ينال آماله بفتوره واهماله — تالله او ظل طول الدهر على هذا الحال لما أدرك شيئاً من الآمال

فعلى الانسان أن يقرن الأمل بالعمل بحيث لا يألو جهدا فى ذلك واصلا ليله بنهاره غير مكترث بالمشقات والاتعاب ولا مبال بما يقتحمه من الصعوبات والأهوال فان من كان ديدنه العمل وشيمته الصبر لابد أن يدرك مناه ويحظى بما يتمناه

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر

١٦٦

﴿ هل الأفيد للمملكة الرجال أو المال ﴾

لا ريب فى أن كل أمة حياتها موقوفة على الاعمال النافعة التى تؤدى بها الحقوق الوطنية ولا يكون ذلك الا اذا صدرت الاعمال من رجالها الحقيقيين الذين تبعثهم الطبيعة الى القيام بها — فالامة لا نجاح لها فى الحال الا اذا كان الماضى قد أعد لها رجالا يديرون أعمالها فان لم تكن كذلك اضطرت الى استعمال رجال من غير بنيها وهم وان قاموا بالواجب عليهم نحو

وظائفهم فلا يقومون بالواجب عليهم نحو الوطن والأمة
وعلى هذا يكون الغرض من الاعمال فاقدا صفة الكمال
ومسئولية هذا النقص عائدة على الماضى ورجاله يعاتبهم عليه
التاريخ وليس فى الامكان تدارك هذا النقص حالا بخلافه
استقبالا فانه يمكن أن يتدارك بتهيئة الرجال الاكفاء من
الآن والمسئولية فى ذلك عائدة على الحاضر وبنيه فلا يكتفى
فى مؤاخذتهم بالتاريخ لأن المسئول حى قائم تطالبه الأمة
والوطن والتاريخ فلا يخلصون من هذه التبعة الا بالاهتمام
بالاعمال الحالية وتنظيم ادارتها فى الدوائر على اختلاف فروعها
مع اقامة قسطاس العدل ومحو آفة الجور ومراعاة الاعمال
وتطهيرها بالتربية لينزع من القلوب الحقد والتحاسد والتباغض
فيموت من الامة الانشقاق والاختلاف وتعقد الضمائر على
الولاء والمحبة ليطرد من بينها العدوّ الباطن الذى هو أشدّ
فتكا بالجامعة من العدوّ الظاهر لان ذاك العدوّ يتخذ المهاراة
والمداراة والنفاق حبائل لغاياته فيخدع بظواهره البسطاء بخلاف
الثانى فهو مجاهر ظاهر يسهل الاحتراس منه فان تم لها ذلك
وجد الاتحاد الذى هو روح حياة الاعضاء وداعية التعاضد

والتكاتف الواجبين لغاية الاصلاح وهذه كلها معدات لتهيئة الرجال القادرين على استلام زمام الاعمال فى المستقبل والساعى فى ذلك انما يعمل لحياة الأمة ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا — وانظر ما قدر هذا العمل المبرور وما جزاؤه عند الله وعند الناس والتاريخ

وعلى الضد من ذلك من يسعون فى تبديد هذه المعدات واضاعة تهيئة الرجال للمستقبل فانهم بذلك يحاربون الله ورسوله والأمة والوطن ويجنون أعظم الجرائم وشر الجنايات فما جزاء هؤلاء الا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم عذاب عظيم

ولقد أخطأ من يظن أن مجد الأمة وسلامة المملكة بالمال والحرية لأن المال لا ينهال من السماء والحرية لا تنبعث من الينابيع والجداول وكلاهما لا يأتى الا من طريق العزم والحزم ولا يغرس فى الأمة الا بأيدى كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متحليا بجلباب السعادة والرفاهية فى أعين الشعوب وهذ مما يوجب على افراد الأمة التمسك برجالها أصحاب

المبادئ الصحيحة الذين يحبون البلاد وسعادة أهلها ويسعون
فى جلب الخير اليهم وفتح أبواب الأعمال لهم لأن اخلاص
الأمة لكبار رجالها موجب لتقوية الرابطة الوطنية لما فيه من
فضيلة الشكر على محاسن الأعمال — ولقد قالت الحكماء ان
أعظم شيء تسود به الأمة محبة كبار رجالها والاخلاص لهم
اذا عملوا ما يجب عليهم

وسبب ذلك أن من يعمل الخير ليحمد يجب أن يحمد
ليوفى حقه وأما من يعمل الخير لأنه خير فيجب أن يضاعف
له الحمد — والأمة التي تعرف قدر الأفراد وتعرف لهم ما يعملون
تختط بذلك طريقا الى تكثير رجالها وتقوية روح الارتباط
فيهم وتستجلب بذلك مرضاة أعاظمهم وبذلك تتحد ارادة
جميع الأفراد فيعمل الواحد صورة يتمم بها عمل الآخر وهذا
هو الغاية التي تتمناها لنفسها مع رعايا الحكومات المنتظمة.

ولا يخفى أن توحد الارادة من أهم الأمور لنجاز
الأعمال العظيمة الشريفة التي يصعب على أكبر الأمم القيام
بها وهذا لا يحتاج الى بيان فان العاقل يعرف أن عشرين رجلا
تختلف ارادتهم فى نقل حجر صغير لا يتسنى لهم نقله مهما

أضاعوا من الزمان - بخلاف ما لو اتحدت ارادة سبعة منهم مثلا على نقله الى محل معين فانهم ينقلونه ولو استعمل كل واحد منهم واسطة لأن الغاية واحدة والارادة متحدة وهذا من أعظم المبادئ التي يجب على الأمة الالتفات اليها وتعويد الأنفس عليها فاذا اتحدت ارادتهم مع ارادة كبار رجالهم اتجهت بهم تلك القوة العظيمة الى الاعمال النافعة وسعدوا بأنفسهم وفازوا فوزاً عظيما

ولاجل أن يتعلم الانسان هذا المبدأ يجب عليه أن يحرص على جميع أعمال كبار الامة الذين أخذوا على أنفسهم القيام بعظائم الاعمال وسعوا جهدهم الى نفع بلادهم وبنيها فيجعله درسه حتى يتبين منها اتجاه قوى ارادتهم الصالحة وحينئذ لا يألو جهده عن السير على مقتضى تلك الخطة التي تشيد لوطنه الفخر والمجد وتمنحه السعادة والخير

١٦٧

﴿ هل الانفع لمن عنده مال أن يصرفه فى تعليم أولاده أو يبقيه ميراثا لهم بعد مماته ﴾

المال مادة الحياة وقوام ضروريات الانسان وحاجياته

وكمالياته من المطاعم والملابس والزينة فلولاه ما بقى للحياة عين. ولا أثر — وكما أن عليه مبنى وجود الجسم كذلك به يحصل حياة الروح وكمالات النفس ولذة العقل وهو الواسطة لتحصيل لوازم تعليم الفنون والعلوم النافعة ومتى تعارض على المال خطة صرفه فى سبيل التعليم فى الحال أو بقائه للمآل وجب صرفه فى الوجهة الاولى اذ العلم غذا العقل وهو أشرف من الجسم ولنعم العوض — على أن ما فات من ادخار المال يناله أضعافا مضاعفة بواسطة العلم -- وناهيك بمنافع دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ولذة عالية وآثار باقية ورفعة قدر ونباهة شأن وشرف منزلة -- وهل يقاس ما يتناهى وهو المال بما لا يتناهى وهو العلم وما شرف الماديات فى جانب المعقولات وهل يذكر الدينار فى جانب الافكار أو يقاس الصامت بالناطق والميت بالحى بل مثل ما ينفق فى سبيل التعليم كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم — على أن العلم يجرى من المال مجرى الروح من البدن والحاكم من المحكوم والحارس من المحروس بل الفارس من المفروس وهل خلد التاريخ فى صفحاته الا أهل العلم

وأرباب الجدّ فى الأدب وأنصار البحث فى الحقائق فمنهم السياسيون والملوك العادلون وبهم استقامت البلادوانتظمت الدول واستتب العدل ومنهم العلماء والحكماء والمخترعون والمكتشفون هدى للناس ونوراً وهل رأيت لأحدمنهم فيه ذكراً أو سمعت له قط فيه شكرا

ففز بعلم تعش حيا به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

وبالجملة فنحن بالطبيعة نشعر بالسرور التام حينما يرى الواحد منا أن له ولدا يؤمل فيه النجاح ويرى عليه دليل الفلاح فينفق ما استطاع أن ينفق وذلك لأن النفوس من طبعها تميل الى العلا — ولو كان كما يقول بعض الناس أن أميال الانسان الى الشر أكثر منها الى الخير ما كنا نشعر بهذا الشعور وما كان لدينا هذا الاحساس ولكانت الأزمنة الهمجية باقية الى الآن

علم الله أن المال الكثير الوافر ليس بشيء بجانب نجاح الأولاد وتهذيبهم بدليل أنه يهون على الرجل أن يكون صفر اليدين بجانب نيل هذا المبتغى كما نجد أن صاحب المال الذى لا أولاد له منكود الحظ منغص العيش

وأكثر من هذا حزنا الذى له أولاد لا بركة فيهم ولا نجاح لهم فيحسب لانحطاطه ألف حساب ويتمنى لو مات هؤلاء الأولاد حتى يستريح فؤاده ويحفظ شرفه — والحقيقة أن لا عار أعظم من فساد الأولاد

اذاً الرجل الذى يبتغى أن يعيش سعيداً فى أولاه وأخراه يجب أن يبذل كل نفيس فى تهذيب أولاده حتى يموت آمنا على بيته من الخراب وعلى عرضه من أن يثلم وسيرته من أن تقبح ، هذا من جهة — ومن أخرى يضمن بقاء العز لأولاده وجميل الذكر لنفسه اذ الناس يثنون عليه ويطلبون له الرحمات كلما نالهم خير من أولاده كما أن المال الذى أنفقه عليهم يأتى أضعاف أضعافه — وكلما طالت حياتهم كلما زادت ثروتهم — ولو كان كل رجل يعتنى بتربية أولاده لكانت الأمة كلها راقية حية اذ كل واحد يعرف حقوقه ويمكنه أن يدافع عن نفسه وعن أمته فانّ الأمة ان هى الا أفراد فان كانوا أحياء كانت حية وان كانوا أمواتا كانت كذلك

نعم الاله على العباد كثيرة   وأجلهن نجابة الأولاد

***

١٦٨

﴿ الكفاف مع العمل أهنأ أم الثروة مع البطالة ﴾

خلقنا لنعمل لطلب الخير ونتحرك للحصول على الرزق لأن الله أوجدنا لحكمة وهى أن نعمل فنعبده ونعظمه شكرا له على نعة الوجود وعلى بقية النعم الجليلة التى تفضل بها علينا حتى يكون هذا العمل سبب سعادتنا فى الدنيا والآخرة وأمرنا أن نسعى فى طلب الرزق بقوله عز شانه (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) بأن نشتغل فندرس العلوم ونفلح الأرض وندبر التجارة ونحسن الصناعة لتكون هذه الأعمال سبب سعادتنا وراحتنا فى هذه الدنيا ونكون قد أدينا الثمرة المطلوبة منا والغاية المفروضة علينا وهى العمل والشغل — تأمل تجد أن الله خلق الأشياء وجعل فيها ثمرة تؤديها فثمرة النباتات حبوبها وأزهارها وثمرة الأشجار فواكهها وثمارها وظلالها وأخشابها وثمرة الحيوانات ألبانها وأصوافها وأشعارها وأوبارها ولحومها ونتاجها وركوبها وجر الأثقال وثمرة الطيور بيضها وريشها ولحومها — وليس للانسان ثمرة من تلك الثمار وانما ثمرته شغله وعمله فاذا لم يعمل ويشتغل كان أحقر الحيوانات

وأصغر النباتات وأخس الطيور خيراً منه — انظر الى النحلة التي هى من أصغر الحيوانات تعلم ان الله أمرها أن تشتغل وتتخذ لها البيوت من الجبال والأشجار وتأكل من كل الثمار لتؤدى المنفعة المطلوبة منها وهى العسل — فهل يليق بالانسان سلطان المخلوقات أن يكون أقل شأناً منها

وبالجملة خلق الله الانسان ليعمل ويسعى وناط بعمله قوام الوجود وأساس النظام وجعل أكثر الامم غلبة فى الارض أحسنهم عملا وأدومهم سعيا فى مرافق الحياة فالعمل روح الحياة ومصدر الغنى ومنشأ العمران — فالذى يعمل ويجد طالبا عظائم الامور وأسمى المراتب واضعاً نصب عينيه السماك أو الهلاك العلاء أو الفناء النصر أو القبر فلا بدّ أن ينال ما يطلبه ويبلغ ما يؤمله ويجد الراحة مع الهناء ويعيش محترما محاطا بكل أنواع العز والصفاء — وما المثرى الذى لا يعمل شيئاً الا عضو فاسد فى المجتمع الانسانى يجب بتره قبل تفاقم الداء فيعسر الدواء

وما للمرء خير فى حياة ... اذا ما عدّ من سقط المتاع

***

١٦٩

﴿ الاحساس والشعور ﴾

الاحساس اما ظاهرى وهو شعور النفس بالآثار الظاهرية عند وصولها من الجسم اليها — واما باطنى وهو شعور النفس بآثارها الباطنية

والشعور الباطنى هو أثر ينشأ عن هبوط أو صعود التصورات الحاصلة والمشعور بها فى النفس

وبعبارة أخرى الاحساس أثر تبادل وتوارد التصورات صعوداً وهبوطا فالاثر الحاصل عن الصعود يسمى احساسا ارتياحيا وعن الهبوط يسمى احساسا غير ارتياحى مثال ذلك لو أعملنا الفكر فى تذكر اسم شخص فاما أن تصعد فنتذكرها وحينئذ نجد من أنفسنا أثرا يرتاح اليه واما أن تهبط فلا نتذكرها وحينئذ تشعر النفس بأثر لا تطمئن اليه

وبحكمة ارتباط الاحساسات النفسية بالتصورات يلزم من أراد أن يحدث احساسات ارتياحية أو غيرها أن يولد لها تصورات

والاحساسات صورية ومادية — فالاحساسات الصورية تنشأ عن الارتباط بين تصورين أو أكثر من جهة الصورة

وذلك كالانتظار والرجاء والتكدر والفزع والدهشة والشك والملل والانس

والاحساسات المادية هى الشعور بكيفية التصورات ومادتها — وتتنوّع الى احساس بالحقيقة واحساس بالحسن واحساس بالآداب واحساس بالدين

فالاحساس بالحقيقة البحث عن نتائج الأعمال من جهة مادتها — والاحساس بها ارتياحى اذا حصل عليها وغير ارتياحى اذا حصل الخطأ فى اصابتها أو كانت غير واضحة

والاحساس بالحسن أو القبح هو الاحساس بالاستحسان المطلق أو الاستقباح المطلق اللذين هما بمعزل عن الغرض الذاتى وموضوعهما الاشياء الطبيعية والصناعية من حيث مادتها وصورتها وما نستحسنه مطلقا نسميه حسنا وما نستقبحه مطلقا نسميه قبيحا

والاشياء المحسوسة خاصيتها لا مادتها أو صورتها فان كان الاحساس بها ارتياحيا سميت مقبولة أو لطيفة وان كان غير ارتياحى سميت غير مقبولة أو غير لطيفة

والاحساس بالآداب الشعور بالخير أو الشر — فجلّ

أمانىّ الانسان أن الحسن والخير يلزم أن يحصلا وأن القبيح والشر ينبغى ألا يكونا ويحصل ذلك بواسطة التربية والتعليم والمعاشرة وترقب الانسان لاعمال نفسه وغيره — والغرض بالاحساس بالآداب أن تجتمع أفراد الانسان على ارادة واحدة

والاحساس بالدين شعور الانسان بذات موجودة أزلية أبدية قائمة بنفسها — كيف لا والدين هو الناموس الباطنى المرشد الهادى الى خطة الفلاح فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فحاجة البشر الى الدين كحاجة الجسم الى الغذاء فكما أن الغذاء حياة الجسم وقوامه فكذلك الدين حياة للنفس لا تطيب الا به — وقد أثبت التاريخ ودلت الآثار على أن الدين مربى الانسان ومرشد الامم الى طرق المدنية منذ تكونت جمعيات البشر حتى أننا لا نرى الآن أمة على وجه الأرض الا ولها دين معروف وشريعة خاصية بها ولو من وضع البشر كما هو حاصل عند بعض الشعوب الذى أهمل أمر دينه وفقد أصول الشرائع الآلهية ثم رأى ألا حياة الا بالدين ولا اجتماع الا على كلمته فاضطر الى الوضع بأى وجه كان

فسبحان الله ما أعظم مننه وأعدل عمله افترقت الشعوب

فجمعها وتغالبت الأنفس فهذبها وتباينت المقاصد فوحدها وأفترقت القلوب فألف بينها فانضمت الأقوام الى ما شرع من شرائع ارتبطت بها مصالح الأمم واتحدت كلمة الشعوب فذللوا المصاعب ومدوا اظلال العمران وشيدوا الممالك فوضحت لهم طرق السعادة فسلكوها وتوصلوا الى نعيم الحياة فتمتعوا به — ولذا قال بعض الفلاسفة فى تعريف الانسان أنه حيوان دينى ولم يكتف بالنطق لأن التدين يستلزم النطق الصحيح ومن لا دين له قريب من البهائم (ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) — وقصارى القول أن النفوس لا بد لها من مقوّم والعقول لا تكفى فى أن تسير أصحابها على النمط الذى يرضى الخالق جل وعلا لأن من صفاتها الشر الغالب الخير ان لم يكن هناك عون له عليه ولا عون أقوى مما كان من عند الله تعالى

فبهذه الجامعة العظمى والرابطة المثلى تألفت قلوب الأمم المتنافرة وتضافرت قوى الشعوب المتفرقة فاندفع الاسلام فى أطراف البسيط الأرضى يدوّخ أهله الممالك وينشرون الدين واللغة والمدنية ويبسطون نور العلم والتربية والتهذيب — كل ذلك فعلوه فى أقل من قرن بواسطة جامعة الدين ورابطة

١٧٠

﴿ يد الله مع الجماعة ﴾

قد اقتضت الحكمة الآلهية أن يكون للانسان السلطان والتصرف فى الأرض لا لأن يكون ظالما جبارا بل عادلا يستعمل الكائنات فيما خلقت لأجله بالقدر الذى يقتضيه العدل وناموس الحكمة — وحيث أن الانسان نوع ذو أفراد تحتاج بالفطرة الى نموّ المادة وأنه ليس فى طاقة الواحد الحصول على ما تنمو به مادته من الحاجيات اندفع بالطبع الى طلب المساعدة والائتلاف بأبناء جنسه

والناس للناس من بدو وحاضرة * بعض لبعض وان لم يشعر واخدم

والمرء قليل بنفسه كثير باخوانه

وما المرء الا باخوانه   كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير فى الكف مقطوعة   ولا خير فى الساعد الأجزم

فالأمة التى يتحد أفرادها ويكون شعارهم «الواحد للجماعة والجماعة للفرد والفرد يفدى الأمة والأمة تحمى الفرد» تسلك سبيل السعادة والهناء

كونوا جميعاً يا بنىّ اذا اعترى   خطب ولا تتفرّقوا آحادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسراً   واذا افترقن تكسرت أفرادا

فاذا كان اجتماع أفراد العائلة قلبا وقالبا داعية القوّة والمنعة وعزة الجاه والجانب والظهور على المغالب والظفر بالعدوّ والمحارب فهو لا شك فى الأمم روح جثمانها ودعامة حياتها وسلم ارتقائها وسيف احتفاظها بنفسها وغرار فتوحها — بل تاج عظمتها وصولجان سلطانها — وما الوطن الا عائلة كبيرة أعضاؤها عائلاتنا الصغيرة اذا حلّ بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعا واذا نزل بهم بلاء اقتسموه — فالوطن له حقوق على أبنائه له حق فى اخلاص كلى فى أمانة تامة فاذا هدّد له أن يطالبنا ببذل دمائنا وأموالنا فنترك عائلتنا ظهريا ونخرج لحمايته ودفع ما يحوطه من المكاره

فسحقا لمن دخل العدوّ بلاده عنوة واقتداراً ولم يدفعه عنها الى آخر نسمة من حياته مجاهداً فى استخلاصها من قبضة يده

والأمة الشجاعة والقلوب الكريمة تصبر على القلة والجوع أكثر من صبرها على الهوان والخضوع — ان مثل من باع

بلاده وخان وطنه مثل الذى يسرق من مال أبيه وأخيه ويطعم اللصوص فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه

وبالجملة فالاتحاد دعامة السعادة وينبوع العزة والسيادة وهو اليد العليا فى الحياة الدنيا وبدونه تحل بالأمة الطامة الكبرى وتكون مغلولة يدها الى عنقها ولا خير فى يمنى بغير يسار — ولذا يحكى أنه كان لرجل سبعة أولاد وحقل يزرعون فيه بجد ونشاط وكد واجتهاد ولما حانت ساعة وفاته جمعهم حوله وقال لهم فليأت كل واحد بعصا ففعلوا فقال اربطوا الجميع حزمة واحدة فربطوا فقال للاكبر استجمع كل قوتك واكسر هذه الحزمة ففعل فلم يفلح وقال للثانى كذلك حتى الاصغر فلم ينجح فقال لهم الأب فليأخذ كل عصاه ويكسرها ففعلوا وكان عليهم سهلا فقال لهم أبوهم ان مثلكم كمثل هذه الحزمة فان ارتبطتم مثلها وكنتم يدا واحدة وكانت قلوبكم على قلب رجل واحد تعسر على أعدائكم خذلانكم وفشلكم ودماركم واذا تفرقتم ضعفت قوتكم وتمكن منكم أعداؤكم واستولى عليكم البلاء والخسران فيا أولادى يد الله مع الجماعة فتعاونوا على البر والتقوى واستبقوا الخيرات لعلكم تفلحون.

١٧١

﴿ خطابة تتضمن نهضة الأمة وحياتها ماديا وأدبياً ﴾

رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى

سادتى — قال الله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقال عز وجل (ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها علي قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فهذا النص الصريح من الكتاب شاهد بأن تغيير أحوال الأقوام والأمم منشؤه تغيير ما فى نفوسهم — والعقل السليم والعلم الصحيح مؤيدان للكتاب الكريم فى ذلك

ولا يجهل أحد منا ما ناله أسلافنا من العزة والسؤدد وسعة الملك وقوة السلطان والتقدم فى المعارف والصنائع وما كانوا عليه من الكمالات والفضائل وما نحن عليه اليوم من عكس ذلك كله — فالنفوس المزينة بالمعارف الحقة المزكات بالسجايا الفاضلة يكون من آثارها الرقى فى معارج الكمالات الانسانية وبلوغ غايات ما أعده الله لبنى آدم من المدنية الصحيحة والنفوس المجردة من حلى الفضائل العارية من حلل المعارف

تهبط بذويها الى أسفل دركات الحيوانية وتجعلهم عالة على غيرهم فى كل شؤونهم بل تحرمهم من المزايا الانسانية وتسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب ويستعملهم كما تستعمل الآلات الصامتة أو الأنعام بل أضل سبيلا

أيها السادة — ان حالة الأمة فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة بل انها نتيجة لازمة لا تتغير الا اذا تغير ما بنفس تلك الأمة

فاذا كانت أمة نشيطة متربية متمدنة كان لها الحظ فى الدنيا وان كانت كسولة جاهلة ذات أخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها — والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهى لا تتغير أبداً الا بحال آخر (بمعنى ان ارادة شخص أو مائة شخص أو اصدار قانون أو مائة قانون كل ذلك لا يؤثر فيها بشىء محسوس)

أيها السادة — ان الحالة الاقتصادية فى مصر لهى من المحزنات المبكيات ان مصر بلدة فقيرة جدا نصف أهلها وهم الفلاحون يعيشون بالشىء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا — والنصف الآخر ينقسم الى قسمين الأول يشمل

التجار والصناع وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه انه مالى ملى — والآخر يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا فى معيشتهم ولكن أغلبهم ان حيل بينه وبين مرتب المعاش شهراً واحداً وقعوا فى العسرة والضنك الشديد — أما أرباب الاطيان من الذوات والعمد والمشائخ والاعيان فى البلاد فحالهم كحال « رابيل » المؤلف الفرنساوى المشهور اذ قال فى وصيته « انى لا أملك شيئا وعلى ديون كثيرة وأوصى ببقية ما أملك للفقراء »

والبلد التى يكون أهلها فقراء مثلنا لا يمكنها مادام فقرها أن تؤمل خيراً فى المستقبل لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها اذ بالمال يتم كل شىء وبغير المال لا يتم شىء مطلقا

والمملكة لا تكون غنية الا اذا كان أهلها أغنياء ولذلك قال أحد السواس المشهورين « أعطنى مالية حسنة أعطك سياسة حسنة » وعلى هذه القاعدة وجهت كل أمم أوربا التفاتها الى المسائل الاقتصادية وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذا السبيل والتنافس بينها فيه شديد بالغ حد الكفاح والجهاد ونحن معاشر المصريين لا شغل لنا تلقاء كل ذلك الا الاسراف

على ميدان هذا التنافس كأننا عالم من كوكب آخر حضرنا الى هذه الدنيا للتفرج على أهلها أياما معدودة ثم العودة الى أوطاننا بعد ذلك بسلام — والحقيقة أنا نحن موضوع تنازعهن وسبب مشاكلهن — نحن اللقمة الدسمة التي يريد كل منهم أن يبتلعها فى جوفه

وبمثل تلك المساعى توصلت الأمم بنتيجة عملهم الصالح الى اقتناء الثروة — فالواحد منهم تربى على أن يشتغل وتربى على أن يعتمد على نفسه (وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) فهو حى ثابت عامل جسمه يتحرك ومخه يؤدى وظيفته كأنه آلة متى غادر سرير نومه فى الصباح أدار دولابها فتدور وتستمر دائرة الى وقت لا مناص فيه عن الراحة بالنوم — وعلى العكس من ذلك الواحد منا نحن المصريين

أيها السادة الاستقلال فى المعيشة قبل كل استقلال فأول كل شيء يجب على كل فرد من أفراد أى أمة أن يكد فى طريقة تضمن له معيشته ان لم يكن بعمل يعود نفعه على الهيئة الاجتماعية فعلى الأقل لا يعود منه ضرر عليها لأن أمر

معيشة الانسان هو فى مقدمة كل احتياجاته ـ فعلى كل نفس تحترم ذاتها متى كانت قادرة على الكسب أن تكون مستقلة غير محتاجة للغير تكفل نفسها بعملها ولا يباح لها مطلقا أن تكون عالة على غيرها ـ فمن العبث أن يقوم شخص بجميع حاجات شخص آخر ومن العار على هذا أن يقبل مثل هذه المعيشة

أيها السادة ان المصريين أصبحوا فى خمود أشبه بالموت فهم الآن أعوز الى التذكير بالحياة منهم بالموت

فمن البديهى ان الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف لأنه لو كان هذا داعى الفطرة البشرية لما كان التنافس فى المزيد — فعلينا أن نسعى والحالة هذه لتحسين الحالة المادية والأدبية ـ وليس الغرض من تحسين الحال على هذه الطريقة أن يجمع الانسان المال حبا فى المال بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف الى العلاء ولا يكون له ذلك الا اذا سعى ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه وسكنه وان يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجته المادية فى ترقية عقله وتربيه أولاده وأن يأتى من الافعال النافعة للهيئة الاجتماعية ما يغبطه غيره على فعله ـ ويا للاسف المصرى لا يحب الشغل ولا ينشط

لعمل فيه رزقه وانما يحب أن تمطره السماء ذهبا وأن تنبته الارض فضة ويحب أن يكون أغنى الناس علي شرط ألا يتعب جسمه ولا يجهد فكره ـ والسبب فى سقوطه هذا أمران الأول سوء معاملة الحكومات السابقة له فانها بظلمها أضاعت الأمانة والثقة ففقد ملكة الاقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل والثانى سوء تربيته ـ وهذا هو السر فى أن جميع الأعمال القليلة التى شرعنا فيها كتأسيس مدرسة او انشاء جمعية او تشكيل ناد او عقد شركة لم تعش الا بقدر ما تعيش الوردة

ايها السادة اذا سلبت الأمه حريتها اسرع اليها غالباً الفناء فان الحرية فطرة طبيعية مغروزة فى كل حى ـ الحرية فطرة فطر الله عليها كل فرد فليس لواحد من بنى الانسان ان يسلب آخر حريته واذا كان الفرد حرا بالطبع فالأمة التى هى مجموع الأفراد حرة من باب اولى . وليس لهذا الفرد ولا لهذا المجموع ان يتنازل عن حريته لأن التنازل فرع عن الملكية والحرية غير مملوكة للحر فليس له أن يهبها للسلطان بل كل هبة من هذا القبيل باطلة بطلانا اصلياً فأيما امة وهبت حريتها لملكها وجعلت نفسها عبدة له فهبتها باطلة وحريتها باقية ثابتة

وعلى ذلك ليس للملك ان يدعى ان قومه عبيد له اذا وهبوه حريتهم فكيف يسوغ ان يدعى استرقاق قومه واعتبارهم عبيداً له بغير ارادتهم ـ فالحرية هبة من الله عز وجل ـ قال عمر بن الخطاب « تريدون أن تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »

أيها السادة ما أجمل الشقاء مع الحرية وما أقبح الحياة مع الذل فان لم تكن فى الحياة سعادة فليكن الفناء

أيها السادة انى أخاف ان يمسكم عذاب من رحمة الترف ونعيم السكرة والغنى فتستحلوا شرابها وتستمرئوا طعامها ثم لا تلبثون أن يأتيكم عذاب ذهاب المال وضياع التجارة بغتة وانتم لا تشعرون

أيها السادة انى ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا والسعير فى الآخرة أنفقوا المال لنشر العلوم والمعارف أنفقوه لتشييد الجامعات والكليات واعلموا أن الأمة لا تقوم الا على معرفة عظمائها السابقين وأبطالها المشهورين وكبارها الغابرين وما أحاط بها من علوم وعمران وسياسات ونظامات ومخترعات المخترعين ومبتدعات المجدين ومكتشفات

الدول والممالك

أيها السادة لمعرفة أسلاف الأمة وفضائل أجدادها تقرأ تاريخ قومها وتدرس دينها وتبنى مجـدها مؤثلا وترفع عزها ممنعاً وتدرس علوم الشعوب ودستور الأمم ونظام الدول وبذلك يبزغ سعدها وترفل فى عزها المكين

أيها السادة الأمة فى هيأتها كالانسان فى حياته لا يتمكن من معيشته بين بقية الأفراد الحية سواء كانت من جنسه أو من أنواع أخرى الا بثلاث — قوة تدفع عنه من يريد التغلب عليه والفتك به واختلاس ما فى يديه — وأدوات يعمل بها ليعيش — وفكر يدير به أحواله ويتبصر به فى معيشته ويسترشد به فى جميع أعماله وأطواره فان فقد منها واحدة لم يغن عنـه الباقى شيئا لأنه لو ضعف عن مقاومة غيره داسته الأرجل واستهان به أعداؤه ولو فقد أدوات العمل وضعف عن ادراك ما يقصد من أمانى حياته ولو خلا من الروية والفكر اختل ميزان سيره واشتبه فى الضار والنافع فيسير خلف ما توجهه اليه الصدفة وقلما ينجو من سقوط بل لا بد له من ذلك مهما كان عمله وقوته — وهكذا تكون الأمة محتاجة فى قوامها

الى هذه الثلاث والا تلاشت ووقعت فى النكال فلا تلبث
أن تصير فى خبر كان — فالأمة التى تريد أن تغالب حوادث
الأيام وتعيش قائمة لها وجود مستقل وحياة خاصة بها محتاجة
الى فكر وهو من واجبات الهيئة الحاكمة وعقلاء الأمة كى
يتأتى لها أن تدير أعمالها الى محور الحكمة والاختبار ومحتاجة
الى القوة وهى ما تعده من قوّة الجند والحرس والخفارة لتأمن
داخليتها وتحصن ثغورها ومعاقلها وتحفظ حصونها وقلاعها
ومحتاجة الى العمل وهى القاعدة التى تناط ببقية الشعب من
أفراد الأمة فيقومون بحاجتها من الزراعة والتجارة والصناعة
غير أن هاتين القاعدتين الأخيرتين توجدان فى الغالب بعد
توفر الأولى من حيث الكمال وبلوغ الغاية ولكن الله تعالى
قد جعل لكل واحدة من الثلاث آفة تتسلط عليها لتضعف
من قوّتها وتخدش من ناموس انتظامها فجعل فى مقابلة الأولى
وهى قوّة التبصر والروية آفة النفاق من المفسدين المنطبعين
على حب الشعبذة واثارة المفاسد واشعال نيران الأحقاد فى
الصدور وهؤلاء لا يتمكنون فى الغالب من مقاصدهم الا
اذا سدلوا على ابصار الساذج والبسطاء ثياب التمويه والمخاتلة

باظهار حب الخير للأمة ورغبة السعادة للأوطان فيوهمون بما ظاهره المحمدة والغيرة حتى اذا اجتذبوا من أميال من هم على شاكلتهم زينوا لهم سوء الأميال وحسنوا لهم الانتقاد على الاعمال بحجة المحافظة على الحقوق والواجبات ووجهوا مقاصدهم الى ما ينطلى بالأوهام على الأفهام حتى ينقلبوا بالسخط عن الرضى فلا تشتغل نفوسهم الا بالتألب فى الفساد والسعى فيما يفرق جامعة الوحدة ليضعفوا من سلطان التدبير وقوة سياسة ولاة الامور الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع تفكراً فيما يحسن أن يعمل وتصلح به الأمة وتسعد به الأوطان كى تمل نفوسهم وتكل عزائمهم وقد ابتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنافقين (الذين اذا جاءوا اليه قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يشهد انهم لكاذبون) فى مطابقة أقوالهم لأفعالهم حتى كان يقول بعد رجوعه من كل غزوة رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر جهاد النفس وهواها وما يعنى بذلك الاخوف تغلب الاميال الشريرة على الاميال البارة فيفل بذلك جمعهم وتتفرق كلمتهم ولما رجع من الحرب منصوراً مظفراً جمع قومه فخطب فيهم وأخذ يحذرهم من العدو وأكثر من قوله « وانى أخشى

أن يتغلب عليكم وانى أخوفكم على ذلك» وقداشتدّت به اللهجة وغلبت عليه الحدة حتى تخيل الناس أن يكون قد دخل العدوّ منازلهم فارتعدت فرائصهم واضطربت أفكارهم وانتفخت أوداجهم ولم يصبروا أن خاطبوه قائلين« ما الذى تخافه علينا وقد غلبنا الأعداء وأورثناهم الذل والنكال وألحقنا بهم العار وأسرنا جبابرتهم وهم الآن بين أيدينا صاغرين» فقال «انى أخاف عليكم من عدوّ أشد من هذا فتكا وأعظم نكاية وأقرب أن يتغلب عليكم انى أخاف عليكم من العدوّ الذى بين ظهرانيكم ولا أبرئ جمعكم هذا منه» فلما سمع القوم مقاله انذعروا وقاموا وجردوا السيوف المرهفة كأنما يستعدون لمقاتلة أشد الأعداء بأساً وأعظم الجنود بسالة فقال «لست كذلك أقصد بل أخشى عليكم من دولة النفاق ومملكة الخداع فانها أقوى الدول وأشد الممالك وان الواحد منهم أشد ضربة على الأمة من جيش عرمرم» فأنا أطالبكم اليوم أن تخذلوا هذا العدوّ الباطن الخفى فانه يظهر بمظهر الأحباب الذين يمارون ويدارون ويستخرجون الضلالة من الهدى فان رأيتم أحداً من هذه الطائفة التى شأنها محاربة الأوطان فاصفعوا أقفيتهم بالصد عنهم وامتهنوهم بخذلانهم

ولا تنصروهم عليكم يوما فانهم يغالبونكم بكم وتيقظوا أن يستغفلوكم بحسن طوايا كم والا أوقتم أنفسكم فى هوة الهوان وارتبطوا بولاة أموركم فان رأيتم فيهم اعوجاجا فطالبوهم بالتقويم مطالبة الرجال ولا تكونوا كالنساء يتكلمن همساً ويوسوس الخناس فى صدورهن وان رأيتم بعد ذلك صدا وجماحا وميلا عن طريق الهدى فأنتم فى حل أن توقعوا بهم»

ونصح أبرويز كاتبه فقال «ان رأيت منى ما يخالف طريق الحق فراجعنى فيه مراجعة الكريم ولا تختلسنى من خلفى باخلاق اللئيم الذى ينافق فى الشهادة ويذم فى الغيب ولا تأتنى معترضاً ولكن مستفهما أشاركك فى الرأى فمن قنع منا استرشد به الناس»

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الشرك فبكى حتى اخضلت لحيته الشريفة ثم قال «وانى لأخشى عليكم من الشرك الظاهر بل من الشرك الباطن « الرياء والنفاق »

وأما الآفة التى تضاد القاعدة الثانية وهى القوة التى تقوم بحفظ الأمة فهذه تدفع بالقوة الأولى متى تغلبت على آفاتها وذلك أن حكمة السياسة كفيلة بأن ترتبها على النمط

الذى يحفظ قوتها وينفى عنها ما يتهددها من خيانة الخائنين واضطراب المفسدين ويبعد عنها وسائل الجبن وبواعث الاختلال

وأما الآفة التى تقاوم القاعدة الثالثة وهى قوة العمل فأفرادها كثيرة غير أن أشد ما يكون عليها منها حب البطالة والسكون فالبطالون فى الأمم هم الآفات التى تبطل من حركة الأعمال فاذا تغلبت سرت العدوى الى الذين يعملون فيملون الكسب من أحدى الطرق الثلاث وهى الزراعة والصناعة والتجارة فيعيش الأكثر كلاً على الأقل وهو لا يحمله ولا يقوم بأوده فلا يمضى زمن حتى تضعف القوة ويختل نظام الأمة اذ تجف موارد ثروتها فتحتاج الى غيرها ومتى وصلت الى هذه الدرجة دخلت فى حوزة غيرها ولا ينفعها وقتئذ ندم

فالواجب اذاً أن تتحرك الأعضاء للعمل فان الحركة دين طبيعى من كفر به عذب بالحرمان والشقاء الدائم

أيها السادة الانسان وحده هو العالم المفتقر الى تبادل الأعمال فى هذه الحياة ومصالحه شتى ليس فى استطاعة فرد منه أن يقوم بما يخصه منها فهو الذى أحوجته الطبيعة الى استمداد بعضه ببعض

وأحوال كل أمة من صلاح وفساد مرتبطة بأعمال رجالها وهذه الأعمال متوقفة على تقويم مناهج تعاليمهم الأولى وليست قوانين التعليم وحدها كافلة لتربية الأبناء كما تقتضيه مطالب الأمة بل لمقاصد المتعلمين وتعميم وجهة التعليم دخل عظيم فى كمال تربية الأفراد تربية نافعة للأمة

وقد سادت الأمم الغربية لاتجاه معلمى شبانها الى بث الأفكار التى ترقى عقولهم وتهيئهم للمطالعة الجليلة فينبغ أحدهم وهو أعلم الناس بأن خدمة البلاد من ألزم الفروض وأوجب الواجبات — فأنى رأى منفعة الجنس والوطن خلص وجهته اليها

ولهذا كانت أميال الأفراد غير منحصرة فى الوظائف الرسمية لعلمهم بضيق هذا المجال والدنيا رحبة الطرق فاذا كانت وجهتهم منحصرة فيه دون غيره بطلت حركتهم اذ لا بد من يوم تغص فيه تلك الوظائف حيث يكفيها النزر القليل من الناس ثم ماذا يكون عمل الباقين وهم غير متهيئين لغيره لا يكون الا الفراغ الذى عاقبته تجرد الأمة عن التجارة والصناعة والزراعة الا بأيدى السذج الجهلاء وهم الى الفساد أقرب منهم الى الصلاح

هذا ما دعى أولئك القوم أن ينوّعوا الوجهة ويفرّقوا ما بين طرق التعليم فيتخرّج أحدهم وأمامه طريق يقصده وعمل يسهل عليه أن يجد وسائله

وأيضاً ان التوظف عند أولئك القوم فى الوظائف الرسمية لا يعتبر أشرف من غيره لتقديرهم قيم الأعمال وتحديدها بمقتضى الحاجة لها — كل ذلك من الدواعى التى بعثتهم على تنويع الوجهة والاعتناء بأعمالهم فكانت النتيجة عمران البلاد بتقدّم الفنون الصناعية والزراعية والتجارية التى هى العوامل الوحيدة فى سعادة الأمم ورفاهيتها

أما نحن معاشر المصريين فقد مضت علينا أدوار قضت علي من قبلنا أن يحصر وجهة تعلمه فى دائرة ضيقة جداً وهى تمنى الخدمة فى دوائر الحكومة والباعث على ذلك ما كان فى البلاد المصرية من جبروت صغار الحكام وعظمة عمال الدواوين بسبب ما لهم من السطوة والغلبة على الفلاح الذى كان أسوأ حالا من الرق وأبخس قيمة من الحيوان الأعجم بل كان حظه الذل والصغار — فالرجل العظيم الذى تراعى حقوقه اذ ذاك كان هو الذى فى سلك عمال الحكومة وكان الحصول علي

ذلك من أكبر وسائل السؤدد والشرف

هذا هو الذى جعل وجهة المتعلم عندنا واقفة عند هذا الحد لا تتعداه

وهذه حقيقة قد عرفها المصريون الآن فلا ينبغى للمتعلم اذاً أن يجعل طريق مستقبله حرجا بل عليه أن يصرف نظره فى التعلم الى الاستعداد والتهيؤ الى أى عمل من الأعمال وأمامه العلوم شتى والنتائج كثيرة وحاجات تطالب بصناعة ضروبها غير محصورة وتجارة فنونها متنوّعة وزراعة أرضها واسعة قال بعض الحكماء من الجبن أن يرى الانسان لنفسه مقاما مخصوصا — وكذلك من فتور الهمة أن يزعم أن الحيز الذى هو به قليل الخواص فان ذلك فرية على الطبيعة التى لم تبخل على بلادنا بامتيازات جلّي — ومن يدعى أن للتقدم أناساً مخصوصين وللحضارة أرضاً مخصوصة فقد ضرب الحجر على منح الخالق جل شأنه

والبلاد المصرية سمحة المنبت كريمة المرعى صافية الأفق لا يكدرها الا ما سطر على أيدى أهليها من العجز « وهو الكسل » وقد نبهت الحوادث عقول الكثير فنشطت

وعلمت أن التعليم لا يقصد الا لمجد الأمة وكرامتها — لمثل ذلك فليعمل العاملون

***

أيها السادة حيث كان الانسان حيا يعيش زمنا طويلا ولا غنى له عما يقوم بأوده ويحفظ حياته الى الأجل المسمى وجب عليه أن يسعى الى نيل هذا الأمر واحراز تلك الغاية والناس مختلفون فى طرق السعى كما أنهم مختلفون فى نتيجته ولذلك يوجد منهم من لا يحصل على القدر اللازم ومنهم من يحصل علي الحاجى ومنهم من يحصل على الكمالى وآخرون تزف اليهم الأرزاق وتنهال عليهم الثروة ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ونحن لو نظرنا الى نتائج عدم هذا التساوى لرأيناها أضر من عدم تساوى الناس فى الأمور التى تنشأ من الطبيعة كالاختلاف فى القوة والذكاء والجمال وغير ذلك فان الفقير فى الغالب جاهل معرض للبلايا متقلب على بساط الحوادث قصير العمر مشتت البال مغضوب عليه لغير ذنب مشموت فيه بدون فائدة وان الانسان لأول وهلة قد يظن أن الاغنياء قد ظلموا الفقراء واغتصبوا حقوقهم والواجب أن تقسم الاموال

على الأفراد كل بحسب حاجته ولـكن الخبير يعلم ان ذلك خطأ فقد قسمها مقسم لا يظلم الناس شيئا ولـكن الناس أنفسهم يظلمون

وحيث كانت المساواة فى الأموال متعذرة وكان عدمها مضرا كان من الحسن أن تقابل جميع التعديلات الاقتصادية بصـدر رحب فان الأمة التى تتوزع فيها الثروة تحسن حالا وترتفع شأنا وان أعظم عامل فى نيل هذه الغـاية هو كيفية استعمال الزائد عن القدر اللازم من الأموال فان سبب عدم المساواة فى الغالب هو ذلك القدر الزائد

اذا فرضنا ثلاثة رجال أحدهم يكنز الزائد عن حاجته والثانى ينفقه فيما لا طائل تحته والثالث يستعمله فى الأعمال فأيهم يكون أنفع لنفسه وللناس — فبالطبع أن الأول يأخذ الدينار فيضعه حيث لا ينتفع به أحد فى حياته فـكأنه يأخذ جسما حيا ذا حركة ينتفع بها فيحبسه الى أجل مسمى ويعدم الفائدة التى كان يأخذها من حركته وعمله وكأنه ينقص عدد التجار ويبطل رواج الأسواق وهذا من أضر المضرات وأى أمة كثر فيها عدد الذين يكنزون الأموال منيت بالفقر والخلل فى الاعمال وكان ذلك دليـلا على عدم معرفة أهلها بصـناعة

التجارة أو على جور حكومتهم وظلما . وأما الثانى وهو المسرف المتلف الذى يذهب ماله فى شراء الخشب المسندة والأوانى المذهبة وغيرها فربما يظن أن ذلك أنفع للناس من رفيقيه ولكن الامر بالعكس فانه يبذل الدينار مثلا الذى يعمل به العامل جزءاً من الزمن فى تمثال أو انيه — والواجب علي الانسان أن يعمل لحاجة الانسان حتى لا يضيع عمله سدى فان الحركة التى يتحركها ثمينة جداً فاذا صرفت فى غير الاعمال النافعة خسرها وكانت وبالا عليه ونقصا من رزقه فاذا اشتغل كثير من الناس بمثل ذلك فقدت الامة جزءاً عظيما من العمل الذى هو رأس ثروتها فأصبحت فقيرة محتاجة . مثلا اذا أخذنا مليونا من الامة المصرية ووكلناه ببناء هرم فى سنة أليست البلد تفقد من ثروتها بمقدار عمل هؤلاء الناس فتضيق الزراعة وتبطل التجارة الى غير ذلك — هذا اذا اشتغل المسرفون بما لا ينفعهم فى حياتهم المادية وهو الكثير الغالب — أما ما ينفقونه تأنقاً فى المطعم والمشرب فهو وان كان أخف عناء من الاول الا أنه يضر من حيث كونه يستدعى ضياع عمل ومادة فان بعض تلك المطعومات والمشروبات تستخلص من المواد المستعملة

للغذاء باعمال عظيمة فيخرج من الكثير منها القليل من تلك الاشياء وبذلك تفقد الامة جزءاً مما كان يستعمل لغذاء بعض أفرادها فترتفع أثمانه ويضر ذلك بالفقراء وذوى الحاجة ولقد نهى الله سبحانه عن التبذير ومقت المبذرين فقال تعالى (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) وقال (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) الى غير ذلك من الآيات الدالة علي أن الاسراف والترف مفسدان للعمران ومرض من أمراض التقدم. وأما الثالث وهو الذى يأخذ المال فيستعمله فى التجارة وغيرها فلا يكنزه ولا يبذره فهو الحكيم المدبر الذى تسعد به الناس ويجدون منه ملجأ وعونا على الاعمال — وأنفع علم يتعلمه الانسان فى حياته بعد القدر الواجب هو ذلك العلم الذى ان لم نقل انه يحيي به كثيراً من الناس فانه يعيش به عيشة طيبة وينتفع به أقاربه وذووه وأهل بلده — وطرق استثمار الأموال كثيرة تقدم ذكر معظم أنواعها فلا نطيل باعادتها

*
* *

أيها السادة لا يجهل أحد أن العدل روح العمران وأس المدنيـة وأن الظلم من أقوى أسباب الانحلال والتفرق وان

الامة لن تنـال رفاهية العيش ما لم يكن بينها من يتولى امر الأعمال بالقسطاس المستقيم ولـكن أليس من الواضح البين أن الأمة تتناوبهـا أدوار من الحوادث بينما تكون متدرجة فى سلم الارتقـاء يظهر أمامها العدل بمظاهر متنوّعة وصور مختلفة وليس له فى الحقيقة الا صورة واحدة وماذاك الا خطأ فى النظر وضعف فى التميز

نعم ان الانسان مهما كان يشعر بألم الظلم فيعرفـه ولا يرتاب فيه ولـكن لو سألته عن العدل فى نفس الأمر لأخطأ فى الجواب وأورد لك صورة أخرى من صور الظلم زاعما أنها هى العدل المطلق وذلك لاشتباه العدل عليه بمنفعته الذاتية ان كان من السذج وادخالها فى دائرته وان كان من ذوى المسكة

ومن ذلك يتضح أن جميع من على سطح المسكونة يحبون العدل ولـكن أكثرهم لا يعرفونه وانه يسهل علينا أن نجد من يريد أن يعـدل غير انه يتعذر علينا أن نجـد من يصيب العدل فى أحكامه

قال الامام عليّ كرّم الله وجهه العدل صورة واحدة والظلم صور كثيرة ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحرى

العـدل وهما يشبهان الاصابة فى الرماية والخطأ فيها وان الاصابة تحتـاج الى رياضة وتعهد والخطأ لا يحتاج الى شيء من ذلك وحيثما كان العـدل فانه لا يتصوّر الا بين اثنين وعلي ذلك فهو بأخصر الطرق أداء الواجب وأخذ الواجب وكلا الواجبين لا يقـدر الا بالآخر فالفـلاّح الذى يعلف بقرته ثم يستعملها فى أرضه عادل اذا كان قد جعـل البقرة والعلف فى كفة ميزان والعمل فى الـكفة الأخرى أما اذا جعـل العلف قبالة العمل أوجعل العمل والبقرة قبالة العلف فانه يكون ظالمًا أو عادلا باختـلاف حالة الأرض وقوّة الحيوان وتغذية العلف وتعليل ذلك لا يحتاج الى بيان غـير أن من الناس من يظن أن الشيء قد يكون واجبا لذاته فينبنى على ذلك انالانسان يؤديهأو يأخذه بدون مقابل ولا يكون هناك ظلم وذلك خطأ بيّن فاننا لو تتبعنا حالة الانسان من طفوليته التى لا يكون عليه فيها واجب يؤديه الى شيخوختـه التى تثقل ظهره فيها الواجبات لوجدناه لم يذعن فيها بحق ولم يقر الا بواجب الا وله فى مقابله منفعة يجنيها وواجبات يقتضيها فطاعته لوالديه ورضوخه للمعلم وصـبره على مضض الأعمال

واذعانه للحكومة مما أوجبه عليه العقل الذى أعلمه أن له فى مقابلتها منافع وواجبات لولاها لنبذ الدرس ومزق الطرس وشق عصا الطاعة

وعلى ذلك فالرجل الذى يريد أن تستقيم عائلته ويعيش معها فى صفو عيش وراحة بال يلزمه أن يلاحظ الواجبات المتبادلة بينه وبينها والتى بين الأفراد وبعضها ويحذر أن يجعل على أحدهم واجبا دون أن يكون قد سبق فمنحه ما يقابله وذلك هو العدل فى أخص أحواله تقوم به القوانين الأساسية وقس على ذلك القبيلة والأمة والمملكة — ولكن لو فرضنا أن أحد الأفراد لم يقم ببعض واجباته فهل يحرم مايقابل ذلك البعض من المنافع ويكون ذلك عدلا — كلا — اذ لو كان كذلك لكان ليس ثم حاجة للقوانين الفرعية فانه ربما أضر بعدم القيام به ضرراً يفوق مقدار منفعته فانا لا نعاقب الحارس على تركه اللصوص يرتعون فى المساكن بقطع مرتبه فقط والا لأخللنا بركن عظيم وأضعنا شيئا نفيساً وهو الأمن بقيمة زهيدة وقس على ذلك — فقوانين الأمة وروابطها هى تمدنها وهيكلها فى الحضارة — وواضعوا تلك القوانين هم بناة تلك

الهيئة ينالها منهم ما ينال البيت من حذق بانيه ونباهته ومعرفته بمواضع النفع والضرر — والرجال الذين يقومون بادارتها ليسوا سوى من يحافظ على عمران تلك الهيئة وابقاء نضارتها وحسنها وان من أضر المضرات أن ينال القانون من البعض مالا يناله من البعض الآخر فان ذلك شين فى وجه العدل يؤثر خللا فى العمران فيقوم باطلا ويهضم حقا — ومن أظلم ممن يشارك فى السراء وهو برىء من الضراء ذلك ما تجنيه القوة على القوانين ومالا يرأب صدعه الا رجال الحل والعقد ممن حنكتهم التجارب ودفعوا الى مضايق الأمور -- أليس امتياز بعض الأفراد ممن يدرج على بساط الغبراء عمن يشارك فى السعى ويقاسم فى المنفعة واختصاصه دونه ملقياً سلطة القوانين الاساسية والفرعية بحجة نسجتها أيدى الحوادث الغابرة تشويها للعدل يأباه العقل وتمجه سليقة الانسان

***

أيها السادة الانسان مطالب من قبل ذاته أن يعمل ليعيش عيشة راضية ومطالب من قبل الهيئة الحاضرة بمبادلة المنفعة والمشاركة فى كل عمل يحفظ لهم ناموس حياتهم ووحدتهم

ومطالب من قبل السلف أن ينظر فيما اعترضهم فيه الوقت فنعهم من اتمامه ليهيئوه للفائدة التي أرادوها بالشروع فيه ومطالب من قبل الخلف أن يعدّ لهم مايتخذونه أساساً لاعمالهم ويشيدون عليه بناء هيئتهم فهو واقف بين أربع قوات تتجاذبه ان أضاع طرفة عين من وقته طالبته احدى تلك القوّات وأقامت كلها فى وجهه حرب التأنيب وبادرت الى صحيفته فلوّثتها بسواد تقصيره وهو ليس بشيء اذا انطوى وطويت صحيفته على هذا النمط وخلت ذكراه من الأثر الحسن

ولا شيء يدوم فكن حديثاً   جميل الذكر فالدنيا حديث

وليس الغرض من عمله أن يتهافت كالفراش على كل مايبدو له زاعما انه بذلك يقضي دينه ويفي بحق ذاته وغيره — كلا لأن الفرد من الهيئة كالعضو من الانسان لا يخلو من وظيفة توجهه اليها الطبيعة وهو قادر ان يجعل نفسه باطلا معطلا وهو أهون عليه وقادر ان يكون عضواً نافعاً منفعة عظمى فى جسم هيئته بل قادر ان تكون وظيفته اسمى واشرف مما كان يؤمل فيه — ونحن نشاهد فى كل هيئة افراداً عظمت اعمالهم وكبرت الحاجة اليهم فلا غنية لها عنهم الا اذا خلفهم من يقوم مقامهم

والطبيعة قد أودعت فى كل انسان أمـلا وفطرته عليه وقوّته فيه حتى جعلته مشغوفا بحب العلوّ وسموّ الجاه وصاحب هذا الأمل يرى الدهر غادراً له والزمان مذنباً معه والناس مضـيعين حقوقه فـلا يغفر تلك الخطايا ولا يغضى عن تلك الهفوات الا ان رأى نفسه فوق عرش الموجودات والزمان عبداً له والدهر خادما له والناس خضعا بين يديه وجميع المطالب مسخرة له لا يعز منهـا شيء دون اشارته وهى أمانى باطلة وآمال زائلة

وما طلب المعيشة بالتمنى ولـكن ألق دلوك فى الدلاء

فالأمل فى ذاته ليس بنافع أحداً الا بالعمل وهو لا يعمل الا اذا كان له من نفسه واعظ تنبعث عنه الهمة والاجتهاد وهذه الهمة لا تفيد الانسان الا اذا ظهرت تأثيراتها على ظواهره تستخف بعظائم الأمور ومع ذلك فلا تنجح الا اذا قرنت بالحـكمة فى التوجه وصادفت استعداد النفس وعدم تعاصى المطلوب لأسباب لازمة له أو عارضة عليه فيحمد صاحبها عليها ان تعدّاها غير مكترث بآلام النفس فان توفرت فيه هـذه الصفات فقل انه قارب أن يكون عضواً نافعاً للهيئة وثمرة فى

غرس الموجودات تهيأت للنضج ونعنى بذلك ان الانسان اذا توفرت فيه الوسائل كلها احتاج الى الوقت الذى يعمل فيه والوقت كثير ان دبره قليل ان أضاعه

نخال أن الوقت قصير عن ادراك جميع مطالبنا وهو ليس الا الحياة نظنها ممتدة ونعقد بأطرافها أهداب الأمل بالتصورات والتخيلات لكنها قصيرة أو ضائعة ان لم نعتبرها كحقيقتها مؤلفة من دقائق وآنات تمضى بمجرد استحضارها سيالة فى الكرّ والفرّ لا يستطيع الانسان أن يسترد ماضيها وهو يستعجل مستقبلها بل يعجله اللهو والبطالة غير أن الحكيم يدبر وقته كتدبيره غذاءه وشرابه ونومه يجعل كل جزء منه يمرّ فى الملائم له والنافع لحياته ولأبناء جنسه يحرص على الوقت حرصه على روحه فهو لديه مطية يستخدمها فى جميع أغراضه وهو عند الجاهل كالحيوان البليد الشره النفس لا ينتفع به صاحبه وهو يأكل من حياته ويشرب من دمه فالوقت نافع للحكيم ضار للجاهل وليته قاصر على الضرر لذاته بل يكون حملا ثقيلا على الهيئة بل عضواً فاسداً فى جسمها ان لم يقطع أو يعالج سرى ضرره بالعدوى الى الباقى وذلك صاحب الوسائل تضيع وسائله

ان لم يدبر وقتـه بحكمة ويجعل لأجزائه وظائف كأعضـائه فيصرف بكرته فى كذا وضحوته فى كذا وغدوته فى كذا وهكذا مراعياً فى ذلك حالة معاشه وصحته وحقوق أعماله وفائدته ناظراً فى كل عمل لوقته الذى يصح أن يعمل فيه غير مضيع فرصة الحاجة ولا مستقدما آتياً كالزارع يحصـد عند نضج الثمرة غير مغـتر بزهوها ولا مبطئ فى الجنى فتخطفها أيدى الضياع والملاشاة — لا فرق فى ذلك بين العالم والجاهل والغنى والفقير والصبي والشيخ والضعيف والقوى فانهم أعضاء الهيئة وآحادها منهم تكوّنت وبهم تقوم وعليهم يعود الربح أو الخسران

قال بعض الحكماء ان روح الحياة انتهاز فرصة الوقت فى العمل لأن من يؤجل عملا الى المساء يمكنه ادراكه فى الصباح فقد أدرك الأرب يوم يدركه كل انسان ومن أراد تعجيل ما تطلب الحكمة تأجيله فقد حاول أن يغير دورة الفلك وضاع عمله سدى ومن لم يأخذ من قوّته لضعفه فلا يعيش لغد ومن لم يعمل فى صحته لمرضه هلك من حيث لا يدرى ومن ضيع وقته قتل بسيف الزمن فالوقت رأس مال العامل ومن أضاع رأس ماله فلا نصيب له غير الفشل والخسران

١٧٢

﴿ رب قول أنفذ من صول ﴾

لما كان اللسان آلة للتفاهم بين الناس كان مصدر كل تأثير سواء كان فى الخير أو الشر ولهذا حذّر الحكماء من فضول القائل وندّدوا بحصائد الألسنة واستعاذوا من السلاطة والهذر كما استعاذوا من العيّ والحصر لأن الصمت والسكوت خير من القول بالجهل والتكلم بالشر — والقول مع العلم والتكلم بالخير هو غاية المنافع القصوى ودرجة المآثر العليا وعليه حث العلماء والمحققون — قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه لا خير فى الصمت مع الحكم كما أنه لا خير فى القول بالجهل — وقال الامام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ترك الحركة غفلة وطول الصمت يفسد اللسان — وقيل اذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبدلت نفسه وفسد حسه — وما اخالهم أرادوا بذلك الا أن النطق من لوازم العقل بما جعل اللسان مترجما عن الضمير وضابطا للفكر ومقيدا للخواطر وان شأن المعانى التى تختلج فى النفس وتتصل بالفكر أن يتحيزها النطق فيبرزها الى عالم التفاهم ليؤتى على الغاية

المقصودة من اجتماع بنى الانسان وتحصل الفائدة المودعة فى جوهرة هذا اللسان

كذلك لو قصر الانسان على التكلم فى موضوع من المواضيع دون غيره أو حظر عليه الكلام الا فى معنى خاص بحيث يحال بينه وبين ما حرّم عليه بحجاب كثيف فتوصد فى وجهه أبوابه وتتصرّم معه اسبابه وتنقطع عنه مواصل الاطلاع من جهة ذلك المعنى فحكمه بالعلم به حكم من عاش وحده لا يفقه ولا يعى الا بقدر ما يتاح له من استطلاعه غفلة واستشرافه خلسة مما يسفل عن رتبة العلم وينحط عن درجة المعرفة بخلاف ذلك تراه فى الموضوع الذى منحت له حرية التكلم فيه قد اختبر أمره وأكنه سره وقلب بطنه وظهره ووقف علي الدخيلة منه ودرى أصوله وفروعه وأحاط بأطرافه بما يتفرغ له من المفاوضة بشأنه واستعمال أداة التفاهم التى تقفه على رأى غيره وتريه منزلة رأيه عندهم بحيث تكون له مرآة عقلية يرى فيها ما لنفسه وما لغيره — ولا يخفى ان الانسان اذا أتقن العلم بشىء من الاشياء فحيث كان لهذا الشىء اتصال بعالم التصرف وكان العلم هاتفا بالعمل رأيت المرء أحذق فى شأنه وأعلم باتيانه ولو نظرنا

فى حال الرجال المشاهير بحسن سيرتهم وسداد أعمالهم ونبل أفعالهم لرأينا فى كلامهم الخاص من البلاغة والاحاطة والدليل على شدة امعانهم فى أسرار الأمور وتعمقهم فى بواطن الاشياء ما يقصر عنه وصف الواصفين وتشهد به أذواق العارفين

وبديهى ان اتقان العلم باعث على اتقان العمل ما وجدت الهمة وتوفرت العزمة

واذا كان هكذا حكم الفرد من الأشخاص فهو حكم الأمة التى هى بمجموعها على حدّ الفرد بلا فرق سوى الزيادة فى النتيجة — أنظر الى حال الأمم التى أطلقت فيها حرّية الخطابة واتسع عندها مجال القول كيف عمّ فيها العلم وشاع الفهم وتنوّرت العقول واستضاءت الألباب بما اتصل بها من المعانى الرفيعة والمواضيع العالية والمقاصد السامية وما تيسر بذلك من وسائل الارشاد وطرق التبليغ وأسباب الدعوة وما انفتح به من أبواب الاشارة والاستشارة والمشاركة فى ثمرات العقول ونتائج الأفكار ولاسيما فى الأمور العامة والخطوب الطامة حتى شُمّت الخطبة من الخطب لأنها ما يقال عند الأمور العظيمة — واذا كانت الأمة على هذه الدرجة من سهولة

الاطلاع والكشف كانت على غاية من الانتباه والحذر والتيقظ لمصالحها والتبصر بحوائجها والتحفز على درء مضارها بحيث تكون أسبق الأمم قدما الى منازل العز وألمحها بصراً الى معالى الأمور وأسدّها تدبيراً فيما تباشره من الأعمال ومن ثم تحرز الغبطة والبسطة والجاه والثروة وتحوز الغلبة على من سواها

وحسبنا شاهداً فى كل زمان الأمم التى اشتهرت بالرئاسة والسيادة والسداد والقوّة والجاه والحكمة — منها أمة اليونان فى الأزمان القديمة بلغت ما بلغت من الشهرة فى العلوم والحكم وحسن السياسة وتثقف العقول وأدب الطباع بما كان فيها من حرية التكلم وتعميم العلم بالخطابة ولقد كان مشاهيرها أساطين الحكمة وسلاطين الكلام وملوك المقال والمتمكنين من أزمة البيان — ومنها أمة العرب الى عهد الاسلام ومابعده بقليل بلغت حدّ الاعجاز من البلاغة وتجاوزت طور الأمم فى البيان وفى لسانها من التعابير والتراكيب والأمثال الدالة على شدة تسلطها على المعانى وقبضها على المواضيع واحرازها لظواهر الأشياء ما يقضى بالعجب العجاب

ومن أنعم النظر فى خطب عمر بن الخطاب أو علىّ بن

أبى طالب مثلا أو غيرهما من أمراء الجيوش وعمال الأقاليم الذين عاشوا فى صدر الاسلام وعلم ان مثل تلك البلاغة الشاهقة والحكمة السامية مما كان مأنوفا عند أفهام العوام فى تلك الأيام وهى مما يعجز عنه اليوم مدارك الخواص تمثلت له حالة البيان فى ذلك الزمان ولم يعجب لباهر تدبير هؤلاء الرجال وشدة نفاذهم على الأمور فانهم سطوا على الأغراض فأحرزوها وتمكنوا من الحقائق فأبرزوها وذات لأفهامهم المشاكل وخضعت لأفكارهم المقاصد وانقادت لخواطرهم الشوارد ومن كان هذا شأنه فى الفهم والتفهيم بين أحوال العالم وأموره فقد بلغ به العقل السعادة التامة والحكمة العامة والمنزلة الخاصة دون البشر

ومن هذا القبيل الشعوب الأوروبية لهذا العهد أدركوا الغاية القصوى من النجاح وتسنموا المعرفة العليا من الفلاح وصاروا الأشد طولا والأوفر حولا والأغزر مادة والاكثر بضاعة من كل صنف من أصناف المعالى والمراتب والمنافع والمكاسب وذلك بعد ان أطلقت عندهم الحرية وأجيز القول بكل نوع من أنواع النصيحة والتنبيه لكل فرد من افراد

الأمة فعمّ عندهم مشرب الحب الوطنى وصارت كل أمة منهم بمثابة الشخص الواحد تضطرب بكليتها للمصلحة وتتجه باجمعها الى المقصد -- ولا يتم هذا الاتحاد فى الرأى والعمل حتى تكون الأمة كلها علي نبأ من خطبهافتتهيأ لتلقيه بالتى هى أحسن ولا يكون ذلك الا باتخاذ المجالس والنوادى والمحافل السياسية ومنابر الخطابةوالجرائدوالصحف والاجزاءالمنشورة وسائر وسائل اللسان والقلم فترى الأمة اذا أصابها خطب أودهمتها نازلة من النوازل قامت قائمتهامن كل جهة لاسترجاع الحق ودفع الأذى فصعدت الخطباء علي المنابر وصدعت الكتاب بالجرائد وانبسطت المسألةالواقعةللجميع بمايستعرض الأفكار ويستدرج الآراء ويستورى زناد الروية ويستمطر سحاب القريحة للعمل بالأولى واتخاذالخطة المثلى فتندفع المملكة كلها فى مداركة الخطب وملافاة اليأس ولا يزال العويل قائما والنفير متلاحقا وأصداء المحافل متجاوبة بالمناقشة والمحادثة وأوراق المطابع متزاحمة بالمجادلة والمباحثة حتى تمحص جميع الوسائل والأدوية وينتهى الأمر باختيار الانفع وارتضاء الانجع — وأما الرأى العام المعروف فلا سبيل الى انعقاده

الا هذا الطريق — وهذه الحالة هى الآخذة بطرفى المنفعة المادية والادبية الماسكة بناصيتى المصلحة العمومية والخصوصية وذلك فضلا عن تحرّى السداد والفوز بالنجاح فى انتهاج هذه الطريقة فى أمور المملكة يصبح كل واحد من الامة عالما بالشأن الذى ينبغى له ضليعا فى الامر الذى عين عليه — وانه ليقوم الخطيب فى القوم مرتجلا ارتجالا فتأتيه المعانى ارسالا فيأتى على موضوعه كله لا يدع وجهاً الا قلّبه ولا رأيا الا كاشف به ويجىء الكاتب لانشاء فصل من الفصول فلا يتناول القلم الا وقد تداعت عليه المعانى من كل جانب وكل عندهم يخمد ويضرم وينقض ويبرم اذا اشرأبت الى رأيه الأعناق وارتاحت الى رشده النفوس ولهذا صاروا أبصر الجميع فى لوازمهم وأنجحهم فى مطالبهم وأنشطهم الى مصالحهم فشمروا عن ساق الجدّ وانصلتوا فى السير الى المجد ونالوا الحظوظ الوافرة واقتنصوا المآرب النافرة وأوردوا الآمال مناها وأصبحوا على ما نراهم فى حالة تبهر العيون وتملأ الصدور

وكثير من الشعوب بفساد أمرائهم واستبداد رؤسائهم وتحكم ملوكهم وتخوّنهم لحقوق عامتهم مما نشأ عنه سوء تربية

الاشخاص وتعطل أخلاقهم وانقلاب فطرهم وانعكاس خلقهم
قد حرموا منفعة الخطبة والتكلم على الامور العامة مما ينوّر
عقولهم من جهة ويسدّد أعمال دولهم من أخرى فهم لا ينشطون
لمقال ولا ينشطون من عقال وذلك أنه جرت العادة عند الملوك
القدماء المستبدين أنهم متى فسدت طباعهم وأرخو العنان
لأهوائهم فجروا فى الاغتصاب والانتهاب كل مجرى وذهبوا
فى الحيف والجور كل مذهب لم يطيقوا سماع منددّ باهوائهم
معدد لأسوائهم ذاكر لقبح صنيعهم تعجرفا وكبراً منهم عن
أن ينظروا قبائحهم باعينهم أو ضعفاً عن اصلاح سيرتهم فضربوا
بين رعيتهم وبين الحرية ستاراً حتى اذا حولوا الأبصار عن
النظر فى أعمالهم وصرفوا الخواطر عن التأمل فى حركاتهم
انطاق بهم جماح الشهوة الى حيث شاءوا بلا معارض ولا منازع
واعتنوا بتضييق الواسع على رعاياهم ليتمادوا فى الغباوة
ويرتكسوا فى الضلالة ويسقطوا فى الظلمات فيستضيمون
حقوقهم ويتحكمون فى أعناقهم وارزاقهم وهم صاغرون ولهذا
أخلوا دولهم من المجالس الشوروية الدستورية وانحصرت
الأمور العمومية التى عودتها على ألوف الألوف بل الملايين

من البشر فى رأس شخص واحد أو اثنين ليس لغيرهما حق فى أن يعلم ما هو مصيره وأمته ولا أن يبحث فى شأن من الشؤون العامة أصلا فترى الأهالى وقد كبحتهم حكمة القهر عن التكلم فى مصالح المملكة وغمست عنهم الأخبار السياسية وطويت المسائل المهمة فى أدراج السكوت فى أسوأ حالة من الجهل بأمورهم والغفلة عن مصالحهم وقلة الاستعداد لدرء الملمات وازاحة الكروب والقصور عن الجدّ فى منفعة وطنية بما غلّ أيديهم من سلاسل الاستعباد وارتفع على أعناقهم من نير الاستبداد ولما صار الى هذه الدرجة جهلهم بأنفسهم بما حجب عنهم من العلم وأطيل من ذلك الحجاب سكنت هممهم وركنت عزائمهم ورأيت ما رأيت من تجافيهم لا عن التهالك فى طلب العز بل عن التحرّك فى تحصيل الضرورى الاماجاء على طريق الهون من مصادر الدون فان حرمانهم النظر فى شؤونهم العامة والتكلم بما عند سائر الأمم مما يشبه التعريض بحالتهم المتأخرة قد اعترض ما بينهم وبين التأمل والتبصر وحال دون الاعتبار والادّكار فماتت خواطرهم وسكن تأثرهم وفسد احساسهم وتبدّلت نفوسهم فهم شاهدوا الأشباح

غائبوا الأرواح تمرّ بهم الحادثة تتبعها الحادثة وتلقاهم العبرة تعقبها العبرة كأن لم تمرّ بهم ولم تلقهم

وبالجملة فاذا حتّم عليهم اهمال النافع من الحديث والحق من المقال لمخالفته هوى الملوك تكثروا بما يضرّهم ولا ينفعهم من سفاسف الأحاديث وما لا فائدة فيه الا من اتفق لهم من هؤلاء حالة وقفتهم على أحوال الدول الأجنبية أو شيء من أحوال دولتهم — ومثلهم بالنسبة الى السواد الأكبر أقل من القليل وانما علم هؤلاء فى أكنان لا يتجرأون على ابرازه خيفة غائلة الحكام وبطش الأمراء الا اذا صادفوا خلوة مع بعض الأصدقاء الذين يثقون بهم ويسترسلون اليهم فتراهم يخفتون من أصواتهم ويتهامسون الكلام وهم متلفتون ذات اليمين وذات الشمال اتقاء أحد يدهمهم فيشى بهم الى الحاكم بأنهم يتشاورون أو يتحادثون فى مصلحة عامة وهى عنده المفسدة الكبرى والمكيدة العظمى

ولو أن أصحاب هذه الممالك اهتدوا بنور العقل وأطلقوا حرية الأمة فى الكلام على أمورها الكلية مما يبصرها موقع خطائها ويسددها الى الطرق القويمة والوسائل الفواعل ويشغل

كل فرد من الأفراد بمصلحة البلاد وينفخ فى الجميع روح
الحياة العامة فينهضون يداً واحدة لنصر أمرهم وتعزيز شأنهم
ويجتنى الملوك من ثمرة تلك الحركة ما يذهلون به عن كل لذة
بدنية وشهوة حسية لكانوا عرفوا أن هذا السبيل الذى هو
مدعاة لحركة الرعية ومثار لحميتهم انما يزيدهم تثبيتاً على عروشهم
وتأييداً فى ممالكهم ويكسبهم من دعوة النصر والقوّة والجاه
بهاء وجلالا لا يتصوّرون منهما شيئاً فى حال الاستبداد والظلم
ولكانوا علموا أن اطلاق الألسنة من عقالها بالتقريع والتسميع
وارخاء العنان للأقلام بالتحريض والتأنيب والحث على الاقتداء
بالأجانب فى حكمتهم وتدبيرهم والاهتمام بأمورهم والدعوة
الى مباراة الأباعد فى قوّتهم ومثاقفتهم فى صناعتهم ومنافستهم
فى بضاعتهم ومسابقتهم فى تهيئة الأسباب لهذه الأشياء انما
عاقبة كله اصلاح أفراد المملكة ومجموعها والتدرج بذلك
فى معارج الكمال الأدبى والمادى

١٧٣

﴿ عدوّ عاقل خير من صديق جاهل ﴾

العاقل اذا والى بذل فى المودة نصره واذا عادى رفع

عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وان أساء اليه مسيء سبب اليه أسباب العذر أومنحه الصفح والعفو — وأما الاحمق فضال مضل ان أونس تكبر وان أوحش تكدر مجالسته مهنة ومعاتبته محنة

ولأن يعادى عاقلا خير له   من أن يكون له صديق أحمق

وورد فى أمثال الأوائل عدو عاقل خير من صديق جاهل لأن همة العاقل لا تتعلق الا بطلب الكمال فهو يقدر الأمور حق قدرها ويوقفها عند حدها اللائق بها فانه ينظر بقلبه وخاطره لا بمجرد عينيه وناظره فله من عقله رادع عن التسرع اذا أثيرت عواطفه بما يكدره من عدو تظاهر عليه بالعدوان معلقاً خاطره باقوال البهاء والأفاضل الأذكياء وغير ذلك من التأويلات التى يجعلها دائما نصب عينيه دواء لغضبه - أما الاحمق فليس عنده من التاويل الا أوهام الاضاليل فالاقتراب منه ندامة والبعد عنه سلامة

يقول لك العقل الذى زين الفتى   اذا لم تكن تقدر عدواً فداره
ولاقه بالترحيب والبشر والقرى   وبارك له مادمت تحت اقتداره

وقبل يد الجانى التى لست قادرا   على قطعها وراقب سقوط جداره

وقال الآخر

ذو العقل فى معرك الاقدار مقتدر * لكن ذا الجهل مغلوب ومغلول
وعقل ذى الحزم مرآة الامور بها * يرى الحقائق والمجهول مجهول

١٧٤

﴿ فوائد رجال الشرطة « البوليس » ﴾

لابد لكل أمة من حكومة ولكل حكومة من نظامات وقوانين تسير عليها وتعمل بها والا لاختل نظامها وانفرط عقدها

والأمة هى مجموع الأفراد القاطنين فى قطعة معلومة من الأرض والخاضعين لحكومة واحدة

والحكومة هى جسم اجتماعى يعتبر كأنه شخص واحد له ماله من الارادة والفكر والعمل — وكل جمعية انسانية خاضعة لقوانين ونظام عام تكون جسما اجتماعيا يسمى بالأمة

وكما أن الجسم الانسانى يحتاج لفكر يفتكر به ونفس يريد بها وأعضاء يعمل بها كذلك يجب أن يكون فى هذا الجسم الاجتماعى ارادة وفكر وأعضاء مادية. ويتعين على كل حكومة النظر فى أعضاء الجسم الاجتماعى وهم عبارة عن أفراد تلك

الأمة ولهذا يجب على كل حكومة أن تحافظ على أن تكون العلائق بين أفرادها مؤسسة على العدل الذى يجده كل انسان فى نفسه ولا يجوز لها أن تترك القوىّ يظلم الضعيف وغير ذلك

وكل فرد فى المجتمع الانسانى لا بد وأن يشتغل بعمل ما ولهذا احتاج الى القوة والمهارة والعلم — وعليه واجبات يؤديها لنفسه وللمولى سبحانه وتعالى ولعائلته ولوطنه ولا يتسنى له القيام بذلك الا بقوّتين قوّة قضائية وقوّة تنفيذية فالأولى ما تقوم بها القضاة والثانية ماتقوم بها رجال الشرطة والبوليس والقصد من ايجاد الثانية توطيد الأمن والنظام والحرية العمومية

ويدخل فى اختصاص الشرطة أمور كثيرة

منها مراقبة مجارى المياه التى ليست من الأملاك الخصوصية فلكل انسان الحق فيها على حدّ سواء وليس لأحد أن يستعملها استعمالا مضراً بالصالح العام

ومنها مراقبة القنص بحيث تكون تحت قواعد مخصوصة حتى لا ينشأ عنه ما يكدر راحة سكان الأرياف أو يكون سببا فى اتلاف الزرع والغيطان — وكذا صيد البحر يجب أن يكون على نظام واحد حتى لا يتأتى منه اهلاك الحيوانات المائية

ومنها مراقبة الصناع فى المعامل والمناجم والفابريقات، فلا يجوز أصلا أن تنهك قوى الشغالة خصوصاً النساء والاطفال ولذلك وجب أن تكون مدة الشغل فيها محدودة

ومنها مراقبة المكاييل والموازين والمقاييس حتى لا يتأتى للبائع غبن المشترى

ومنها مراقبة الأشياء الذهبيه والفضية لأن المشترى لا يكون معه فى العادة ما يتمكن به من تحقيق ما اذا كانت الاشياء التى تباع اليه نقية أو خلطا من معادن حقيرة تقلل قيمتها

ومنها مراقبة المواد الغذائية التى تباع فى الأسواق بحيث تكون من نوع جيد خالية من الغش حفظا لكل انسان

ومنها مراقبة منع انتشار الأمراض المعدية بالتقويمات الصحية

ومنها مراقبة بيع الحيوانات وصحتها ودواب النقل

وبالجملة يجب على البوليس أن يبذل النفس والنفيس فى جلب الراحة والأمان والاطمئنان والسعادة فى ربوع عموم القرى والبلدان فبهم يبلغ الوطن من حسن نظام المعيشة الغاية ومن الحضارة والمدنية النهاية

***

١٧٥

﴿ فوائد الشجاعة ومضار الجبن ﴾

الشجاعة من الفضائل الأصلية لأنها من الوسائط العظيمة الضرورية لحفظ الذات ونوال الغبطة والسعادة — فالرجل القوىّ النفس الشجاع الباسل يأبى الضيم ويذب عن حياته وشرفه وماله بكل قواه ويأنف أن يأتى الظلم

ليس المروءة أن تبيت منعما   وتظل معتكفاً على الأقداح
ما للرجال وللتنعم انما   خلقوا ليوم كريهة وكفاح

وان بشهامته وعلوّ نفسه فى عمله يحصل على رزقه من وجوهه المشروعة ويعيش بسلام مطمئن الخاطر قرير العين غير هياب ولا وجل وانه لقوّة نفسه اذا نابته النوائب التى لا يقدر على دفعها قابلها بالصبر الجميل واحتال لكشفها بالتى هى أحسن

فالشجاعة من هذا القبيل من أعظم الفضائل ولهذا جعلها القدماء من أمهاتها   قال الرسول عليه الصلاة والسلام (الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية) وقال بعض الحكماء الرجال ثلاثة فارس وشجاع وبطل — فالفارس الذى يشد اذا شدوا - والشجاع

الداعي الى البراز والمجيب داعيه — والبطل المحامى لظهور القوم اذا ولوا

ولو أن الحياة تبقى لحى　　لوددنا ضلالنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بد　　فمن العجز أن تكون جبانا

أما الضعف والجبن فهما رذيلتان من شر الرذائل لأنهما قد تصاحبهما فى نفس صاحبهما آلاف الأوهام والخزعبلات

يرى الجبناء أن الجبن حزم　　وتلك خديعة الطبع اللئيم

فالجبن الضن بالحياة والحرص على النجاة

يفرّ الجبان من أبيه وأمه　　ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه

فالرجل الضعيف الجبان يعيش فى الأوهام والمخاوف الدائمة فيضنى صحته بالفزع والوجل من لا شىء وهذا الخوف أو الوهم والوسواس انما هو آفة له قد يكون بها أسير أوهامه ورفيق كل من يريد هضم أشيائه وهو استعباد قواه واذلالها ينتقص شانه ويفسد عليه عيشه حتى انه ليجعل حياته طوع ارادة وهوى من يخافه ويتملقه

واذا ما خلا الجبان بأرض　　طلب الطعن وحده والنزالا

وقال آخر

يرى الجبناء أن العجز عقل وتلك خديعـة الطبع اللئيم

على أن أكثر هذه الصفات قد تكون وراثية أي انتجتها أحوال سابقة للأمم والافراد — غير أن التربية قد تصلح من تلك الصفات على تمادي الاجيال متى ما قصـدت الامم اليها وعرفت ما ينقصها منها لان كثيراً ما يتعلق بارادة البشر اصلاح أحوالهم وانما تعوزهم العزيمة والثبات لاننا بمعرفتنا ماينقصنا من الاخلاق وشعورنا بالنقص فيها يمكننا أن نسعى الى أحيائها فى نفوسنا — بحيث نهيء ذرارينالها باصلاح أحوالنا على قدر الطاقة

والجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم منارها وقطع روابط الامم فحل نظامهـا وأوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية على أنظار السائرين يسهل على النفوس احتمال المذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ويوطن النفس على تلقى الاهانة بالصـبر والاحتمال والتجلد — الجبن يلبس النفس عاراً دون احتماله موت أحمر عند كل ذى روح

ذكية وهمة علية — يرى الجبان وعر المذلات سهلا وشظف العيش فى المسكنات رفهاً ونعيما لا بل يتجرع مرارة الموت فى كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له الا عين تبصر الاعداء ولا ترى الاحباء ونفس لا يصعد الا بالصعداء واحساس لا يلم به الا ألم الأواء هذه حياته أضاع كل شىء فى القناعة بلا شىء وهو يظن انه أدرك البغية وحصل على المنية — كيف وهو انخذال فى النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حاله وهو مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية

١٧٦

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

الشباب مطية الجهل ومظنة الذنوب وشعبة من الجنون ولذا قيل سكر الشباب أشد من سكر الشراب — قال النابغة

وان يك عامر قد قال جهلا فان مطية الجهل الشباب

والمال فتنة قال تعالى (انما أموالكم وأولادكم فتنة) فالمال ميال للهوى بل سبب حتف الانسان كما أن الطاوس قد

يذبح لحسن ريشه

ألم تر أن المال يهلك ربه　　اذا جمّ آتيه وسدّ طريقه

فمتى وجد الشاب مالا كثيراً وثروة عظيمة بلا تعب ولا كدر وكان وقته خلواً من الأعمال لم يلبث أن يتطرق اليه الفساد من حيث لا يدرى ولا يشعر ويلحقه الدمار والوبال من حيث لا يفهم ولا يعقل تأمره نفسه الدنيئة بالسوء والرذائل فيخضع للشهوات واللذات ويسبح فى بحار الضلال ويتيه فى وديان الغواية والظلام ويصرف نفيس وقته فى التفنن بضروب المفاسد طوعا لأوامر الشباب وخضوعا لسلطان الغرام ويضيع تلك الأموال الطائلة ويبدد تلك الثروة الهائلة فى غير مصارفها المباحة فتفسد أخلاقه ويرتكب أخس الدنايا ويحمل ذميم السجايا ويتجاهر بالفسق والفجور ويتباهى بالزنا وشرب الخمور ويجتمع حوله كثير من اخوان السوء وأعوان الشيطان الذين لا حظ لهم فى مجالسته ومصاحبته سوى اختلاس أمواله واضاعة ثروته فلا يلبث أن تنفد تلك الثروة وتذهب أدراج الرياح ثم يلتفت يميناً وشمالا لينظر أصحابه فلا يبصر أنيساً ولا جليساً ويصبح خالى الوفاض الحزن حليفه والكدر أليفه

والفقر قرينه والذل دثاره والهوان شعاره

هذا الذى ان عاش لا يعتنى به وان مات لم تندب عليه أقاربه

ويصبح من أموات الاحياء عالة على المجتمع الانسانى كئيب الحال كاسف البال

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الأحياء

انما الميت من يعيش كئيباً كاسفا باله قليل الرجاء

فالشخص الذى لا يعمل عملا ينفع به نفسه ووطنه ما هو الا عضو فاسد فى المجتمع الانسانى فيجب بتره قبل تفاقم الداء فيعسر الدواء ويتسع الخرق على الراقع

عدوى البليد الى الجليد سريعة والنار توضع فى الرماد فتخمد

كيف لا وأن الانسان لم يخلق ليلعب ويمرح ويلهو — ويترك ما خلق لأجله وهو العمل « فان يكن الشغل مجهدة فالشباب والمال والفراغ مفسدة »

وما للمرء خير فى حياة اذا ما عدّ من سقط المتاع

وبالجملة فالشباب والمال والفراغ دعائم الفساد ورأس الضياع وطرق الوقوع فى الحفر البعيدة الغور — فان الشاب الغنى الذى كثر ماله وعظمت ثروته ولم يتقيد بعمل من الأعمال

لا يتطلع الى شيء من معالى الأمور فان الفراغ منشأه عدم تقويم نفسه فى صغره وعدم تعليمه وبث روح العمل فيه فينشأ كارها له غير مدرك قيمته ومن نشأ علي شيء صار عادة له والعادة طبع ثان والطبيعة تصعب محاربتها

وقائد الانحطاط لذلك الشاب الذى لا عمل له وجود المال عنده فلا يحجم عن أى عمل تسوّل له نفسه الأمارة بالسوء ولا يزال يتحرك طوع شياطينه حتى تلتجئ نفسه الى ما لم تكن تعهده من الذل والهوان

١٧٧

﴿ وصف الدهر وعجائبه ﴾

أف للدهر ما أكدر صافيه وأخيب راجيه وأعدى أيامه ولياليه

أنا بالدهر خبير أمة من بعد أمه
ماصفا الدهر لشخص نصف يوم وأتمه

يسار الدهر فى الأخذ أسرع من يمينه فى البذل لا يعطى بهذه الا ارتجع بتلك

ألم تر أن الدهر يوم وليلة يكران من سبت عليك الى سبت

فقل لجديد الدهر لا بد من بلي　　وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت

الدهر لا يؤمن يومه ويخاف غده يغر ويمر ويسوء من حيث يسر فلا تهنى فيه المواهب حتى تتخللها المصائب ولا تصفو فيه المشارب حتى تكدرها الشوائب كله شر ان أضحك ساعة أبكى سنة وان أتى بسيئة جعلها سنة ومن أراد منه غير هذا سيره أراد من الأعمى عيناً بصيره ومن ابتغى منه الرعاية ابتغى من الغول الهداية

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى　　ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى

فمن سره أن لا يرى ما يسوءه　　فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال آخر

رأيت الدهر يرفع كل وغد　　ويخفض كل ذى شيم شريفه

كمثل البحر يرسب فيه در　　ولا ينفك تطفو فيه جيفه

الدهر كما عرفت وعلى ما خبرت يكر اذا فجع بالذخائر ولا غرو اذا استأثر بالاخاير

يادهر ويحك قد أكثرت فجعاتى　　شغلت أيام دهرى بالمصيبات

ملأت ألحاظ عينى كلها حزنا　　فأين لهوى وأحبابى ولذاتى

حمداً لربى وذما للزمان فما　　أقل فى هذه الدنيا مسراتى

من عرف الزمان لم يستشعر منه الأمان

يا صاحبي ان الزما ن كما علمت وما علمته
يفنى الذى جمعته بيدى ويحصد ما زرعته
ويخون من صافيته عمداً ويعشق من مقته

الدهر مشحون بطوارق الغير مشوب صفوأيامه بالكدر ممزوج صابه بالعسل موصول حبال الأمل فيه بأسباب الأجل

يا محنة الدهر كفى ان لم تكفى فخفى
ما ان يكن ترحمينا من طول هذا التشفى

فالدهر أبو العجائب ومظهر الغرائب — ولقد

عجبت للدهر فى تصرفه وكل أفعال دهرنا عجب

وهو مطبوع على التقلب لا يبقى لأحد حزنا ولا ضجرا ولا يترك له سروراً ولا فرحا

رأيت الدهر مختلفا يدور فلا حزن يدوم ولا سرور

١٧٨

﴿ وصف الحياة الدنيا ﴾

الدنيا غدّارة مناعة غرّارة ما هى الا دار النقلة وما المقام فيها الا للرحلة مصحوبة على شيمة معروفة وشريطة مألوفة

أف للدنيا وأيامها فانها للحزن مخلوقة
غمومها لا تنقضى ساعة عن ملك فيها ولا سوقة
يا عجبا منها ومن شأنها عدوّة للناس معشوقة

موهوبها مسلوب وان أرخت الى مهل وممنوحها محروم وان أخر الى أجل

أف لدنيانا الدنيه خبثت فعلا ونيه
عيشها بدؤه هم وعقباه المنيه

أف من أشغال الدنيا اذا أقبلت ومن حسراتها اذا أدبرت واجدها سكران وفاقدها حيران فهى أشبه شىء بظل الغمام وحلم النيام

هى الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركمو طول ابتسامى فقولى مضحك والفعل مبكى

الدنيا كالعروس المجلوّة تسرّ لخطابها وتفتن بغرورها فالعيون اليها ناظرة والقلوب عليها والهة والأبدان لها عاشقة وهى لأربابها قاتلة ومصائبها أكثر من نبات الأرض لا يسلم أحد منها فأف لها من دار ليس لها قرار تتقلب تقلب الثعبان وتغدر غدر الأفعوان

ألا انما الدنيا كمنزل راحل　　أناخ عشياً وهو فى الصبح راحل

فما هى الا أضغاث أحلام ودار رحلة لا دار مقام فلا يزال صفوها مشوبا بقذاها وكلنا ينافس فيها وما منا الا شاك من أذاها

يا خاطب الدنيا الدنية انها　　شرك الردا وقرارة الاقذار

دار متى ماأضحكت فى يومها　　أبكت غداً تبا لها من دار

حقيقة أن الدنيا مشتقة من الدناءة ولكل اسم من مسماه نصيب يوم لك ويوم عليك فهى خسيسة ترفع الوضيع وتضع الرفيع

ومن يحمد الدنيا لشىء يناله　　فسوف لعمرى عن قليل يلومها

اذا أدبرت كانت على الناس حسرة　　وان أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال آخر

تبا لطالب دنيا لا بقاء لها　　كأنما هى فى تصريفها حلم

صفاؤها كدر سراؤها ضرر　　أمانها غدر أنوارها ظلم

شبابها هرم راحاتها سقم　　لذاتها ندم وجدانها عدم

فخل عنها ولا تركن لزهرتها　　فانها نعم فى طيها نقم

واعمل لدار نعيم لا نفاد له　　ولا يخاف به موت ولا هرم

***

١٧٩

قوم اذا خافوا عداوة حاسد　　سفكوا الدما بأسنة الأقلام
ولضربة من كاتب ببنانه　　أمضى وأنفذ من رقيق حسام

معادات الكتاب ليست من أفعال ذوى الألباب وان مماراتهم ندامة ومسالمتهم سلامة ومصادقتهم فائدة وغنيمة باردة وما ظنك بقوم يملكون أزمة المنى والمنايا بحسن كلامهم ويخطبون على منابر الفضل بألسنة أقلامهم ويريقون دماء الأعداء بأسنة أقلامهم ولقد أغنت كتبهم عن الكتائب ونابت آثار أيديهم عن القواضب وأجرى على أناملهم حسام المنائح والمواهب ففى سواد مدادهم بياض النعم وحمرة الدم وفيه مرة روح الحياة وأخرى سم الحياة وطوراً حلاوة الأرى وتارة مرارة الشرى ويوما ثواب النعيم ويوما عقاب الجحيم

قوم اذا أخذوا الأقلام عن غرض　　ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وان كثروا　　ما لا ينال بحد المشرفيات

وبالجملة ان الانسان قد امتاز عن غيره من المخلوقات بواسطة عقله وتدبيره ولكن لم يظهر كمال عقله وتمام معرفته

الا بالقلم فانه بواسطته دوّن عمله وضبط أحواله وساس أموره ولولاه لم ينتقل الانسان من حضيض الهمجية الى أوج المدنية اذ لا ينكر أحد أن جميع المعارف لم يصل اليها الانسان الا بواسطته فان كل جيل يحفظ لخلفه بسببه ماوصلت اليه قدرته وأظهرته فكرته وبذلك تيسر للاحق أن يهذب أعمال السابق ويتممها وهكذا حتى وصلت الأمم الى ما نراه الآن من الحضارة والعمران

أنظر بم تعلم الانسان وبم كتبت جميع الكتب وبم تضبط الحكومات أعمالها وأموالها وسائر أحكامها وقوانينها أبغير القلم الذى علم الله به أولا وحلف به آخراً وجعله كاتب وحيه ولسان أمره ونهيه فالعلوم من آثاره والآداب من ثماره والسيوف والرماح من خدمه ولله درّه أخاسما الى سماء الفضل وفلك المجد وينبوع الجود

فأرباب الأقلام هم سادة الناس وبيدهم تدبير شؤونهم وترتيب أحوالهم وكل طائفة من الخلق تحت أحكامهم وطوع أقلامهم — وان الأمم مرتبطة بكتابها فى الرفعة والضعة فكل أمة كثرت فيها الأقلام ارتفعت درجتها وعظمت

شوكتها وازدادت حضارتها

١٨٠

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا صلاح اذا جهالهم سادوا
تهدى الامور بأهل الرأى ما صلحت فان تولت فبالاشرار تنقاد

ولاة الأمور من أعظم واجبات الحياة فهم قوام الدين والدنيا وعليهم فى حركة الأعمال مدار البركة العليا وبدونهم يختل نظام العالم فلولا ولى الأمر لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ولا التاجر على تجارته ولولاهم لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وطمع بعضهم فى بعض واستولى الأقوياء على الضعفاء وتمكن الأشرار من الأخيار فيضطرون الى التشرد والتفرد وفى ذلك خراب البلاد وفناء العباد فالملك كالروح والرعية كالجسد ولا قوام للجسد الا بروحه

ونظام العمران محتاج الى قوتين احداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد وثانيهما القوة المحكومة وهو القوة الأهلية التى لا تسود ولا تنمو الا بالقوة الحاكمة التى

تكون من العلماء العـاملين الذين تدرّبوا وتمرّنوا وتعوّدوا الاصابة فى الرأى والاجادة فى الحكم والنظر فى العواقب والرفق بمخلوقات الله تعالى — وحينئذ فلا ينبغى أن يكونوا جهلاء فان الجهل هو العقبة الـكؤود فى تقدّم الأفراد بل فى تقدم الأمم ولم يوقع الناس فى الأزمان الغابرة فى العداء والشقاق والتفرق والظلم والاستبداد الا هو ولم يلهم عن البحث فيما يقدمهم وعن الخيرات التى لم تخلق الا ليتمتعوا بها سواه — وقد قيل « الناس على دين ملوكهم » فاذا كان الملك جاهلا خائر العزيمة كانت أمته كذلك وان لم يكن الملك عارفا واجباته دارسا سياسة ملـكه فلا يلبث أن يضيع من يده فيقعد ملوما محسوراً — وقد قيل « جهل الرئيس يضل المرءوس »

واحتياج الملك للعلم ليس بأقل من احتياجه للعدل فانه أساس الملك وان لم يكن متوجا به تألبت عليه الرعية وأسقطته فوق عرشه — وكذا التدبير والحزم والا تداخل أعداؤه فى شؤونه وأفسدوا عليه أموره

فالوالى يجب أن يكون نموذجا للرعية ومثالا للـكمال والاستقامة من كل وجه حتى ترغب فيه أمته وترجو له عمرا

طويلا وملكا كبيراً وتحرسه وتفديه بأرواحها وأموالها

وبالجملة فقد قال الله تبارك وتعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وقال تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل انّ الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيراً) وقال فى آية أخرى (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى العدل وهذه آيات محكمات ليست بمتشابهات علينا — وفى قدرة عقولنا أن نتناول من لآلئ معانيها ودر أساليبها مايكفى أن نتحلى به ونظهر فى أجمل شكل وأبهج منظر فان حكم المشروعات انما هى متناسبة مع درجات الالزام بها — وأرقاها ما كان مفترضاً فاذا حتم الله على العبد أمراً كان له فى اتيانه أتم سعادة كما أنه ان حتم عليه ترك شيء جنى من تركه أطيب ثمرة

ولعلم الله تعالى أن العدل عماد يقوم عليه نظام العيش وبعبارة أخرى محور تدور عليه دوائر العمارية أمر به فى عدّة مواضع وقدّمه على غيره مما ألزم الناس به — وقال صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته) ولا

يحسن جواب السؤال الا من عدل فيها واتقى — وقد قيل العدل أساس الملك — وذلك صحيح فان الملك ان عدل وجد قلوبا تميل اليه وبطانة صادقة ورجالا أمناء يتقون الله فى مشورتهم وأجمعت أمته على صلاحيته لقيادتها فكلّ يعمل ما يرضيه ويرضى الهيئة الاجتماعية لأن «الناس على دين ملوكهم» والغشوم الظلوم ان وجد من يأخذ حقوق الضعفاء منه ولى وجهه عن الاغتيال فيرتاح الضعيف بجانبه ويهنأ كلاهما — وقد قيل «بالراعى تصلح الرعية وبالعدل تملك البرية» كما قيل « كفى بالعدل حارساً » — وقيل أيضاً «من سعادة الملك محبته للعدل ومن علامة محبته للعدل مخالطته لأهل العلم ذوى الدين ورغبته فى محادثتهم ليذكروه بما يجب عليه من العدل الذى هو سعادته فى الآخرة ودوام ملكه فى الدنيا وميل القلوب اليه وجريان الألسن بالدعاء له» فالعادل فى ملكه والعادل فى اخوانه وعشيرته والعادلة فى بيت زوجها لا يجد كلّ من يحقد عليه ويحسده فلا يتوقع أن يؤذى ولا يحتاج الى حرس ولا حجاب

وحسبك الخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز وهرون الرشيد وابنه المأمون فقد روى التاريخ عن هؤلاء وأمثالهم

ما يضحك السنّ ويريح الأفئدة ويشرح الصدور — وقد قيل

يا راعى الشاء لا تغفل رعايتها فأنت عن كل ما استرعيت مسئول

وقال أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه انى لأستحيي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً الا الله تعالى — وكتب الى عمر ابن عبد العزيز بعض عماله يستأذنه فى تحصين مدينته فكتب اليه «حصنها بالعدل ونق طريقها من الظلم» وقال المهدى لبعض عماله «آثر الحق والزم القصد وابسط العدل وارفق بالرعية واعلم أن أعدل الناس من أنصفهم من نفسه وأجورهم من ظلم الناس لغيره» — هذا

وقد علم مما ذكر أن مدار انتشار العدل فى الرعية على انصاف الراعى بهم فان الناس بفطرتهم مقلدون لرؤسائهم كما قيل « الناس تبع لامامهم فى الخير والشر »

ولما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال ان الذى أدّى هذا لأمين فقال له رجل يا أمير المؤمنين أنت أمين الله يؤدّون اليك ما أديت الى الله تعالى فان رتعت رتعوا ومن أمثالهم اذا صلحت العين صلحت سواقيها

ومما يحكى أن جبلة بن الأيهم آخر ملوك بنى غسان الذى

أسلم أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين افتتح الشأم خرج الى مكة حاجا فى مائتين وخمسين رجلا فلما قرب منها قلد أعناق خيله قلائد الذهب والفضة ولبس التاج ولما بلغ سيدنا عمر بن الخطاب قدومه تلقاه ورحب به ورفع مقامه حتى اذا كان يوم الطواف والنـاس يطوفون وهو من جملتهم اذ داس أعرابى طرف ازاره فانحلّ عنه فغضب ولطم الاعرابى لطمة هدم بها أنفه فتعلق به الرجل حتى قدما الى عمر بن الخطاب وشـكى الأعرابى حاله اليه فقـال عمر لجبلة دعه يلطمك كما فعلت به فقال جبلة ألا يفضل ملك عن سوقه فقال عمر كلافان الاسلام سوّى بينـكما فغضب جبلة وقال لأمير المؤمنين أمهلنى فأمهله فلما جاء الليل فرّ بغلمانه راجعاً الى الشأم ومنها سار الى ملك الروم وبقى عنده حتى هلك وبه انقرض ملوك غسان وصارت بلادهم عمالة اسلامية

١٨١

وما المرء الا حيث يجعل نفسه　　فكن طالباً فى الناس أعلا المراتب

لقد صدق الشاعر وأجاد وأفاد أن الانسان حيث يجعل نفسه فان وضعها فى موضع شريف شرفت وان أحلها فى محل

خسيس خبثت وسقطت فينبغى للانسان أن يشيدلنفسه محلا رفيعاً ومقاما عظيما تليق به ويكرمها بتغذيتها بالعلوم والمعارف والآداب والعفة والقناعة والفضيلة ومن لم يكرّم نفسه لا يكرم

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هوانا بها كانت على الناس أهونا

كيف لا وأن الانسان العاقل اذا اجتاز فضيلة عليه أن يمدّ بصره الى غيرها أعلى منها مرتبة وأعز درجة — وتقول هذه النفس الطامحة الى المعالى هل من مزيد ولا تقف تلك النفس الشريفة الأبية عن الخسائس الى أجل محدود من النفائس

فالمرء بهمته لا بأسرته وبعقله لا بعقيلته وبعمله لا بماله وبأدبه لا بحسبه فاذا نهض بنفسه الى ذرا المعالى فقد رفع قدره وأصلح أمره

بخلاف من قصرت همته عن ادراك المراتب العالية والدرجات السامية حيث وضع نفسه فى درجة سافلة ولم يعودها حب العمل والاجتهاد والمثابرة والثبات ومكارم الأخلاق بل وقف بنفسه الى حدّ لا تتعدّاه واستبعد العلا عليها ولم ينهض بها الى أعلا المراتب وبذلك أنزلها الى هوّة الحضيض فهانت عليه نفسه فتهون على غيرها وتصير نفساً سيئة منحطة

جرثومة للفساد والعبث بين العباد أمارة بالسوء قائدة للشهوات واللذات خبيثة شريرة ضالة مضلة معتدية أثيمة همزة لمزة نمامة كذابة منافقة خائنة تقود صاحبها الى الردى وتصده عن الهدى وتوقعه فى شرك الهوى

١٨٢

﴿ سفن الهواء ﴾

سفن الهواء تلك «المناطيد» التى تسير فى الفضاء كما تسير البواخر على الماء أو كما تسير السيارات والدرّاجات على الغبراء وقد اعتنى بها أهل الغرب واهتموا بصناعتها أعظم اهتمام حتى صارت اليوم وهى على ما يرام يطيرون بها فوق السهول والجبال ويطوفون ساعة أو ساعات بين الأرض والسماء

وليست هذه الصناعة قديمة العهد كسفن الماء فهى بنت عشرين عاما وقد خطرت ببال الغربيين كما خطرت بقية الاختراعات وعدّها كثيرون فى أول أمرها حلما لا يمكن تحقيقه ولكن أصحابها ما زالوا يهيئونها ويحسنونها حتى نجحوا فيها نجاحا عظيما وصارت الآن من الاختراعات الثابتة وبعد ما كان الكثيرون يعدونها حلما كاذبا أصبحوا اليوم وهم

يرجون أن يسافروا فيها يوما بين الأقطار والأمصار كما يسافرون على البحار

والغريب أن الذين اهتموا بتلك الصناعة قد جعلوها شغلهم الشاغل ولم يبخلوا عليها بالنفس والنفيس حتى سماهم الناس «عشاق الهواء وقتلى المناطيد» — وأكثر الذين نجحوا فيها لم يتيسر لهم النجاح الا بعد ما خاطروا بنفوسهم مراراً وأنفقوا أموالهم الطائلة مثل الكونت «زبلين» الألمانى فقد عشق صناعة المناطيد وهو من كبار الأغنياء فأنفق مالا كثيرا حتى نجح فى صنع منطاد سماه باسمه ثم أراد تجربته فركبه وصار فى الفضاء فهوى المنطاد به من علوّ شاهق وكاد يموت ضحية هيامه بتلك الصناعة

وما كان الكونت زبلين يعدل عن تلك الصناعة بعد تلك الحادثة فعاد الى انفاق المال حتى نجح فى صنع منطاد جديد ثم جرّبه فظهر له أنه واف بالمرام وما زال يغير ويبدّل وينشئ المنطاد أثر المنطاد حتى أنفق ثروته كلها وصار من فقراء الناس ولكنه نجح فى صنع منطاد كبير جرّبه فوق جبال « الألب» المشهورة وتمكن من أن يبقى فى الفضاء اثنتى عشرة ساعة

متوالية فكان هذا النجاح أعظم عزاء له بعدما فقد ثروته الطائلة

وهكذا جرى لأكثر الذين اشتغلوا بصناعة المناطيد فأنفقوا الأموال الكثيرة وتعرّضوا للموت مراراً اذ كثيرا ما هوت بهم المناطيد من أوج الفضاء وقدمات بعضهم وأصيب البعض بعطب . وندر من سلم من الضرر — ومن ذلك يظهر بالضرورة وسنة الترقى أن تلك الصناعة لم تنجح بسهولة وهو مايصدق فيه قول أبى الطيب

تريدين ادراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل

أما اليوم فقد أصبحت تلك الصناعة على مايشتهى أهلها بعد طول التجربة وكثرة التحسين وقد اشتغل بها كثيرون من الغربيين وجروا فيها على مبدأ المسابقة والمزاحمة — وأهم المناطيد التى اشتهرت هى المنطاد (لاباترى) الفرنساوى ومنطاد (زبلين) الألمانى ومنطاد (فرمان) الاميركانى ومنطاد (وريط) الانكليزى - أما الأول فقد قيل انه أكبر منطاد صنع حتى الآن وقد كان ملكا للحكومة الفرنساوية وكانت عازمة على استخدامه فى وقت الحروب ولكن جرى منذ مدة أن الرياح الهوج عصفت به وملأت جوفه فقطعت حباله

وطارت به الى حيث لا يعلمون وما زال مفقوداً حتى الآن ولكن الذين صنعوه يصنعون الآن غيره من طرازه

وأما منطاد زبلين فقد تقدم الكلام عنه — ومما نزيده على ذلك من البيان أن برلمان الألمان قد وعد صاحبه بأن تعطيه الحكومة جائزة مائة ألف فرنك ان تمكن من أن يجعل منطاده يطوف فى الفضاء أربعاً وعشرين ساعة متوالية فالكونت زبلين يهتم الآن بتحسين منطاده رجاء أن يطير به ٢٤ ساعة فينال تلك المكافأة التى تعوضه قسما من ثروته

وأما فرمان الأميركانى فهو موجود الآن فى باريس ومنطاده من أكبر المناطيد الحاضرة وهو ما زال يزيده تحسينا ويقال أنه مصمم على أن يسافر به الي القطب الشمالى فى مستقبل الأيام

وأما منطاد وريط الانكليزى، فهو اليوم حديث الناس فى كل مكان لأن الحكومة الانكليزية قررت أن تجعله سفينة حربية هوائية وطول هذا المنطاد ١٧ متراً وعرضه ١٣ مترا وقد جربه صاحبه مراراً فى سماء لندن وغيرها فكان يعلو به ويهبط ويطوف فى الهواء بسهولة تامة فلما تأكدت الحكومة

الانكليزية نجاحه رأت أن يكون لها منه أسطول فى الفضاء يحمل القنابل والديناميت وأدوات الخراب والدمار كما تحملها المدرعات والطرّادات الماخرة فى البحار — وليست انكلترا مبتكرة لهذه الفكرة فقد سبقتها فرنسا وأعدّت المنطاد (لاباترى) ليكون سفينة حربية هوائية وحكومات ألمانيا والنمسا وايطاليا وروسيا وأميركا كلها تفكر بأن يكون لها أساطيل فى الهواء وربما غدت تتسابق فى انشائها كما تتسابق فى انشاء المدرّعات وسائر السفن الحربية البحرية فاذا نشبت حرب بينها فى المستقبل تقابل بعضها فى البرّ والبحر والفضاء والعياذ بالله

وربما أصبحت المناطيد بعد زمن قليل وهى تنقل الناس من مكان الى مكان بين الأقطار البعيدة كما تنقلهم سفن البحار والقطارات الحديدية فما أعجب اختراعات الانسان فى هذا الزمان

١٨٣

﴿ المرء بأصغريه قلبه ولسانه ﴾

ان قوّة النفس الناطقة التى بها نفتكر ونميز الأشياء تسمى نطقا وكلاما مستقيما وهذه القوّة الانسان وحده قد استحقها من الله وبها يفوق كل خليقة منظورة — لأنه بها يتعلم الصناعات

والعلوم ويستنبط حقائق جديدة ويعمر المدن ويسوس سكان البلدان ويتمم كل الأعمال العجيبة التى لايقدر مخلوق من المخلوقات أن يعملها ويتقنها علي الأرض

وبهذه القوّة يتصوّر الانسان فى عقله مقاصد مختلفة ويستحصل الوسائط التى بها يمكنه أن يفوز فيها فمن ثم يتضح أن الانسان هو مطلق الارادة فى أن يفعل كل ما يفتكر فيه أنه نافع ومفيد الا اننا نشاهده لايفعل دائما كل مايلذّ حواسه لكنه يرتضى بأشياء مضادة ولاسيما اذا كانت نافعة -- مثلا يشرب دواء مرّا فى حال مرضه ليشفى . ويتعب ليتعلم وينجح ويشقى بحريته واختياره ليسعد فهذه القوّة التى بها يحتقر الملذات ويختار المحزنات تسمى ارادة

النطق القويم يجد الانسان ماهو واجب أن يعمله والارادة تتمه بالعمل — فالأمور التى يحكم فيها النطق القويم لأجل الانسان تسمى أموراً صالحة أوخيرات فالانسان اذاً هو قاضى الخير الذى أفعاله تسمى فضيلة فالنطق القويم يميز الخير بواسطة بعض شرائع وقوانين يعلمنا اياها العلم الذى يسمى علم الأدب أو تهذيب الأخلاق

فاذاً من الواجب علينا أن نحب الفضيلة لأن النطق القويم يعلمنا اياها أعنى أن نعلم بها أنفسنا نحن الذين قد خلقنا ناطقين وأن نجتهد بكل قوانا لنصير فضلاء فالفضيلة تعلمنا ما الذى يجب علينا أن نعمله لأنفسنا وما الذى يجب علينا أن نعمله لسوانا من الناس وكيف نسلك ونسير لدى خالقنا المتعالى

١٨٤

ما يجب على الانسان أن يعمله لذاته

أن شرف الانسان العظيم هو النطق وبه يُسمى الانسان شخصاً وما سواه من المخلوقات تسمى أشياء — هذا ونحن نلاحظ متأملين النطق على أمرين وهما ميل عجيب لنتعلم معارف مختلفة وميل آخر لنعيش عيشاً سعيداً الا ان الانسان لا يمكنه أن يكون سعيداً باللذات لأنها وقتية وبعد اجتيازها تخلف فى قلبه حزنا ولكن حالما يعمل الخير والفضيلة يشعر فى ذاته بفرح دائم يستمرّ فى قلبه نامياً — فاذاً لكى يكون الانسان سعيداً يجب عليه أن يفعل الخير أى الفضيلة

وبما أن النطق القويم يعلم الخير يتضح اذاً أن الذين لهم هذه القوّة قادرون أن يعملوا الأعمال الفاضلة فاذا كانت

هـذه القوة بطالة فالأفعال التى تصير من النهضة الطبيعية لا تكون فاضلة ولا ردية — مثلا الأفعال التى تفعلها الاطفال ليس فيها فرق ولا تميز ومثلهم الانسان المجنون اذا شتم آخر وعمل عملا بلا ترتيب أو استكن محتشما فأفعاله هذه ليست بخير ولا بشر لان النطق المستقيم ليس فاعلا فيها

لكن الفكر الصائب اذا كان فعالا يدلنا على القوانين التى بها ينبغى لنا أن ندبر أعمالنا ونسوسها — وهذه القوانين تسمى واجبات

١٨٥

﴿ احتفظ على شرفك المختص بشخصك وأتمه ﴾

لا مشاحة أن الانسان يحب سعادته وذلك يكون بعمل الفضائل — والفضيلة الأولى هى أن يعيش كما يقتضى لشرفه الشخصى أى أنه لا يحتقر الناس ولا يهينهم لأنهم هم أيضاً لهم الشرف الشخصى نفسه ولا يستهزئ بفاعليه ولا بالله تعالى الذى خلقه فكل اباحة فى اللذات التى تهين شرفنا وتجعلنا بهائم عوضاً عن أناس ناطقين هى خطيئة فلا يجب أن يضل الانسان عن شرفه خوفا ولا ارضاء الناس ولا لألم من الآلام ولا يتعبد

لآخر لئلا يلزم لأفعال مهينة لشرفه الانسانى فمن هذه الشجاعة التى يمكن أن تسمى حمية شريفة يفيض الامساك والطهارة والتواضع والسجايا التى منها نتمتع بفرح راحة ضميرنا الذى لا يوصف بكرامة الناس وبالأنس وقوّة النطق — فبهذه الطريقة نصلح ونزيد كل فرح عائد الى العيشة المشتركة وبعكس ذلك أى اذا أهان الانسان شرفه الشخصى فانه يرذل ذاته ويصير حقيراً مرذولا مرائيا كذوبا متشامخا مفرّطا متزندقا بهيميا فيعيش بالبذخ والاسراف مجتهداً فى أن يكون مرضيا رفقاءه المشابهين له ويقول انه عائش بالظرافة والانشراح ليغطى عيشته وسيرته القبيحة لكنه لدى التحقيق نجده خاليا من الانشراح ودنيئا حقيراً جداً وعبداً ذليلا لآلامه وشهواته ومستوجب الاحتقار والاهانة من كل انسان فاضل — فضع أمام عينيك نتائج الفضيلة الممدوحة وعواقب الرذيلة المنهى عنها اهرب من المعاشرات الرديئة وابتعد عنها وقبل كل شئ ضع فى عقلك عدل الله تعالى

***

١٨٦

﴿ هب أنك وليت الملك فبماذا تعامل أمتك لتكون محبوبا عندهم ﴾

إى والله أكون الملك العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوّة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف — وأكون كالراعى الشفيق على ابله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والبرد وكالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها تفرح بعافيته وتغتمّ بشكايته وكالأب الحانى يسعى لأولاده صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته

أيرضى الوالد الرحيم أن يأكل ويشرب أطيب المأكول والمشروب ويلبس الكسى الفاخرة وأولاده يقتنعون من دهرهم بالخسيس من المطعم والملبس — أيرضى أن ينام على فرش وثير وأبناؤه يتوسدون الثرى

وأكون موجهاً نظرى فى عمارة الأرض قبل توجيه نظرى الى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة

ولا عمارة الا بالعدل « فالعدل أساس الملك » ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا

فالملك الذى يسلب أموال رعيته ويثقل كاهلها بالضرائب مثله كمثل من يأخذ الطين من أصول حيطان بيته فيطين به سطوحه فيوشك أن يقع عليه البيت

وليس يعين الظالمين بظلمهم سوى أدنياء تستلذ المثالبا
فهم مثل كلب الصيد يتبع ربه ليلتذ لا نفعا جنى بل متاعبا
ومن آثر الدنيا على حسن سمعة وذكر له يبقى ويبقى المناقبا
فذاك كمن عاف النعيم مخلدا بلذات دنيا برقها كان خالبا

وانى أخاف الله تعالى فلا أسلك بأمتى سبيل الظالمين ولا أسلط المستكبرين على المستضعفين ولا أنظر الى قدرتى الدنيوية ولكن أنظر الى قدرتى الأخروية وأنا مأسور فى حبائل الموت وموقوف بين يدى ملك الملوك الأعلى سبحانه وتعالى

غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
ان أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وان أساءوا فبئس ما صنعوا

وأكون موجها نظرى الى نشر العلوم والمعارف فى أنحاء

المملكة فقد قال فيكتور هوجو « علموا الجهال ما استطعتم فان أعظم جرائم الحاكين أنهم لا يجعلون التعليم مجانا والجهل ظلمة وان تبعة الذنوب التي تجرى فى هذه الظلمة عائدةعليهم وليس المجرم من يقترف الذنب بل المجرم من ينشر الظلمة على الأرض »

ولا أسلب أمتى الاستقلال والحرية فانه لا سعادة الا بالحرية ولا معنى لحياة العبودية فالحرية فطرة طبيعيه مغروزة فى كل حى — قال الامام عمر بن الخطاب « تريدون أن تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »

فعلىّ عهد الله وميثاقه أن أواصل الليل بالنهار فى اصلاح شؤون أمتى ما استطعت — وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أونيب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ تم ﴾

*

*